د.يسري هاشم

11 يوماً مات بعدها جمال عبد الناصر

المحروسة

شكر وتقدير، مع الاعتذار عن الألقاب والترتيب

- محجوب عمر "رؤوف نظمي ميخائيل"
- قدري حنفي
- منى عبدالله
- سيد هاشم
- مصطفى الفقي
- سمير غطاس
- أشرف العشماوي
- سعيد عيد
- مدحت عسكر
- محمود الشنواني
- محمود عثمان
- سعيد عكاشة
- خالد شاهين
- مصطفى هاشم
- إيمان يحيى
- ريم أبو فضل
- أمينة زيدان
- سارة هاشم
- نور يحيى
- أشرف هاشم
- دعاء هاشم
- فؤاد نيازي
- إنعام كجه جي

11 يَومًا
ماتَ بَعدَها عَبدُ النَّاصِر

د. يسري هاشم

عنوان الكتاب: 11 يَومًا.. ماتَ بَعدَها عَبدُ النَّاصِر
المؤلف: د. يسري هاشم

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 28432157 02 002

mahrousaeg
almahrosacenter
almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
info@mahrousaeg.com
mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع:٢٠١٥٨ / ٢٠٢٠
الترقيم الدولي: 978-977-313-824-0
جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2020

11 يَومًا..
ماتَ بَعدَها عَبدُ النَّاصِر

د. يسري هاشم

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

هاشم، يسري

11 يومًا مات بعدها عبد الناصر/ يسري هاشم.-

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2020

214 ص؛ 17×24

تدمك: 978-977-313-824-0

1- جمال عبد الناصر، 1918 - 1970

-2 مصر- تاريخ - العصر الحديث - جمال عبد الناصر (1954 - 1970م)

أ- العنوان

923.162

رقم الإيداع 2020/20158

إهداء

إلى روح محجوب عمر: "رؤوف نظمي ميخائيل"..

الأخ والصَّديق؛

وفاءً لِعَهدي لَكَ في مَرَضِكَ الأخير...

المحتويات

تصدير 9

بقلم: د. مصطفى الفقي

مُقدِّمة 13

المِصريُّون في الثورة الفلسطينيَّة

الدُّكتور يسري، وكَتيبَةُ الأطبَّاءِ الفدائيِّين

بقلم: د. سمير غطَّاس

مُقدِّمة المؤلِّف 21

الفصل الأوَّل 27

عمَّان

الفصل الثاني 63

جنوب الأردن

الفصل الثالث 101

مستشفى الأشرفية

الفصل الرابع 165

أحراش جرش

ما بعد الختام 209

نبذة عن الكاتب 213

تصدير

طبيب، سياسي، وصديقٌ... على امتداد خمسين عامًا مَضَت، جمعتني به محطَّاتٌ مُتعدِّدة، بدأت بالعضويَّة المشتركة لمُنظَّمة الشباب العربي الاشتراكي، حيث كان اللقاء الأول في أحد معسكراتها، عام 1966، وكان هو مُوجِّهًا سياسيًّا فيها، وكنتُ أنا خِرِّيجًا حديثًا من الجامعة، أشارك في مجموعةٍ أخرى داخل معسكر المنظمة. ومنذ اللقاء الأول شعرتُ أنني أمام شخصية مُرتَّبة الفِكر، صافيةِ الذِّهن، وطنيَّةٍ حتى النُّخاع، وكنتُ أعرف أيضًا بعض أصدقائنا المشتركين، في مُقدِّمَتهم: أستاذُ الطِّبِّ النفسيِّ الراحل د. أحمد شوقي العقباوي، ود. محمد المشد، وكوكبَةٌ من شباب مصر المتألِّق في مجال الخدمة الطِّبِّيَّة، وفقًا لفلسفةٍ خاصَّةٍ تقوم على أنها حَقٌّ للإنسان، كالماء والهواء؛ على حدٍّ تعبير صاحب هذه المذكِّرات.

والدكتور يسري هاشم هو نتاجٌ لثورة يوليو عام 1952، وقد انغمس في العمل السياسي وفقًا للمشروع الوطني والحلم القومي الذي كان سائدًا في ذلك الوقت، واستطاع أن يضع اسمه مع قياداتٍ عربيَّة، مُؤمِنًا بقيادة عبد الناصر، مثلنا جميعًا، نحن: أبناء ذلك الجيل الذي آمن بالثورة والحرية والاشتراكية. ولقد جَرَت مياهٌ كثيرة وتدفَّقَت في قنوات النهر، لتذهب بكلٍّ مِنَّا في طريقه، وكانت المحطة الثانية للقائي معه هي عملي في مدينة لندن، حيث كنت دبلوماسيًّا

في القنصليـة العامّـة، ثـم في السـفارة، وكنـت أدرس في ذات الوقـت للحصـول عـلى الدكتـوراه، التـي نِلتُهـا مـن جامعـة لنـدن عـام 1977، وكان الدكتـور يـسري هاشـم وقتَهـا مُلحقًـا طبِّيًـا ومُسـاعدًا للمستشـار الطبـي للسـفارة: الدكتـور عبـد الغفـار خَلَّاف -رحمـه الله-؛ فتجـدَّدَت صِلَتُنـا، وتَرَسَّـخَت علاقتنـا، قبـل أن يُـودِّع عاصمـةَ الضَّبـاب ويذهـب للعمـل في المملكـة العربيـة السـعودية. ثـم انقطعـت عنِّـي أخبـار الصديـق الدكتـور يـسري هاشـم، إلَّا مـن خـلال لقـاءاتٍ عابِـرَة، أو معلومـاتٍ مُتناثِـرَة، ولكـنَّ ذلـك الطبيـب الفريـد مـن نوعـه ظـلَّ قابِضًـا عـلى مبادئـه، مُتمسِّـكًا بأفـكاره، وَفِيًّـا لأصدقائـه، كالمعـدن الأصيـل الـذي لا يصـدأ، وهـا هـو يدخـل في ثمانينيَّـات العمـر، يُلَملِـمُ أوراقَـه، ويَمتَحِـنُ ذاكِرَتَـه، ويلتقـط أوراقَ الخريـف المتسـاقطة مـن رفـاق العمـر وشركاء الحيـاة، ولقـد تميَّـز يـسري هاشـم بقدرتـه عـلى اسـتيعاب المعلومـات وامتصـاص المواقـف، فعـرف طبيعـةَ الصِّراعـات عـلى السُّـلطة، والصِّـدام بـين التنظيـمات المختلفـة، ورأى -عـن قُـرب- المُواجهـات القائِمَـةَ بـين مراكـز القـوى في عهـد الرئيـس عبـد النـاصر، وكانـت سـنواتُ تَطوُّعِـه مـع المقاومـة الفلسـطينية في معركـة التحريـر -كطبيـبٍ مقاتـل- هـي نقطـةٌ مُضيئـةٌ في حيـاة ذلـك المـصري الـذي دافـع عـن المصالـح العليـا لأُمَّتـه العربيـة، مُقاتِـلًا في صفـوف المقاومـة ضـدَّ الاحتـلال الإسرائيـلي، وهنـاك اكتسـب شـبكةً قويَّـةً مـن العلاقـات القوميـة مـع رفـاقٍ مـن مختلـف الـدول العربيـة، ولقـد توثَّقَـت علاقتـه برفيـق دربـه في النضـال: محجـوب عمـر؛ المـصري، القبطـي، الـذي كان اسـمه الأصـلي هـو رؤوف نظمـي ميخائيـل، وقـد تَبنَّـى الماركسـية في سِـنٍّ مُبكِّـرةٍ، وشـارك في إنشـاء "تنظيـم الرايـة" اليَسـاريِّ، وقـد قـضى في السـجون عـشر سـنوات بسـبب انتمائـه التنظيمـي، ولقـد كانـت صداقـةُ النِّضـال، وزَمالَـةُ المعـارك بـين يـسري هاشـم ومحجـوب عمـر نموذجًـا لشَراكَـةِ الـدَّمِ، مَهْمَا اختلفَـت الأديـانُ أو الأصـول؛ إذ إن مظلَّـة النضـال تُغطِّـي الجميـعَ، وترفـع رايـةً واحِـدَة: هـي رايـة الحَـقِّ والعـدل والحريـة.

ولقـد كان يـسري هاشـم -كرفيقـه محجـوب عمـر- مناضـلًا برجماتيًّـا، لا تسـتغرقه الفلسَـفَةُ، ولا يمـضي وراء العواطـف، ولكنـه كان دائمًـا يضـع نُصـبَ عينيـه آمـالَ أُمَّتِـه وآلامَ شـعبه، وهـا هـو يدفـع إلى المطابـع بمُذكِّراتـه القَيِّمـة، التـي تُعتَـبَرُ سِـجلًا أمينًـا عـن فـترة هامَّـة مـن تاريخنـا العـربي، حيـث سـبَقَت مُباشَرَةً رحيـلَ عبـد النـاصر، بمـا تَبِعَهـا مـن تَغيُّراتٍ هائلـة نالـت مـن المـشروع القومـي، وأفسـحت الطريـق للمـشروع

الإسـلامي، وكانـت مَخاضًـا لعَـصرٍ قَلِـقٍ، يمـوجُ بالتَّيَّـارات الجديـدة، بـل والأفـكار الوافِـدة، حتـى أصبحنـا -نحـن العـرب- مثـل الأيتـام عـلى مائـدة اللِّئـام!

تحيَّـة للصديـق المُتميِّـز الدكتـور يـسري هاشـم؛ لهـذه الصفحـات المَطويَّـة مـن نضالـه -هـو ورفاقـه- مـن أجـل مسـتقبلٍ أفضـلَ للأجيـال القادمـة.

د. مصطفي الفقي

مدير مكتبة الإسكندرية

يونيو 2020

مُقدّمة

المِصريُّون في الثورة الفلسطينيَّة
الدُّكتور يسري، وكَتيبَةُ الأَطبَّاءِ الفدائيِّين

منـذ فَجـرِ عـصر التَّدويـن -وحتـى الآن- وقفنـا حائريـن، دون إجابـةٍ مُقنِعَـة عـن الأسـئلة الكـبرى التـي تَخُـصُّ التاريـخ والتَّأريـخ.

فَمـن هـو ذا الـذي يُمكِنـه أن يُؤكِّـد -أو ينفـي- صِحَّـة الرؤيـة التاريخيَّـة، أي رؤيـة تاريخيـة، ومـا هـي المعايـير التـي يَعتَمِدُهـا مَـن يؤكِّـد أو ينفـي، أو مَـن يُضيـف أو يحسـم، ومَـن يُصحِّـح أو يُخَطِّـئ الرُّؤيَـة التاريخيَّـة.. أي رؤيـة تاريخيـة؟

ثمَّـة سـؤالٌ آخـر يَخـصُّ التاريـخ: فمَـن هـو ذا الـذي يتصـدَّى لكتابـة وتسـجيل التاريـخ، أَهُـوَ فقـط المُنتَـصِر: أكان دولـةً أو فـردًا؟

ومـاذا عـن تاريـخٍ مـا أهملـه التَّأريخُ، أو أخفـاه أو طمسـه المُـؤرِّخ، وهـل ذاكرتنـا التاريخيـة هـي مـا يُمليـه علينـا المُنتَـصِر؛ فنتناقلـه -أو ننقلـه للأجيـال الصَّاعـدة- في

الكتب المدرسيَّة "الصَّفراء"، وفي منابر الإعلام، وفي صحفنا وقنواتنا الفضائية، وفي الخطابات المُعلَّبة مُنتَهِيَةِ الصلاحية؟

بدأتُ هذه المُقدِّمة بكل هذه العبارات -ربما الصَّادمة- وأنا في حَضرَة كتابٍ يُبحِر بنا عكس هذا التيَّار السائد، ويكسر المألوف والمعتاد، كتاب يَسرِدُ التاريخ كمادَّةٍ خام، لم تمسَّها يَدُ الحِرفَة فتَحرِفُها، أو تُحرِّفها عن مقاصدها.

نحن مع هذا الكتاب أمام سرديَّةٍ تاريخيَّةٍ لصفحةٍ واحدة من سيرة ذاتية للدكتور يسري هاشم، الطبيب المصري، الذي يكشف لنا -بدقَّةٍ وسلاسَةٍ- الوقائِعَ الحَيَّة لواحدةٍ من أكثر الأيَّام صعوبةً، بل من أكثرها دمويَّةً في تاريخ العلاقة المُركَّبة، المُتداخِلة، والمُعقَّدة للثورة الفلسطينية بمحيطها العربي، وخاصة بالنظام الهاشمي في الأردن، تلك الأيام التي باتت تُعرَف بـ "مذابح أيلول" (سبتمبر 1970).

هذا السرد التاريخي الموضوعي والدقيق -على أهمِّيَّته- يكشف لنا -من جِهَة أخرى- عن أمر أكثر أهمية، أعني أنه يكشف لنا عن شخصيَّةٍ تاريخية لم تبحث أبدًا لها عن دَورٍ، ولم تُزاحِم -رغم أنها تستحقُّ- أحدًا على تَصدُّر المشهد الثقافي-السياسي في مصر.

هكذا أراد د. يسري هاشم -بعد أكثر من خمسة عقود طويلة من الزمن- أن يُودِعَ في خزائِن الثَّقافة والمَعرِفَة هذه السَّرديَّة التاريخية الهامَّة، كأنها وصيَّته الأخيرة؛ ليبقى بعدها حَيًّا فينا، ومع الأجيال التي تقرأ بعدنا هذا الكتاب، وتَستَرشِدُ به كنموذجٍ مِصريٍّ على المثقَّف العضوي الذي وصفه "جرامشي": "المثقف الذي له قَضيَّةٌ، والذي يخدم النَّاسَ بِعِلمِه، ويدافع عن حُرِّيَّتهم وقضاياهم بِوَعيِه".

ليس من مهام تقديم هذا الكتاب لا عَرضَه ولا تلخيصَه؛ لأن ذلك يُمثِّل -من وجهة نظري- اعتداءً سافِرًا على الكتاب، وعلى المؤلِّف، وعلى القارئ والمُتلقِّي؛ لهذا نقترح فتحَ نِقاشٍ حول أهم القضايا التي يُثيرها كتاب د. يسري، وتبقى المسألة الفلسطينية في مُقدِّمة وصَدارَة هذه القضايا؛ لأن الكتاب يُوثِّق -بموضوعيَّةٍ- وقائِعَ مذابح أيلول.

قد يبدو مُستَغرَبًا إثارَةُ المسألة الفلسطينية من جديدٍ بعد كلِّ ما أحدثه الزَّمن من تآكُلٍ وتَراجُعٍ في مكانَةِ هذه المسألة، اعتبره الكثيرون تراجُعًا فلسطينيًّا

ذاتيًا عن المُنطَلَقات الثَّوريَّة الأولى التي ألهَمَت الأجيالَ العربيَّة، وبَعَثَت فيها روحَ التَّحدِّي والمقاوَمَة.

ومن جهة أخرى، يُمكِن القَولُ إن الإخوان المسلمين -بواسطة فرعهم المعروف باسم "حماس"- كانوا قد لعبوا دورًا تَخريبيًّا خَطيرًا عبر الانقلاب الدَّمويِّ، واعتماد أساليب العنف المُنفَلِت -وليس الحوار- في حسم الخلافات الفلسطينية الداخلية؛ بما أدَّى -عَمليًّا- إلى شَقِّ وحدة الصَّفِّ الفلسطيني: جغرافيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، كما انشغل القِسْمُ الأكبرُ من الفلسطينيين بِسُلطَةٍ محدودة وحائرة ما بين المَهام الثقيلة للحكم الذاتي، وبين المهام الأكثر ثِقَلًا لاستكمال مرحلة التَّحرُّر الوَطنيِّ، وإقامة الدولة الفلسطينية المُستقِلَّة، وعاصِمَتها القُدس.

وكان من المنطقي أن يُؤدِّي ذلك كله -وغيره- إلى تَراجُعٍ حادٍّ في تأييد والاهتمام والمشاركة في القضية الفلسطينية.

هنا تكمن بالذَّات أهميَّةُ كتاب الدكتور يسري، الذي يُوثِّق مرحلةَ مذابح أيلول؛ ليكشف لنا -من موقع المشاركة وليس المشاهدة أو المُراقَبَة- عن حجم التَّآمُر على هذه القضية من الإخوة والجيران والمحيط العربي، وبما لا يُقلِّل أو يتجاهل أبدًا من خطورة الأخطاء والخطايا الداخلية للثورة الفلسطينية.

هذا الكتاب إذًا ليس مَرحلةً طُوِيَت وباتَت خَلفَنا؛ لأن عزل القضية الفلسطينية وخَلْعَها من مُحيطِها العربي ما يزال مُستمرًّا ومُتصاعِدًا، وكأنَّ مذابح أيلول ما تزال قائِمَةً ولم تنتهِ، وإنْ استُبدِلَت أدوات الذبح بمعاهدات واتِّفقات التطبيع العربية الإسرائيلية.

لم يلجأ الدكتور يسري في هذا الكتاب -كعادة كُتَّاب السِّيَر الذَّاتيَّة- إلى تَصدُّر المَشهد ولَعِب دور البطولة المُطلَقة وحده؛ ولكنَّه قَدَّم للقارئ كوكبةً أخرى من المصريين الذين أعطوا وضَحَّوا، وشاركوه عَمليًّا في هذه المَلحَمَة الوطنية والقومية، وكُلُّ واحدٍ من هؤلاء هو بذاته نَموذجٌ آخَرُ، وقُدوة أخرى، ينبغي الحفاظُ عليها حيَّةً في الذاكرة المصرية، في زَمَنٍ يَتَّسِمُ بتجريف النماذج وطَمْسِ القُدوَة، وتزوير التاريخ.

إن كُلّ المصريين الوطنيين الذين ذهبوا طواعيةً للمُشارَكة الفعلية لدعم الفلسطنيين مَعنويًا وسياسيًّا وإنسانيًا، وخاطروا بحياتهم وأرواحهم- هم بالفعل مَنارات شامِخَةٌ، ونَماذِج، وقُدوَة للأجيال القادمة من المصريين.

كتاب د. يسري من هذه الزاوية يصبح أحد المصادر الأساسية لمشروع كتابٍ هام جِدًا، عنوانه: "المصريُّون في الثورة الفلسطينية".

المِصريُون والثَّورَة الفلسطينيّة:

لم يَكُن الدكتور يسري أوَّلَ المصريين الذين انضمُّوا أو شاركوا مع الثورة الفلسطينية، لكنه كان -مع ذلك- من الرَّعيل الأوَّل. وثَمَّةَ مُلاحظاتٌ هامَّة يَجِبُ التَّنويه لها قبل أن نَصحَبَكم إلى جولة تاريخية مع حكاية المصريين والثورة الفلسطينية.

الملاحظة الأولى:

أن المصريين الذين التحقوا -أو شاركوا- بالثورة الفلسطينية والدفاع عن الشعب الفلسطيني، لم يذهبوا بحثًا عن الرِّزق أو جمع المال، وهو لا يعيب المصريين الذين سَعَوا إلى ذلك في بلادٍ ومَصادِر أخرى؛ لأنه لم يَتحصَّل أي مصريٍّ انضمَّ -أو شارَكَ- مع الفلسطينيين على أموالٍ، إلا ما يكفي بالكاد احتياجاتِه المباشرة، والأهم من ذلك أنه لا يُمكِن مُقارَنَة أيِّ عوائِدَ ماليَّةٍ بالمَخاطِر التي تُهدِّد حياة المصريين فعلًا من وراء هذا القرار؛ فهو إما شَهيدٌ، أو مُصاب في القتال والاشتبكات اليومية، أو مُطارَدٌ يَستَهدِفُه الموساد الإسرائيليُّ؛ مثل حالتي الشخصية.

الملاحظة الثانية:

هي أن القضية الفلسطينية كانت جامِعًا مُوحِّدًا للمصريين، على اختلاف وتَعدُّد وتَنوُّع مشاربهم السياسيَّة والفكرية، وانتماءاتهم الحزبيَّة أو العَقائِديَّة. ويسجِّل د. يسري في مَطلَعِ كتابه اسمَ الدُّكتور عبد الرحمن عودة، الذي استُشهِد

في مطلع السبعينيات، وهـو ينتمـي إلى جماعـة الإخـوان المسـلمين، وبالمُقابِـل يؤكـد د. يـسري عـلى المكانَـةِ الكـبرى للدكتـور محجـوب عمـر، الشـيوعيِّ المـصري، الـذي لعـب دورًا تاريخيًّـا في الثـورة الفلسـطينية، وكان مُلهِـمًا لأجيـال مـن الفلسـطينيين واللبنانيـين، وكان أوَّلَ مَـن حصـل عـلى وسـام نجمـة فلسـطين مـن غـير الفلسـطينيين.

ود. يـسري نفسـه كان ناصِريًّـا، وكان د. قـدري حفنـي -الأسـتاذ الجامعـي- حـاضِرًا بقـوَّةٍ، بميولـه اليسـارية، وأيضًـا بمسـاهمته الفكريـة البـارزة، كأوَّل مَـن أسـهم في عمليـة فَهـمِ وتَحليـل الشَّـخصيَّة اليهوديَّـة والصُّهيونيَّـة.

وثمَّـة قائمـة طويلـة مـن المواطنـين المصريـين الوطنيـين، بـدون انتـماءٍ حـزبيٍّ أو عقائِـديٍّ- مـن بـين هـؤلاء، ويَنبغـي لنـا أن نُسـجِّل ونحفـظ أسـماءَهم: الدكاتـرة: أحمـد شـوقي العقبـاوي، محمـد المشـد، نبيـل ريـاض، محفـوظ عكاشـة، عـلاء علـواني، محمـد توفيـق حمـزة، سـعد الديـن فـؤاد، عبـد الغفـار خـلاف.

الملاحظة الثالثة:

أنَّـه لم يُسـجِّل -تقريبًـا- انتـماء أيِّ مـصري (عـلى الأقـلِّ مـن الأسـماء المشـهورة) إلى الفصائـل الفلسـطينية اليسـارية البـارزة، ويُفـسِّر د. يـسري هـذا الأمـرَ في كتابـه عـلى أنـه نتيجـة اكتشـاف هـؤلاء لمـدى التناقُـض والانفصـال بـين الأفـكار والشِّـعارات التـي ترفعهـا هـذه الفصائـل، وبـين ممارسـتها في الواقـع.

الملاحظة الرابعة:

أنَّ البعـض مـن المصريـين -مثـل د. يـسري نفسـه، ود. حسـنين إبراهيـم، وآخريـن- كانـوا قـد التحقـوا بالثَّـورَة الفلسـطينيَّة في مهـام إلزاميـة وطِبِّيَّـة، في إطـار اتحـاد الأطبَّاء العـرب، أو بمُبـادَراتٍ شـخصيَّة، لكنَّهـم تطوَّعـوا لذلـك فيـما جَفَـل الآخـرون، وهـذا تَطـوُّعٌ -في حَـدِّ ذاتـه- كان يكشـف عـن المعـدن الأصيـل الوطنـيِّ الإنسـانيِّ لهـؤلاء المصريـين.

الملاحظة الخامسة:

ربَّمـا كانـت واحِـدَةً مـن أهـمِّ الملاحظـات التـي تحتـاج إلى التوسُّـع في البحـث والتوثيـق؛ نَظرًا لأهمِّيَّتها التاريخيَّـة؛ إذْ لم يَقتَـصِر دورُ المصريِّـين في الثـورة الفلسـطينية عـلى هـؤلاء الذيـن تطوَّعـوا لدوافـع إنسـانية، أو الذيـن التحقـوا تنظيميًّـا بالثـورة الفلسـطينية، وتَقلَّـدوا مواقِـعَ قياديَّـةً في غايـة الأهميـة والخطـورة- وإنَّمـا امتـدَّ هـذا الأمـرُ إلى مُسـاهَماتٍ رسـميَّةٍ للدَّولـة المصريـة عـبر رِجـالات أجهـزة المُخابـرات. ويذكـر د. يـسري في كتابـه هـذا أسـماء: نجيـب جويفـل (أبـو عاصـم)، واللـواء لاشـين مديـر المخبـارات الحربيـة، ومحمـد عبـد السـلام محجـوب.

وأَودُّ أن أضيـف هنـا أن نجيـب جويفـل (أبـو عاصـم) كان أوَّلَ مَـن سـاعد "أبـو عـمار" عـلى تكويـن وبنـاء جهـاز المخابـرات الفلسـطيني، الـذي عُـرِفَ أوَّلًا باسـم "وحـدة الرَّصـد"، وأنـه أثنـاء وجـوده عـلى رأس مكتـب المخابـرات المصريـة في الأردن لعـب أدوارًا كُـبرى في دفـن المعلومـات، وفي تدريـب الكـوادر وبنـاء الأجهـزة، وفي تمريـر الأسـلحة والذخائـر، وفـوق كل ذلـك: في حمايـة قيـادات الثـورة الفلسـطينية، ومـا كان للزعيـم "أبـو عـمَّار" أن يخـرج حيًّـا مـن مذابـح أيلـول في الأردن إلَّا بمبـادرة عبـد النـاصر، وبتنفيـذ ومعاوَنَـة المخابـرات المصريـة.

ومـن جهتـه كان اللـواء محمـد عبـد السـلام المحجـوب واحِـدًا مـن أكـثر الذيـن سـاعدوا العمـل الفـدائي عَمليًّا، وأذكـر أن الشـهيد "أبـو جهـاد" قـال لي إنَّـه كان يحمـل صواريـخ الكاتيوشـا عـلى كتفـه وينقلهـا إلى نهـر الأردن، وأنـه كان يسـاعد دوريَّـات الفدائيـين عـلى اجتيـاز نهـر الأردن والموانـع التـي نَصَبَتهـا إسرائيـل عـلى طـول الحـدود. عبـد السـلام "المحبـوب" هـو نفسـه الـذي اشـتهر لاحِقًـا -وهـو مُحافِـظٌ- للإسـكندرية باسـم عبـد السـلام المحجـوب.

الملاحظة السادسة:

وهـي تَخُـصُّ ثلاثـة مـن المصريـين حفـروا أسـماءهم عميقًـا في التاريـخ الفلسـطيني المعـاصر، بانضمامهـم إلى الثـورة الفلسـطينية تنظيميًّـا، وكانـت لهـم أدوار بالغـة الأهميَّـة والخطـورة في مسـارات هـذه الثـورة، ولفـترات طويلـة، أولُّ هـؤلاء الثلاثـة

هـو الدكتـور رؤوف نظمـي ميخائيـل عبـد الملـك، الـذي كان مَعروفًـا للجميـع باسـم "الدكتـور محجـوب عمـر"، ولُقِّـب بالحكيـم، ويذكـر الدكتـور يـسري في كتابـه العديـدَ مـن التفاصيـل الواقعيـة عـن مناقـب وصِفـات الدُّكتـور محجـوب، وقـد عايَشْـتُ محجـوب لاحقًـا في مرحلـة بـيروت وتونـس وغـزة والقاهـرة، وفي ظَنِّـي أنـه- كشـخصٍ، وسـيرة- يَسـتحقُّ أعـمالًا تسـجيليَّةً ودراميَّـة تُوثِّـقُ دَورَه وتحفظـه كنمـوذج إنسـانيٍّ فَـذٍّ، وقُـدوَةٍ تَتناقَلُهـا الأجيـال.

محجـوب عمـر هـو مـن القـادة القليلـين الذيـن لا ينفصـل عندهـم الفِكـرُ عـن السُّـلوك؛ هـو خـادِمٌ حقيقـيٌّ -دون أيِّ ادِّعـاءٍ أو ابتـذالٍ- للجميـع، وهـو مُـربٍّ وناقِـدٌ ومُنكِـرٌ لِذاتِـه، فـدائيٌّ، مُقاتِـلٌ، مُفكِّـر، مُتَرجِـمٌ ومُؤلِّـف... وهنـاك إحـدى الحلقـات التلفزيونيَّـة التـي تناولـت جوانـب مُهمَّـة مـن شـخصية الدكتـور محجـوب، يمكـن الوصـول لهـا عـبر الإنترنـت؛ مـن أجـل المزيـد عـن الرجـل.

الشَّـخصُ الثـاني هـو فـاروق القـاضي، الـذي عُـرِفَ باسـم "الأزهـري"، وهـو مُناضِـلٌ مـصريٌّ تَحـوَّل مـن كادر وفـديٍّ إلى الحركـة الشـيوعية، ثـم التحـق بالثـورة الفلسـطينية، وكان مُقرَّبًـا جـدًّا مـن الزعيـم "أبـو عـمَّار"، وأسـهم في ترقيـة العلاقـات الفلسـطينية مـع الـدُّوَل والأحـزاب الاشـتراكية، كـما أسـهم مـع الشـهيد "أبـو حسـن سـلامة" في تشـكيل قُـوَّة أمـن الرئاسـة، المعروفـة باسـم "قـوَّة الـ 17". ويبقـى فـاروق القـاضي (الأزهـري) أحـدَ الصَّناديـق السـحرية التـي تذخـر بكثـيرٍ مـن الأسرار التاريخيـة التـي لم يَبُـح بهـا بَعـدُ.

المـصري الثالـث هـو كاتـب هـذه الكلـمات، الـذي كان واحـدًا مـن أبنـاء الحركـة الطُّلَّابيَّـة في السـبعينيات، قبـل أن يُغـادِرَ إلى لبنـان ويلتحـق هنـاك بالثورة الفلسـطينية؛ وقـد بقـي لفـترة زمنيـة طويلـة يعمـل مـع المقاومـة الفلسـطينية، وقـد اضطلـع بعـدة مناصِـبَ ومَهـامَّ خاصَّـة؛ حيـث بـدأ مسـؤولًا عـن مكتـب حـركات التَّحـرُّر، الـذي كان مَركـزَ الاتِّصـال والتواصـل مـع أغلـب حـركات التحـرُّر في العـالم، ثـم تـولَّى مسـؤوليَّة إنشـاء ورئاسـة تحريـر المجلـة العسـكرية الاسـتراتيجة الفلسـطينية: "المعركـة"، ثـم تَفـرَّغ تمامًـا للعمـل في الجهـاز الـسِّرِّي الخـاص بـالأرض الفلسـطينية المُحتلَّـة، وفي سِجلِّه -كذلـك-: المسـؤولية عـن الأسرى الفلسـطينيين في المعتقـلات الإسرائيليـة، ثـم التخطيـط وقيـادة عـدة عمليـات فدائيـة، مثـل: الهجـوم عـلى وزارة الدفـاع الإسرائيليـة في "بيـت

يام" بتل أبيب، وأَسْر ثمانيَة جنودٍ إسرائليين، وعملية الهجوم على مُفاعِل ديمونة النووي.

***

بالنسبة لي كان كتاب د. يسري -الذي بين أيديكم- هو وثيقة تاريخية موضوعيَّة، وصادِقَة، عن واحدَةٍ من المفاصل الأكثر أهميَّةً، والأكثر دَمويَّة في التاريخ الفلسطيني، ويُخطئ كُلُّ مَن يعتقد أنَّ ما حصل في أيلول (سبتمبر) في الأردن كان شأنًا فلسطينيًا- أردنيًا فحسبُ.

الدكتور يسري يذهب في كتابه إلى القول بأن ما حدث مُمكِنٌ أن يكون أحدَ أسباب وفاة عبد الناصر؛ تَوتُّرًا، وانشغالًا، وضَغطًا عَصبيًّا، وغيره... وأنا أعتقد أن الأمر يتجاوز هذه "الإيمانية العاطفيَّة"؛ لأن نتيجةَ هذا الحدث الدموي في أيلول (سبتمبر) 1970 في الأردن كانت خسارةَ أطوَلِ حدودٍ مُشتَرَكةٍ مع الاحتلال الإسرائيلي، كما أدى إلى خسارة الحاضِنَة الشَّعبيَّة العربيَّة في الأردن، وكان -كذلك- درسًا لم يَتِمَّ استخلاص عِبَرِه ومعانيه؛ حتى لا يُعادَ تكرارُه أو إنتاجه على نحوٍ أو آخر.

يبقى كتاب الدكتور يسري هذا شهادةً تاريخيَّةً للباحثين عن الحقيقة، وللمؤرِّخ الموضوعي المُنصِف، ثم ما يَجِبُ قوله أخيرًا عن علاقتي الخاصَّة بهذا الكتاب، الذي تعرَّفتُ فيه -ومن خلاله- على الدَّور الوطني والإنساني لكتيبةٍ من المصريين الشرفاء، الذين أشرفُ بالانتِماءِ إليهم: كَمَن حَمل الراية منهم، وكمن أكمَلَ دورهم ورسالتهم في أدوار مختلفة، وفي زمان مختلف، وفي تجارب أخرى ومختلفة، لكنَّ أصلها واحِدٌ، وجِذرَها واحِد: الدَّورُ المصريُّ الوطنيُّ القَوميُّ الإنساني، الذي ينحاز إلى الحَقِّ والعدالة، ويناضل من أجل الحُرِّيَّة أينما كانت في ساحات نِضالِه؛ داخل مصر وفي فلسطين، ثمَّة قضيَّة واحدة مشتركة- وفي كلمات قليلة موجزة: أنا شخصيًا وَجدتُ في د. يسري أحد روافد جذوري وجيناتي المصرية الأصيلة.

وأشرف أن أكون -والآخرون من المناضلين المصريين- امتدادًا للدَّور الكبير الذي لعبه هو وكتيبة الأَطِبَّاء المصريين الشُّرفاء...

د. سمير غَطَّاس

2020-08-30

مُقدِّمة المؤلِّف

هـذا الكتـاب ليـس كتابًـا أدبيًّـا، ولا روايـة، والكاتـب ليـس أديبًـا ولا كاتِبًـا مُحتَرِفًـا، ولكنــه عــاصر أحداثًــا كثـيرة في بلــده الــذي يُحبُّــه: مــصر، خاصَّــةً في الخمســينات والسـتينات والسـبعينات. وقـد عـاش في شـبابه حُكـمَ عبـد النـاصر، ومثـل كثـير مـن الشـباب المـصري؛ أحَـبَّ عبـد النـاصر وقتَهـا، واعتبره المَثَـلَ الأعـلى، وكان يؤمـن بالوحدة العربيـة والتحـرُّر الوطنـي، وقـد انخـرط في العمـل السـياسيّ مُبكِّرًا في سـن الــ 17 في أول سـنوات دراسـته في كليـة الطـب عندمـا تـمَّ تجنيـدُه مـن بعـض الشـباب العـربي، زمـلاء الدراسـة، فأصبـح عضـوًا في تنظيـم القوميـين العـرب الـذي كان تنظيـمًا سِرِّيًّـا يعمـل في معظـم دول المـشرق العـربي، وبرغـم أن أهـداف وشـعارات التَّنظيـم لا تختلـف كثـيراً عـمَّا يتبنَّـاه عبـد النـاصر، إلَّا أنَّـه حافـظ عـلى سِرِّيَّتِـه في مـصر، كباقـي الـدول العربيـة.

وكانــت قيــادات التنظيــم مَعروفَــةً، مثــل: هــاني الهنــدي (الســوري الجنســية)، وچورچ حبـش (الفلسـطيني الجنسـية)، وكان چورچ يقـضي فـترات طويلـةً في القاهـرة عندمـا تَـمَّ تجنيـدي، ولم يَكُـن أفـرادُ قاعـدة التَّنظيـم معروفـين لـدى أجهـزة الأمـن المصريـة، كـما أقـرَّ بذلـك عبـد النـاصر بنفسـه في لقـاء مـع هـاني الهنـدي، بعـد الوحـدة مـع سـوريا، عندمـا قـال لـه: "مـش معقـول تثقـون في أن تسـلِّموني بلـدًا مثل سـوريا ولا

تثقون في تسليمي تنظيم يعمل في مصر ولا تعرفهم أجهزة الأمن المصرية؛ ولذلك أنا معجب بهؤلاء الشَّباب، وأريد ضَمَّهم إلى الاتحاد الاشتراكي!"، فدُهِش هاني الهندي وقال: "إنتَ يا رَيِّس تعرف إن الاتحاد الاشتراكي تنظيم مُهَلهَل..."، فوافَقَ عبد الناصر، وقال إنه ينوي إنشاء جهاز سياسيٍّ داخل الاتحاد الاشتراكي تحت مُسمَّى التنظيم الطَّليعي، وأن يكون هذا التنظيم بمثابَةِ العَمودِ الفقري للاتحاد الاشتراكي، وتكون من أهمِّ مَهامِّه -بعد أن يَقِفَ على قَدَميْه- مُناقشة قضيَّة التنظيم السياسي في مصر، وأنه سوف يبدأ هذا التنظيم بمجموعة من شباب القوميِّين العرب، ولِضمان نجاح هذا التنظيم فإنَّه سوف يقود العَملَ فيه بنفسه؛ لإيمانه بأن العمل السياسيَّ السليم سوف يُحدِّد مستقبل البلد والمنطقة العربية بأكملها، ومستقبله هو نفسه. ولم يكن أمام هاني الهندي إلَّا القبول، وعَرَضَ الأمرَ على القواعد والخلايا، وبعد بعض الاعتراضات تمَّت الموافقة... وكما هو مَتوَقَّع، لم يجد عبد الناصر الوقتَ الكافي لقيادة مجموعتنا؛ فأوْكَلَ العَملَ لمدير مكتبه الشَّخصيِّ، الذي يَثِقُ فيه: سامي شرف؛ لقيادة هذه المجموعة! وعندما عَلِمَ علي صبري (أمين عام الاتحاد الاشتراكي) بهذا الأمر غَضِبَ؛ فأوكل إليه عبد الناصر مَهمَّة تكوين مجموعة أخرى من العناصر المُخلِصَة الواعية! ولكن ما زاد الطين بلَّة أن شعراوي جمعة (وزير الداخلية في ذلك الوقت) طلب المساواةَ بسامي شرف وعلي صبري، وكان له ما أراد، بتكوين مجموعَةٍ تَتبَعُه شخصيًّا!

ولم تكن هناك مشكلة في إيجاد عناصر جيِّدة؛ فهي كثيرة، ولكن المشكلة كانت في الصراعات بين القيادات، ومحاولة كُلٍّ منهم تحطيمَ الآخر، باستخدام عناصر مشبوهَةٍ، خاصَّةً من وزارة الداخلية، وكانت النتيجةُ القَبضَ على معظم أفراد مجموعتنا (مجموعة سامي شرف) بتهمةٍ مُلفَّقَة: قَلْبِ نظام الحُكم، وأودِعوا سجنَ القلعة لمدَّة حوالي ثمانية أشهر، منذ نهاية عام 66 إلى منتصف مايو 67، وكانت بداية فترة الاعتقال مُرتَبِطَةً بالضرب والتعذيب، حتى اعترف -تحت الضرب- سمير حمزة (الرجل الأول في تنظيم القوميِّين العرب في مصر، والثاني بعد سامي شرف) بما أُملِيَ عليه؛ تَخلُّصًا من الضرب والإهانات التي لم يَتحمَّلها، وكذلك فعل آخرون، وعندما جاء الدور على منير إسكندر -وكان مُحاميًا مُفوَّهًا- استنكر الضَّرب والإهانات، ولكنَّه استنكر أكثرَ أن يُتَّهَمَ بالخيانة ضدَّ عبد الناصر، وأصرَّ على عدم الكلام إلا في وجود سامي شرف؛ وكان له ما أراد، وكانت هذه

نهايـة الاتهامـات، ولكـن أودِعـوا بـدون تحقيقـاتٍ أو تعذيـبٍ لمـدة بضعـة شـهور؛ حتـى ينـسى أعضـاء الاتحـاد الاشـتراكي البيانـاتِ شـديدةَ اللَّهجَـة التـي وُجِّهَـت مـن قيـادة التنظيـم عـن المؤامـرة المزعومـة... وأظـنُّ أن هـذا الموضوع كان السـببَ الأسـاسيَّ في فشـل التنظيـم الطليعـي، الـذي كان عبـد النـاصر يقـول إنـه العمـود الفقـري للاتحاد الاشـتراكي، وأنـه سـوف يتفـرَّغ للعمـل السياسي لأنـه يَضيـقُ ذَرعًـا بالعمـل الإداريِّ الذي يُحتِّمُـه عليـه عَمَلُـه كرئيـس للجمهوريـة، وأظـنُّ أنـه كان مُتأثِّـرًا بالتجربـة السـوفييتية، التـي كانـت تعطـي لرئيـس التَّنظيـم السـياسي أعـلى صلاحيـاتٍ في الدولـة.

حـدث ذلـك في الفـترة مـن أواخـر 66 حتـى مايـو 67، وكُنَّـا قـد تَخرَّجنـا مـن كليـة الطـب، وقـد طُلِـبَ مِنَّـا التَّفـرُّغ للتنظيـم، ودَعـم منظَّمـة الشـباب، وليـدة التنظيـم الطليعـي، وكانـت تُبـشِّرُ بمسـتقبلٍ باهِـرٍ لشـبابها؛ وقـد تَفرَّغـتُ للعمـل السـياسي بالفعـل قبـل حادثـة القَبـضِ عـلى زُملائِنـا، ولم أكـن ضمـنَ المقبـوض عليهـــــــم! وقـد ذكـر لي سـمير حمـزة بعـد خروجـه أنـه كان يُعطيهـم أيَّـة أسـماء تَخطُـر عـلى بالـه بسـبب الضغـوط التـي مُورِسَـت عليـه، والإهانـة والـضَّرب حتـى يُـدلي بأسـماء التنظيـم المزعـوم... حتـى أسـماء الخَـدَمِ والبَوَّابـين، وبائـع اللـبن؛ ونَـسيَ اسـمي، أنـا وعبـد الله السَّـيِّد، ولا يعـرف كيـف! كان كُلُّ مـن ذُكِـرَ اسـمُه، أو كُتِـبَ في الاعترافـات المزعومـة قـد تَـمَّ القَبـضُ عليـه. وأتذكَّـر أننـا (أنـا وعبـد الله السـيد، وكان مثـلي مُسـتَغرِبًا المَوقِـفَ كَكُلٍّ) ذهبنـا سـويًّا لمقابلـة سـامي شرف، الـذي أرسـل لنـا سـكرتيره -وهـو رَجُـلٌ قَصـيرُ القامَـةِ، وبـارِزُ العَينَـيْن، واسـمه "أبـو العينـين"- واسـتمع إلينـا جيِّـدًا، وأظـنُّ أن سـامي شرف كان قـد اقتنـع بِهَزْلِيَّـةِ الاتهـام، وسـألَنا الرَّجُـلُ: "مـاذا تريـدون... هـل تريـدون اللَّحـاقَ بِزُملائِكُـم في المعتقـل؟"، وكان رَدُّنـا أنـه: إمَّـا أنهـم أبريـاء؛ فيجـب الإفـراج عنهـم، أو مُدانـون؛ وفي هـذه الحالـة نحـن جميعًـا مُشـتركون؛ فلـماذا لا نشـاركهم مصيرهـم أيضًـا! فاسـتغرب الرَّجُـلُ، وطَلَـب مِنَّـا تَـركَ كلِّ بياناتنـا، وأخبرنـا أنـه سـوف يَتَّصِـلُ بنـا بعـد مُراجَعـة السـيد سـامي شرف. ولم يَتَّصِـل بنـا أحـدٌ، وتَـمَّ الإفـراج عـن زملائنـا جميعًـا -بـدون أيَّـة إجـراءات- يـوم 15 مايـو، سـنة 67، أي يـوم إعـلان الطـوارئ اسـتعدادًا لحـرب مـا سُـمِّي بحـرب تحريـر فلسـطين! والغريـب أن معظـم هـؤلاء الشـباب قـد تقدَّمـوا بطلبـاتِ تَطـوُّعٍ لمُسـانَدَة القـوات المسـلحة، وأنـا منهـم، وقـد كُلِّفـتُ بالعمـل بالقـوَّات البَحريَّـة، ولم يُفـرَج عنِّـي إلَّا بعـد سـبعة شـهور بعـد الهزيمـة... وبالطبـع فـإن تجربـة التنظيـم الطليعـي قـد انهـارت، خاصَّـةً

بعـد الهزيمـة (سُـمِّيَت بالنكسـة)، وحتـى تجربـة التنظيـم الشـبابي كانـت في طريقهـا للانهيـار. وأَسِـفتُ لذلـك؛ فقـد كان يَغلُـبُ عـلى التنظيمَـيْن عنـاصِرُ واعِيَـةٌ، اسـتمرَّت في العمـل السـياسي حتـى وقـت قريـب.

وكان مـا حـدث في هـذه المرحلـة كفيـلًا بِنَسـفِ فكـرة التَّفـرُّغ السـياسي مـن حيـاتي، بـل والعمـل السـياسي في مـصر؛ فَعَملـتُ كطبيـبٍ بمستشـفى المَـبرَّة، تحـت قيـادة د. خـلَّاف (مديـر المستشـفى)، الـذي كان عُضـوًا في التنظيـم الطليعـي (لم نكـن نعـرف بعضنـا البعـض أثنـاء العمـل السـياسي في التنظيـم الطليعـي)، ومـن قَبـلُ كان أحـدَ كـوادِرِ الحـزبِ الشُّـيوعيِّ، وكان تَقدُّميًّـا، ويَشـغَلُ منصِـبَ سـكرتير نقابـة الأطبـاء في مـصر، ومُمثِّـلِ مـصر في اتحـاد الأطبَّـاء العـرب، واسـتطاع الرَّجُـلُ إقناعَنـا بعـدم الهجـرة كـما كُنَّـا ننتـوي، بـل دفـع اتِّحـادَ الأطبَّـاء العـرب لاتِّخـاذ قـرارٍ بمسـاندة العمـل الفـدائي طِبِّيًّـا، بعـد أن أعلـن عبـد النـاصر أن المقاومـة الفلسـطينيَّة تُمثِّـل "الأمـل" في معركـة التحريـر وكانـت مِـصرُ هـي المُمـوِّل الرئيـسيَّ بالأطبَّـاء، والـدول العربيـة الأخـرى تَولَّـت التَّمويـلَ المـاديَّ والإداريَّ؛ مثـل شراء المُسـتَلزَمات الطِّبيَّـة، وخلافـه، وكنـت أنـا -بالطَّبـع- مـن أوائـل المُتطوِّعـين، وكانـت بدايـة العمـل مـع الفدائيـين، وهـي موضـوع هـذا الكتـاب...

أمَّـا: لمـاذا تأخَّـر تدويـن هـذا الكتـاب؟ أوَّلًا: لم تكـن هنـاك نيـة لكتابتـه من الأسـاس؛ بنـاء عـلى اقتناعنـا بتوجُّهـات محجـوب بـأن المناضـل الصـادق يجـب عليـه أن يبتعـد عـن الإعـلام؛ بسـبب عـدم مصداقيَّتـه، ومَيلِـه إلى التهويـل؛ لِلَفْـتِ الأنظـار، ولم نقبـل حتـى بتصويرنـا بعـد معركـة الأشرفيـة في أيلـول... وبعـد انضمامـي لمجموعـة حرافيـش نجيـب محفـوظ الأصغـر سِـنًّا في هـذه الفـترة (مقارنـة بالحرافيـش الأوائـل)، وقـد تَصـادَفَ أن حدَثَـت بعـض المناقشـات حـول القضيـة الفلسـطينية، وتَطـرَّق الحديـث إلى الأحـداث التـي شـاركنا فيهـا، وكان رأي بعـض الأصدقـاء (وبعضهـم مـن أسـاتذة الجامعـة) أن أسـجِّلَ هـذه الأحـداث بأمانـة، وأن أسـعى لتدويـن شـهادات مـن بقـي عـلى قيـد الحيـاة ممَّـن شـاركوا في صناعتهـا، دون هـدف إعلامـي أو تجـاري. وقـد أصيـب محجـوب بجلطـة في الدمـاغ أدَّت إلى شَـلَلٍ نصفـيٍّ، كـما أثَّـرت في قدرتـه عـلى الـكلام، وتركـت أثرهـا كذلـك عـلى ذاكرتـه، فكانَـت "منـى" زوجتـه المُخلِصَـة تلجـأ إليَّ في أوقـات كثـيرة للسـؤال عـن بعـض تفاصيـل الأحـداث، وأرسَـلَت إليَّ مجموعـاتٍ مـن جامعـة أوكسـفورد في انجلـترا، أتـوا لتسـجيل الأحـداث مـن أشـخاص عاشـوا التجربـة،

ثـم جـاءت مجموعـة أخـرى مـن فرنسـا للتسـجيل، وقـد طلَبَـت "مُنـى" تسـجيلَ مـا عِشـتُه مـن أحـداث مـع "الحكيـم"؛ تخليـدًا لبعـضٍ مـن تاريخـه النضـالي الكبـير، وقـد وافَـقَ "الحَكيـمُ" أيضًـا، واتَّفقـت أنـا و"منـى" عـلى تكليـف بعـض المُحرِّريـن بصياغـة الكتـاب، بعـد أن سَـجَّلتُ أنـا الأحـداثَ عـلى شرائـط كاسـيت، ولكـن النتيجـة لم تَلـقَ رضـاي أنـا ولا "منـى"، وانتهينـا إلى أن الحـل الوحيـد هـو أن أحـاول أنـا صياغـة الكتـاب بنفـسي؛ لأنهـا سـوف تُعـبِّر أكـثرَ عـن الوقائـع...

وقـد تُـوفِّي "الحكيـم"، وتَبِعَتـه "مُنـى"، ولم أكـن قـد انتهيـت مـن الكتابـة... وأرجـو أن أكـون قـد وُفِّقـتُ -أخـيراً- في نقـل صـورة أقـربَ إلى الحقيقـة.

الفصل الأوّل

عمّان

وَصَلَت الآن طائـرة الخطـوط العربيـة المتحـدة إلى مطـار عـمان الـدولي... كانـت تلـك هـي المـرة الأولى التـي أسـافر فيهـا إلى الأردن، رغـم وجـود أختـي الكـبرى (غـير شـقيقة) في الأردن؛ حيـث إنهـا مُتزوِّجـة مـن أردنيٍّ، وتحمـل الجنسـية الأردنيـة، ولكنـي حرصـت طـوال وجـودي في الأردن عـلى تَجنُّـب الاتصـالات الكثـيرة؛ حتـى لا أورِّطَ الأسرةَ في مواقـف سياسـية قـد لا يُرحِّبـون بهـا، خاصَّـةً في هـذه المرحلـة التـي يسـود فيهـا التوتُّـر بشـكلٍ عـامٍّ في الأردن، وأكـثر منـه بشـكل خـاص لأسرة زوج أختـي زهـير حمـزة، وكان تَقدُّمـيَّ الفِكـر، غـير أنـه -وعائلتـه- كان موقفهـم في غايـة الحساسـية؛ بعـد أن اتُّهِـمَ بالمشـاركة في عَمَـلٍ عـدائيٍّ ضِـدَّ الدولـة الأردنيـة، عندمـا هـرب أخـوه الأصغـر "سـهل حمـزة" بطائرتـه مـع بعـض الطَّيَّاريـن الأردنيـين، وكان "سـهل" قائِـدَ سـلاح الطـيران في الجيـش الأردني، وقـد هـرب إلى القاهـرة؛ رفضًـا لأوامـر قصـف الجيـش المـصري باليمـن، وقـد تَعرَّضَـت كُلُّ العائلـة لأيَّـامٍ عصيبـةٍ، وانتقلـوا إلى القاهـرة لاجئـين سياسـيين، ومنهـم أختـي، رغـم أنهـا لم يكـن لهـا علاقـة بالسياسـة، ولكـن البعـض فسَّر قيـام سـهل حمـزة بهـذا العمـل -آنـذاك- بأنـه كان هنـاك اتصـالات مُسـبَقة مـع القيـادة

المصريـة، وأن أختـي كان لهـا دورٌ في هـذه العمليـة، لكـن تأكَّـد خَطـأ هـذه الشـكوك فيـما بعـد، وانتهـت هـذه المواقِـفُ عندمـا شـارك المَلِـك حسـين في الحـرب إلى جانـب مـصر في 1967، وقـام بالعفـو عـن جميـع أفـراد العائلـة وعـلى رأسـهم "سـهل" نفسـه.

عبد الرحمن عودة زَميلًا

وبينـما يتزاحـم الـرُّكَّاب مُتجاهِلـين تعليـمات قائـد الطائـرة، الـذي أعلـن لتـوِّه عـن الاسـتعداد للهبـوط؛ مُناشـدًا الجميـعَ ربـطَ الأحزمـة والبقـاء في أماكنهـم؛ حتـى تسـتقرَّ الطائـرة عـلى الأرض وتفتـح الأبـواب- مـال رفيقـي الجالـس إلى جـواري هامِسًـا في أذني: "تسـمح لي يـا دكتـور يـسري بالخـروج قبلـك؟"، قلـت لـه وصـوتي لا يخلـو مـن دهشـة: "تفَضَّـل، لكـن..."، ولم أكمـل؛ إذ اسـتطرد قائِـلًا: "لأني أريـد أن أعـود قبلـك"!

اندَهَشـتُ لِطَلَبِـه، وضحكـت؛ فقـد تَذكَّـرتُ أنَّ القاعـدة التـي وضعهـا اتِّحـاد الأطبَّـاء بـأن ينـزل طبيـبٌ واحِـدٌ إجـازة لِمُـدَّة أسـبوعين كُلَّ ثلاثـة أشـهر، حسـب أسـبقيَّة الوصـول.

وأمـام ضابـط الجـوازات كان يَتقدَّمنـي؛ فختَـم جـواز سـفره، ثـم تَبِعتُـه، وطبـع الضَّابِـطُ عـلى إحـدى صفحـات جـواز سـفري: "المملكـة الأردنيـة الهاشـمية- عـمان- دخـول- 1969/8/13"، وقـد لفـت نظـري صِغَـرُ حجـم مطـار عـمَّان، وتواضُـع إمكانياتـه ومنشـآته بمقارنتـه بمطـار القاهـره (تغـيَّرَت صـورة المطـار مـن حيـث المسـاحة والإمكانيـات والفخامـة، في زيـارة خاصَّـةٍ لي، عـشرة أعـوام بعـد ذلـك)، وتحرَّكنـا دافعـين أمامنـا عربتـي حمـل الحقائـب؛ مُتَّجِهَـيْن إلى صالـة الاسـتقبال، وكان د.عـودة حريصًـا طـوال الوقـت أن يكـون في المُقدِّمـة، مُذكِّـرًا إيَّـاي -ضاحِـكًا- أنـه سـوف يعـود قبـلي.

عبد الرحمن عودة شهيدًا

بعد أقل من شهر تذكَّرتُ هذه التفاصيل عندما حضرت للمطار للمرة الثانية...

تُرى، هل كانت نبوءةً ظلَّت حبيسةَ قلبه حتى أطلقها القَدَرُ بعد أقلِّ من ثلاثة أشـهر فقط من مجيئنا معًا؟ هل كانت نبوءة، عندما قال لي: أريد أن أعود قبلك؟

هـا هـو الغـروب الكئيـب يَجثُـم عـلى مطـار عـمَّان مثـل رخٍّ يبسـط جناحَيْـه عـن آخرهـما، وبطـل المشـهد هـو العائـد إلى القاهـرة، ليـس في إجـازة؛ بـل هـي عـودة أبديـة.

هـا هـو عبـد الرحمـن عـودة مُسـجًّى داخـل صنـدوق خشـبي، يحملـه أربعـةٌ مـن الشـباب الفدائيـين؛ ليضعـوه داخـل الطائـرة نفسـها التـي حملتنـا معًـا إلى هنـا. ومجموعـة أخـرى تتحلَّـق حولهـم، تُطلِـقُ أعـيرةً ناريـة مـن الرشاشـات والكلاشـنكوف؛ تحيَّـةً إلى الثـاوي في الصنـدوق... كنـت أقـف عـلى مـدرج الطائـرة إلى جـوار مسـؤول البعثـة، وعـدد مـن الزمـلاء، وبعـض قيـادات المقاومـة؛ لنـودِّع جثـمان الزميـل؛ يغمرنـا الحـزن العميـق... وتنهمـر دمـوع الغـروب عـلى إكليـل الزهـور الـذي تتوسَّـطه لافِتَـةٌ مكتـوبٌ عليهـا "عبـد الرحمـن عـودة- اتحـاد الأطبـاء العـرب- مـصر". كـما انهمـرت دموعـي بشـدَّة لحظـةَ دخـول النعـش مُؤخِّـرَةَ الطائـرة، ووجـدت نفـسي أُردِّد لنفـسي بصـوتٍ خفيـض: "وداعًـا يـا عبـد الرحمـن حاترجـع مـصر قبـلي زي مـا كنـت عايـز...". كنـت أشـعر بحِـزن عميـق.

بدايَةُ التَّعارُف مع "عودة"

بـدأت علاقَتُنـا في الطائـري عنـد حضورنـا لعـمان، كُنَّـا نلتقـي للمـرَّة الأولى، وقـد عرفـت مـن مسـؤولي الاتحـاد في القاهـرة أنـه سـوف يكـون معـي في الرحلـة زميـلٌ آخـر لا أعرفـه، وقـد حُجِـزَ لنـا في مقعدَيْـن مُتجاوِرَيْـن في الطائـرة. سـألتُه عَمَّـن رَشَّـحه للعمـل في البعثـة، وعـن أسـباب تطوُّعِـه؟ ولمَّـا ذَكَـرَ لي أنَّـه تطـوَّع للعمـل لاقتناعـه بأنــه جهـادٌ في سـبيل الله عرفـت أنـه مــن المجموعــة المتواجـدة في "إربـد"، يُطلِـقُ عليهـم زُملاؤنـا: "مجموعـة اليمينيـين" أو "الإخـوان المسـلمين"، وعندمـا سـألني نفـسَ السُّـؤال أجَبتُـه بأننـي أعـرف معظـم المتطوِّعـين؛ فقـد تَزامَلنـا مـن قَبـلُ في العمـل والمجهـود الحـربي السـياسي، وأننـي تطوَّعــتُ في القـوات المسـلحة أثنـاء حـرب 67، وكان مـن المفـترض أن أحـضر مـع المجموعـة الأولى، ولكـن د. خـلَّاف كان مديـري في مستشـفى المبرَّة ومسـؤولَ لجنـة دعـم العمـل الفـدائي باتِّحـاد الأطبَّـاء العـرب في نفـس الوقـت)وهـو أقـرب المسـؤولين لي، ولـكُلِّ مَـن تعامَـل معـه، وقـد أصبـح وكيـلَ وزارة الصِّحَـة بعـد ذلـك) طلـب منـي البقـاء في المستشـفى لحاجَتِـه إليَّ، وأن يذهـب زميـلي

د. المشد في المجموعة الأولى، وبعد انتهائنا من إجراءات ختم الجوازات خرجنا من المطار لِنَجِدَ في انتظارنا ثلاثةَ أشخاصٍ، وكان أهمُّهم لي د. أحمد شوقي العقباوي؛ صديقي الحميم. لاقونا بترحابٍ شديد! واتَّجهنا جميعًا إلى خارج المطار، حيث كانت في انتظارنا سيَّارَةُ الاتحاد. كنتُ أشعر بفضول كبير لمعرفة عمَّان، المدينة التي سنقيم فيها، وكنت أحاول أن أعرف عنها المزيد منذ أعلن قائِدُ الطائرة وصولَنا إليها.

مدينة عمّان

سُحُبٌ كثيفة مُمتدَّة ومُتراكِمَة؛ أَشْبَهُ بِكُتَل دُخانِيَّةٍ قاتمة؛ تبدو كمظلَّة أو سقف لدائرة من الأرض التي تحيط بها تلالٌ وجبالٌ من كُلِّ جانب. أشجارٌ تتناثر هنا وهناك. مبانٍ واطئة تنزرع مُبَعثَرَةً أو مُتجمِّعَة في مستوياتٍ تعلو حينًا، وتهبط حينًا آخر؛ هكذا بَدَت عمَّان لي ونحن في الطائرة، وكنت أجلس بجوار المَمرِّ، ويجلس بجوار النافذة زميلي د. عبد الرحمن عودة. وكما عَرفتُ عنها بعد ذلك، فعمَّان مدينةٌ صغيرةٌ، مُقامةٌ وسط ثلاثة جبال كبيرة، هي: جبل عمَّان (أكثرها تميُّزًا، من حيث ثراء وتَقدُّم سكانه)، وجبل اللويبدَة، وجبل الحسين. يتوسَّطَها سَهلٌ كما السُّرَّة بين الجبال الثَّلاثة، وتتناثَرُ حولَها مجموعةٌ من الجبال، صغيرة ومتعدِّدة، مثل: جبل الأشرفيَّة، والجبل الأخضر، وجبل التاج، وجبل النظيف، وجبل الوحدات... وغيرها، ويَقطُنُ في هذه المناطق الطَّبقاتُ الفقيرةُ من الأردنيين، والكثير من الفلسطينين...

أمَّا الطبقات المتوسِّطَة والغَنيَّة فهي تعيش في الوسط؛ في الجبال الثلاثة، وتتوزَّع العائلات في الجبل الواحد حسب الوضع المادي والاجتماعي لكلٍّ منها، حيث تنقسم تلك الجبال إلى مجموعة من الدواوير: الدَّوَّار الأول (وهو المنطقة الأقل ارتفاعًا) تقطنه الطَّبقَة المتوسِّطة والفقيرة نسبيًّا، والثاني للعائلات المتوسِّطة، وبعض العائلات الغنية، والثالث للغنية، وفي هذا الدَّوَّار كان مبنى اتحاد الأطبَّاء العَرَب مُلاصِقًا لمبنى للسفارة المصرية تشغله المخابرات المصرية، والمبنيان مُتشابهان، ويختلفان في حجم الحراسة حولهما. أمَّا الدَّوَّار الأخير فهو للعائلة المالكة والأمراء -كما قيل لي-، وكل المباني في تلك الفترة كانت مُكوَّنَةً من دَورٍ واحد، أو دَورَيْن،

خاصَّـةً في الـدَّوَّار الثالـث، وكانـت المبـاني الأكـثر ارتفاعًـا تقـع في الـدَّوَّار الأول أو الثـاني، وكُلُّ المَنـازِلِ مَبنيَّـةٌ بالحجـر الأبيـض، وبِنَمَـطٍ واحـد، مثـل شـوارع لنـدن، مـع قِلَّـة عَـدَدِ مَـن يقطنـون العاصِمـةَ في ذلـك الوقـت.

مَقرُّ الاتحاد والمُخابَرات:

وانطلقت بنا السَّيَّارةُ التي كان سائقها الأردني يُجيد اجتياز الطُّرُقَ الملتوية.

قطعـت السـيارةُ هـذه الطُّـرقَ صعـودًا ودورانًـا؛ إلى أن توقَّفَـت أمـام مبنَيَـيْن مُتجاوِرَيْـن، كلاهـما يُشـبِه الآخـر تمامًـا؛ يتكـوَّن مـن طبقـة واحـدة، مثـل معظـم مبـاني المدينـة. كان أَحدُهـما مُحاطًـا بالحـرس: بعضهـم في زيٍّ رسـمي، والبعـض الآخـر في زيٍّ مَـدنيٍّ، وكان بعضهـم مِصريـين. توقفـت السـيارة بمحـاذاة المبنيَـيْن، في موضـعٍ بـين بابَـيْن مُتشـابِهَيْن.

قال أنور البلبيسي بِلهَجَةٍ مصريَّةٍ مَشوبَةٍ بِلكنةٍ شاميَّة:

- تدخلوا من أي باب يا دكاترة؟
- أي باب يا سيدي... المهم ندخل!
- الاتِّحاد الأوَّل واللَّا المُخابرات؟!
- المخابرات؟!

(اتخـذت بعثـة اتحـاد الأطبـاء العـرب مقـرًّا لهـا في جبـل عـمَّان؛ في الـدوَّار الثالـث، بالقـرب مـن مبنـى السـفارة، الـذي تشـغله المخابـرات، وكان المقـرُّ بيتًـا مـن طبقـة واحـدة، ملاصقًـا للبيـت الآخـر: المخابـرات!)

عرفـت أنـا وعبـد الرحمـن مغـزى السـؤال الـذي يحـاول أنـور البلبيـسي -مداعبًـا- أن يفزعنـا بـه. شرح د. شـوقي العقبـاوي أن كل مـن يـأتي لينضـم إلى البعثـة لا بُـدَّ أن يـزور مكتـب المخابـرات المصريـة المجـاور، الـذي يُمثِّـل السـفارة المصريـة، لكـن الأمـر ليـس بهـذه العجلـة؛ فيمكـن تأجيلـه إلى الغـد أو بعـد الغـد، واسـتقرَّ رأيـي أنـا وعبـد الرحمـن عـلى أن نقـوم بهـذه الزيـارة شـبه الرسـمية في صبـاح اليـوم التـالي، وكانـت الجلسـة الأولى لنـا في مقـر البعثـة للتعـارُف الـذي لم يكـن بالقـدر الـكافي في السـيارة.

العاملون في مقرّ الاتحاد

كان أنـور البلبيـسي هـو رئيـس البعثـة؛ أسـمرَ اللّـون، رشـيق القـوام، يبلـغ مـن العمـر حـوالي الأربعـين، أو تخطّاهـا بقليـل، قريبًـا إلى الوسـامة، ويبـدو شـابًّا قويًّـا قـادرًا، وكان عملـه يتلخـص في الإشراف عـلى تسـهيل العمـل، وإدارة شـؤون وأمـور البعثـة.

بَـدَا أنـور البلبيـسي محافظًـا عـلى اللّكنَـة والطِّبـاع البدويـة، بالرغـم مـن أنـه تـربّى في الخـارج، واتّضـح مـن خـلال المناقشـات أنـه ليـبراليٌّ، أَقـربُ إلى الفكـر اليسـاري، وهـو مـن مُعـارضي الحكومـة الأردنيـة. وخـلال الجلسـة مـال عـليَّ أحـد الزمـلاء وهمـس في أذني بأنـه كان مـن كـوادر الحـزب الشـيوعي الأردني.

كان البلبيـسي اختصاصيَّ المسـالك البوليـة الوحيـد في الأردن في هـذه الفـترة، وقـد تخـرَّج في كليـة الطـب في مـصر، وينتمـي إلى عائلـة مـن العائـلات العريقـة، وهـو غنـي، ويعمـل متطوِّعًـا، لا يتقـاضى أجـرًا عـن عملـه.

وخـلال الجلسـة حـضر "أبـو خليـل"، وهـو أردني؛ أسـمر، يَتَّسِـمُ بالطُّـول والبدانـة، ذو كـرش وشـارب كثيـف، ولُغْـد، كان المسـؤولَ الإداريَّ للبعثـة، ورَجُـلَ أنـور البلبيـسي، وتستشـعر مـن كلامـه أن لـه عقـلَ عصفـورة، وكان يتحـدث بـدون مناسـبة عـن "الأسـطول"، واعِـدًا الجميـعَ بوليمـة "أسـطول"! (اكتشـفتُ -بعـد السـؤال- أن الأسـطول الـذي يتحـدَّث عنـه هـو "لحمـة الـراس" في مـصر!).

• • •

أمّـا "أبـو الرائـد" (وهـو السـائق الـذي أحضَرَنـا مـن المطـار) فـكان يتميَّـز بقـوامٍ ريـاضيٍّ، لـه جسـم شـابٍّ في الخامسـة والعشريـن، بالرغـم مـن اقترابـه مـن نهايـة العقـد الرَّابـع، ذو شـارب يُعـبِّر عـن بدويَّتـه، التـي تُؤكِّدهـا لَهجَتُـه وطريقتـه في الـكلام، ويلفـت النظـر وجـودُ سِـنَّة ذهبيـة في مُقدِّمـة فمـه. عرفـت أنـه كان صَـفَّ ضابـط، وكان يخلِّـف لـديَّ إحساسًـا بأنـه يعمـل في جهـة أمنيـة أردنيـة.

ويتبقـى مـن العاملـين في الاتحـاد: السُّـفرَجي -أو الخـادم-، وهـو رجـل كبـير السِّـنِّ، تَخطَّـى الخمسـين، اسـمه "أبـو نضـال"، وهـو فلسـطينيٌّ يعيـش في الجبـل الأخـضر، كـما قال.

عرفـت أن إقامتـي سـتكون في مَقـرِّ البعثـة .وفي المسـاء تجمَّـع الزمـلاء للترحيـب بي، وعبـد الرحمــن، كان مــن بينهــم محمــد المشــد، الــذي أعرفــه جيــدًا؛ فقــد كان زميـلَ دُفعَـة، وأكـثر مـن ذلـك: كان -في القاهـرة- يسـكن بالقـرب منِّـي؛ فَكُنَّـا نسـتذكر دروسـنا معًـا أحيانًـا، كـما كنَّـا نتصاحـب في الطريـق إلى الكليـة، أمَّـا بعـد التخـرُّج فكنَّـا نتلاقـى كثـيرًا؛ فقـد كانـت توجهاتنـا في التخصُّـص واحـدة: الجراحـة.

زملاء العمل من الأطباء.

معظـم الأطبَّـاء أصدقـاء ومعـارف مـن قَبـلُ، وبعضهـم كانـوا أصدقـاء حميمـين، مثـل: محمـد المشـد وشـوقي العقبـاوي.

كان محمـد المشـد أمْيَـل إلى التَّديُّـن؛ بِحُكـمِ نشـأته الدينيـة؛ فقـد كان أبـوه أزهريًّـا. بـدأت تظهـر عليـه اتجاهـات وطنيـة بعـد هزيمـة 1967، ومـن شـدَّة تأثُّرنـا -كلينـا- أحسسـنا بالمـرارة، وقرَّرنـا -في لحظـة انفعـال- أن نهاجـر معًـا إلى البرازيـل، واسـتخرجنا الأوراق اللازمـة للهجـرة إلى البرازيـل، التـي كانـت أبوابهـا مفتوحـةً للمهاجريـن، وخاصَّةً مـن الأطبـاء، وكنـت أثنـاء اسـتخراج أوراق السـفر أشـعر بمـرارَةٍ غـير عاديـة؛ لأننـي أتـرك بلـدي -الـذي عشـقته- وفي ظـل هـذه المحنـة الي يمـرُّ بهـا.

لم يحـدث مـا قرَّرنـاه؛ فقـد التقينـا الدكتـور خـلاَّف سـكرتير نقابـة الأطبـاء ومديـر مستشــفى المــبرَّة، وهــو يملــك شــخصية جذَّابــة ومُقنِعَــة، وكان عضــوًا في الحــزب الشـيوعي مـن قبـل، ثـم انضـمَّ إلى التنظيـم الطليعـي كـما عرفـت فيـما بعـدُ، ولم يبـذل "خـلَّاف" جهـدًا كبـيرًا في إقناعنـا (عـلى الأقـل معـي)، وعيَّننـا -معًـا- في مستشـفى المبرَّة. وانضممنـا معًـا إلى المجوعـة المسـافرة إلى الأردن لمسـاندة العمـل الفـدائي؛ "الأمـل" كـما سـمَّاه عبـد النـاصر، وكـما كنَّـا نتمنَّـى نحـن أن يكـون، لكـن الدكتـور خـلاَّف طلـب أن يذهـب أحدنـا أوَّلًا؛ فـكان وصـول د. المشـد إلى عـمَّان قبـلي بسـتة أشـهر؛ بنـاءً عـلى طلبـه، ووافَقـتُ؛ لأننـي كنـت أحـضِّر لامتحـان التَّخصُّـص في الجراحـة وقتهـا.

وكان مـن بـين الحضـور في اللقـاء الأول في مكتـب الاتحـاد: الدكتـور نبيـل ريـاض، والدكتـور محفـوظ عكاشـة؛ وهـما زميـلَا دراسَـةٍ، ولهـما مواقـف وطنيـة (مـع اختـلاف توجُّهاتِهـما)، فقـد كان نبيـل ريـاض عضـوًا -أو مُتعاطفًـا- مـع الحـزب الشـيوعي، الـذي

لم يَبْقَ لـه وجـودٌ فِعليًّا عـلى أرض الواقـع. أمَّـا محفـوظ فهـو أكـثر الزمـلاء فهلـوةً، وهو أقـرب إلى اليسـاريين، وإن لم يَكُـن يمتلـك عُمقًـا سياسـيًّا أو فكريًّـا. أمَّـا أقـرب الأصدقـاء الموجوديـن بالنسـبة لي؛ فقـد كان شـوقي العقبـاوي؛ زميـل الدراسـة، وأقـرب الزمـلاء لي، وكان مُتخصِّصًـا في الطـب النفـسي، وقـد وصـل قبـلي ضمـن أول مجموعـة جـاءت إلى عـمَّان. وشـوقي طبيـب أمـراض نفسـيَّة يتميَّـز بالبسـاطة والتلقائيـة والعمـق في نفـس الوقـت، وهـو أكـثر الموجوديـن ثقافـةً؛ فقـد كانـت لـه ذاكـرة فوتوغرافيـة: يقـرأ كثـيرًا جـدًّا (وصلـت سرعتـه في القـراءة إلى كتـاب كامـل يوميًّـا)، وقـد عُـيِّن فيـما بعـد أسـتاذًا للطِّـبِّ النَّفـسيِّ بجامعـة الأزهـر.

كنـت شـغوفًا بـأن أعـرف الكثـير؛ اسـتمعت باهتـمامٍ شـديد، وسـألت عـمَّا يـدور في ذهنـي: كيفيـة أداء المَهمَّـة التـي كُلِّفنـا بهـا، كيـف يُتَرجِمـون الـدور المُهـمَّ المنـوط بنـا، وكيـف يتعاملـون ويتصرَّفـون مـع الآخريـن، ومـا هـي الأجـواء التـي كانـوا يتعاملـون خلالهـا مـع الهـلال الأحمـر الفلسـطيني وقيـادة العمـل الفـدائي؟ ولمَّـا سـألت عـن العمـل الـذي سـأقوم بـه قيـل لي إننـي سـأعمل مـع جماعـة فتـح. ولم أَسـتَرِح لهـذا كثـيرا؛ فقـد كان مـن الأنسـب لي -بحكـم علاقتـي القديمـة بحركـة القوميِّـين العـرب- أن أنضـمَّ للعمـل مـع جماعـة چـورچ حبـش، ذات التَّوجُّـه اليسـاري؛ والتـي كان يعمـل معهـا محمـد المشـد.

وهكـذا وجـدت نفـسي محسـوبًا عـلى قيـادة فتـح، وقيـادة الفصيـل الطِّبِّـي للهـلال الأحمـر الفلسـطيني، وقـد حمـدت الله عـلى هـذه الترتيبـات التـي ليـس لي فيهـا يـد. تكـوَّن هـذا الـرأي بعـد أن رأيـت التصرُّفـات الهمجيـة والشـعارات السـاذجة التـي كانـت ترفعهـا الجبهـة الشـعبية، والتَّصرُّفـات التـي تُعتَـبَرُ طُفولَـةً يسـاريَّة، ولـو كانـت حركـة القوميـين العـرب كـما عرفتهـا لشـاركوني الـرأي. وتأكَّـدتُ سـاعَتَها أن قيـادة الجبهـة الشـعبية الفعليـة غـير متوافقـة مـع حركـة القوميـين العـرب- فكريًّـا عـلى الأقـل.

الزّيارة

في صباح اليوم التالي؛ ذهبت أنا وعبد الرحمن إلى مبنى المخابرات، استَقْبَلَنا "أبو عاصم" في مكتبه؛ وهو مدير المخابرات المصرية في الأردن، كان ضخمَ الجُثة، أبيض الوجه مع حُمرَةٍ خفيفة.

كان اللقاء مُختَصرًا، ويكاد يكون بروتوكوليًّا... قال بصوته الخشن -الذي يتناسب مع حجمه وشكله-:

- أهلًا يا دكاترة...
- صباح الخير يا افندم!
- حمدًا لله على السلامة.
- الله يسلِّم سعادَتك.
- إن شاء الله تقدروا تقوموا بدوركم القومي العظيم اللي جيتوا علشانه.
- إن شاء الله...
- عمومًا احنا موجودين... إذا قابلتكم أي مشكلة أو احتجتم أي حاجة. أشوفكم بخير. مع السلامة.

وخرجنا مبهورين من ضخامة الرجل وكِرشِه العظيم، ورأسه الكبير الأصلع تمامًا، وبشرته شديدة البياض. وكنّا مغمورين بإحساس غريب من شخصيته المؤثِّرة؛ فالرجل ذو نظرات حادَّة ثاقبة، قليل الكلام، يُشعُّ في المكان إحساسًا طاغيًا بالقوة؛ إلى حدٍّ كبير.

عُدنا إلى مَقرِّ البعثة في المبنى المجاور ونحن نتنفس الصعداء، وبمجرد أن التقينا الزملاء انطلقت تساؤُلاتُنا عن تلك الشخصية ذات النفوذ -كما يبدو-، ردَّ أَحدُهم مُجيبًا عن تساؤل عبد الرحمن عن مواقف الرجل من أفراد البعثة:

- يحبُّنا ويحترمنا...

وسألتُ:

- ألم يُحاوِل تجنيدَكُم للعمل لحسابه؟!
- كَلَّا.

استدرك أحدهم قائلًا:

حـاوَلَ في البدايـة، لكنـه اسـتقرَّ عـلى التعامُـل معنـا باحـترام، ويُحـلُّ مشـاكلنا إذا تعرَّضنـا لمشـاكل.

أجْمَـعَ الـكُلُّ عـلى أن "أبـو عاصـم" مُسـانِدٌ بقـوَّة للفدائيـين، وأنهـم يَثِقـون بـه، أو ربمـا يخافـون منـه، ولكنـه عـلى علاقـة قويـة برجـال السُّـلطَة؛ فهـو في النهايـة عضـوٌ مُميَّـزٌ في السـفارة، ورجـل المخابـرات الـذي عـادَةً مـا يكـون الرَّجُـلَ الثـاني في أي سـفارة.

كان أي طبيـب يـأتي إلى الأردن يذهـب إليـه في مكتبـه ليقـدِّم لـه نفسـه، وكان يعرف الأطبّـاءَ فـردًا فـردًا، ويعـرف كلَّ شيء عنهـم، وتفاصيـل حياتهـم السـابقة والحاليـة، وأتخيَّـل أنـه يمتلـك ملفَّـات خاصَّـة بـكل فـرد منهـم!

جويفل

نجيـب جويفـل كان يُكنَّـى باسـم ولـده "عاصـم"، وكان الرَّجُـلَ النَّافِـذَ ذا السَّـطوة، يتميَّـز بمزيـجٍ مـن الحـب والاحـترام، وعُـرِفَ عنـه علاقتـه القويـة بعبـد النـاصر، الـذي كانـت شـعبيَّتُه تفـوق كُلَّ قيـادات الوطـن العـربي. وكان مُسـاعِدُه هـو محمـد عبـد السـلام، وكان شـابًّا نحيـلًا، شـديدَ التَّواضُـع، مـع كفـاءةٍ عاليَـة، وكُنَّـا نتصـوَّر أن الاسـم ليـس الاسـم الحقيقـيَّ؛ حيـث أن الجميـع يحملـون أسـماءً حركيَّـةً، حتـى عَلِمنـا فيـما بعـدُ أنـه محمـد عبـد السـلام المحجـوب، الـذي كان مـن أنجـح المحافظـين للإسـكندرية، فيـما بَعـدُ. أمَّـا جويفـل فـكان يُعطـي بشـخصيته ثِقَـلًا للمخابـرات المصريـة في الأردن، وكان لديـه فهـمٌ سـياسيٌّ عميـق لـكل مـا يحـدث... ويبـدو أن كل العاملـين مـع جويفـل كانـوا مُختاريـن بدقَّـة؛ مثـل سـهيل؛ الشـاب الـذي كان معظـم الوقـت أمـام الآلـة الكاتبـة، وتبـيَّن لي فيـما بعـد عندمـا قابلتـه في القاهـرة أنـه ضابـطٌ كُـفء في المخابـرات العسـكرية، وترقَّـى حتـى صـار مديـرَ المخابـرات العسـكرية: اللـواء لاشـين!

ولنجيـب جويفـل قصـة طويلـة، بعضهـا مـن نسـج الخيـال، وبعضهـا حقيقـي، لكـن الغريـب في الأمـر أنـك لا تسـتطيع -بدقَّـة- أن تفـرِّق بـين مـا هـو حقيقـي فيهـا، ومـا هـو خيـالي! حتـى إن ويكيبيديـا الإخـوان تطلـق عليـه لقـب: "اللغـز المثـير"! والتَّسـمية مناسـبة؛ فقـد كان "أبـو عاصـم" لُغـزًا مثـيرًا فعـلًا؛ ينتقـل مـن عضـو فعَّـال في النظام

الخاص للإخوان (التنظيم المُسلَّح للإخوان المسلمين) إلى أن يصبح رَجُلَ عبد الناصر في الأردن، ومسؤول المخابرات في السفارة المصرية هناك!

ولد محمد نجيب جويفل في محافظة الشرقية، وكان يتَّسِمُ بشخصيَّةٍ قويَّة، وشَجاعةٍ أهَّلَته للالتحاق بالنظام الخاص للإخوان، وقد حدث صدام مع الشرطة في 48، وهرب إلى فلسطين، وانضم إلى كتيبة الإخوان المتطوِّعين ضد الاحتلال الإسرائيلي، وكان له دَورٌ قياديٌّ مع الإخوان ضدَّ الصهاينة كما تشير ويكيبيديا الإخوان، وذَكَرَت الكثير من بطولاته وشجاعته، وفي نفس الوقت عُرِف عنه مَيلُه للتَّمرُّد... ثم شارك في محاولة قتل إبراهيم عبد الهادي، وحوكِم، وكان محاميه: حسن العشماوي، وحُكِم عليه بأحكامٍ قاسيةٍ؛ فهرب هذه المرَّةَ إلى لبنان، وقد عاد إلى القاهرة بعد تَدخُّل عبد الناصر بعد ثورة يوليو، وأرسل له جوازَ سفرٍ باسمٍ آخر لحين صدور العفو عنه، الذي صدر في 1953، وقد اشترك جويفل -مع آخرين- في مواقف ضدَّ عبد الناصر في أزمة 54 مع محمد نجيب، وكان الإخوان يساندون نجيب في الأزمة، وعاد نجيب للسُّلطة، ثم أسقط عبد الناصر الجِنسيَّةَ عن جويفل، ومعه ستَّة آخرون؛ فلجؤوا إلى سوريا، والتحق وهو هناك بالجماعة في سوريا، ثم اتُّهِم بمحاوَلَةِ شَقِّ الإخوان، بما عُرِف عنه من حُبٍّ للتَّمرُّد، ولكنه بعد ذلك أصبح رَجُلَ عبد الناصر داخل الجماعة!

وقاد عَمليًّا هذا الانشقاقَ الذي كان في سنة 58، وهو العام الذي أُعلِنَت فيه الوحدة مع مصر، وأصبح معروفًا عند جماعة الإخوان أنه أصبح ضابِطًا في المخابرات المصرية.

لم يكتف جويفل بذلك، وإنما خطَّط لحدوث انشقاقات عديدة في صفوف الإخوان في أكثر من بلد عربي لصالح جماعات ناصرية، كما جاء في ويكيبيديا الإخوان، وقيل إنه رُقِّي إلى رتبة لواء، ثم عمل في السفارة المصرية في الأردن كمسؤول للمخابرات، وقيل إنَّه كان يستضيف "أبو عمار" أثناء الأزمة، وقيل إنه عاد من عَمَّان على طائرة جعفر النميري، الذي أُرسِلَ كمبعوثٍ للقِمَّة إلى عَمَّان أثناء أزمة أيلول الأسود، قبل وفاة عبد الناصر في سبتمبر 70!

زُوَّار "أبو عاصم"

كان زُوَّار "أبـو عاصـم" كثيريـن، ومُتعـدِّدي التَّوجُّهـات، حتـى إن بعـض الـوزراء ورؤسـاء التنظيـمات كانـوا يأتـون إلى مكتبـه. وبمـا أن مبنـى المخابـرات كان مُلاصِقًـا لمبنـى الاتحـاد، ولمَّـا كان الـزُّوَّار كثيريـن؛ فـكان البعـض منهـم ينتظـرون في مكتـب الاتحـاد، خاصَّـةً بعـد أن اتضـح لهـم أن مناقشـات الأطبـاء كانـت مناقشـاتٍ جدِّيَّـةً، وتـدور في أغلبهـا حـول القضيـة الفلسـطينية، ومشـاكل المنطقـة العربيـة، وكانـت الآراء تتَّسِـمُ بالتنـوُّع؛ فالبعـض كان يُدعِّـم اليسـار المُمثَّـل في الجبهـة الشـعبية، وآخـرون يُدعِّمـون الحَـلَّ العسـكري، مثـل: القيـادة العامـة، وجماعـة "أبـو نضـال"، وآخـرون يُشـجِّعون الحـلَّ الشـعبوي الـذي تمثِّلـه حركـة فتـح (وهـي أكـبر الفصائـل الفلسـطينية، وأكثرهـا شـهرة، ورئيسـها يـاسر عرفـات "أبـو عـمار"، الـذي كان رئيسًـا لمنظمـة التحريـر الفلسـطينية). كان هنـاك أيضًـا الحـركات اليسـارية، الـذي كان معظمهـا غـير ناضـج كـما هـو واضـح مـن الشـعارات المرفوعـة في شـوارع عـمان، وقـد تَطـرَّف البعـض إلى درجـة تصويرهـم أن عـمَّان يجـب أن تُمثِّـل هانـوي في حـرب فيتنـام!

في نفـس اليـوم، بعـد مقابلـة "أبـو عاصـم" في مكتبـه بمبنـى المخابـرات المصريـة، غـادر عبـد الرحمـن عـودة مقرَّ البعثـة إلى إربـد بصحبـة حسـين سـنبل، الـذي كان ضمـن مُسـتَقبِلينا في المطـار، وكان قـد أتى مـن إربـد -خصِّيصًـا- لاصطحـاب عبـد الرحمـن.

كان عبـد الرحمـن عـودة في السـابعة والعشريـن مـن عمـره، وقـد تخـرَّج معـي، وكان شـخصية هادئـة، ولمَّـا تخـرَّج أصبـح اتجاهـه دينيًّـا، غـير أنـه لم يكـن يتمتـع بالعمـق الفكـري، حتـى في الفكـر الدينـي، لكنـه كان مُتعاطفًـا مـع الدِّينيِّـين؛ ربمـا بحكـم روابطـه العائليـة، وكان وديعًـا ولطيفًـا إذا تكلَّـم، وغـير تَصادُمِـيٍّ في حواراتـه.

مجموعتان

واكتشـفت أن الشـغل الشـاغل للجميـع -فيـما عـدا شـوقي تقريبًـا- هـو عمليـة الـصراع الفكـري بـين أعضـاء البعثـة، وكأنـه المعركـة الأساسـية. وخَلُصـتُ إلى تكويـن مجموعتـين: مجموعـة الشـباب مـن التَّقدُّميِّـين، وهـم مُسَـيطِرون عـلى مقـر البعثـة

في عـمَّان، وعـلى علاقـة جيـدة بمكتـب "أبـو عاصـم"، كانـوا يقيمـون جميعًـا في مقـر البعثـة. وكانـت المجموعـة الأخـرى: المحافظـة، أو اليمينيِّـين، أو مَـن كانـوا يُطلَـقُ عليهـم -تجـاوزًا وتعميـمًا- الإخـوان المسـلمين؛ تتجمَّـع في إربـد، وتربطهـا علاقـة قويـة بقيـادات منظمـة فتـح، وبقيـادات الهـلال الأحمـر الفلسـطيني.

***

المجموعـة اليمينيـة -مـن الأطبَّـاء المصريـين- تقيـم وتعمـل في إربـد، وتـرى أن العمـل مـع الفدائيـين الفلسـطينيين نـوعٌ مـن الجهـاد بالمنظـور الدينـي، وكانـوا عـلى علاقـة طيِّبـة وقويَّـة وأكـثر قُربًـا مـن قلـوب قيـادة الفصيـل الطبـي للهـلال الأحمـر الفلسـطيني. كان هـذا لسـببين؛ أولهـما: أن هـذه المجموعـة كانـت متواجـدة بالفعـل بعيـدًا عـن العاصمـة ببريقهـا؛ فهـم أقـرب للشـباب مـن الفدائيـين في مواقـع العمـل العسـكري، وثانيهـما: أن هـذه القيـادة كانـت أقـرب -فكريًّـا- إلى أصوليـة هـذه المجموعـة، وأَمْيَـلَ إلى الأفـكار اليمينيـة.

والمجموعـة اليسـارية -مـن الأطبـاء المصريـين- تقيـم في مقـرِّ اتحـاد الأطبـاء العـرب، وتعمـل في عـمَّان، وتـرى أن مـا تقـوم بـه هـو مـن نـوع النضـال بالمنظـور التقدُّمـيِّ، وكانـت هـذه المجموعـة تُديـن القيـادات الفلسـطينية، وتـرى أنهـا يمينيَّـةٌ، وتتشـدَّق بالشـعارات التَّقدُّميـة؛ لتركـب الموجـة فقـط!

كان واضحًـا أن أطبـاء البعثـة منقسـمين إلى معسـكرين متصارعـين، تتصـارع تناقضاتهـما: أصحـاب المعسـكر الأول يتبنَّـون الشـعارات الدينيـة، رغـم أنهـم لا يُـؤدُّون الصـلاة، ولا يقيمـون الشـعائر الدينيـة، ويتسـامرون في الليـل، ويُحوِّلـون أوقاتهـم إلى غنـاء وسـمر وعَـزفٍ عـلى العـود وخلافـه.

أمَّـا أبنـاء المعسـكر الثـاني فكانـوا يتبنَّـون الشـعارات التقدُّمية؛ وهـم يناضلـون نهارًا، ويمارسـون "طـق الحَنَـك" عـصرًا، ثـم ينطلقـون إلى سـهراتهم؛ البعـض منهـم يقـضي سـهرته مـع الأصدقـاء، والبعـض يذهـب لقضـاء الليـل مـع النسـاء.

وعندمـا تناهـى إلى علـم المسـؤولين في مـصر مـا يحـدث مـن صراعـات بـين المعسـكرين قـرَّروا إرسـال مسـؤول عـن البعثـة أكـبرَ سِـنًّا، وأكـثرَ تأهيـلًا، كان هـو د. محمـد توفيـق حمـزة.

وجدتُ نفسي في جوٍّ غريب؛ كنت أذهب إلى المخيَّم صباحًا، وأبقى في العيادة حتى المساء، وعندما تقوم جماعة من الشباب بشنٍّ عملية فدائية ضدَّ الإسرائيليين -كُلَّ يومين أو ثلاثة- كنت أخرج معهم.

هكذا شاركتُ في النضال، وفي "طقِّ الحَنَك"، وفي السهرات الليلية.

وشارَكتُ في كل هذا كما هو مرسوم، وكنت في انتظار ذلك الرجل الذي سيأتي ليقود العمل، ويكون مسؤولًا عنه، وكنتُ قد تعرَّفت إلى محمد توفيق قبل سفري مباشرة من القاهرة، حيث تَعارَفنا بواسطة د. سعد فؤاد (وكيل أوَّل وزارة الصحة فيما بعدُ)، وكان وَقتَها مديرَ إدارة المستشفيات.

وَضعٌ مُميَّز بين الأطبَّاء

كان لي وضع مُميَّز بين الأطباء، دون جميع أفراد البعثة؛ فأختي -كما ذكرت- كانت تقيم في عمَّان، ولأنها -عندما كانت في القاهرة- كانت تعمل مديرةً لبيت الطالبات الأردنيات اللاتي يدرسن في القاهرة؛ فقد كانت لها صِلاتٌ بكثير من العائلات الأردنية. وكنت -خلال تلك الفترة- أقوم بعملي طبيب؛ حيث كانت أختي تستعين بي لعلاج بعض الحالات في بيت الطالبات مجَّانًا. لهذا؛ كانت كثير من تلك العائلات تنتظر الفرصة لإبداء امتنانها لما قُمتُ به، وكان التعبير عن هذا الامتنان يظهر في مظاهر الضيافة العربية المعروفة عن الأردنيين؛ كانت الولائم تُعدُّ لي، ولكلِّ أفراد بعثة اتحاد الأطباء العرب، وكنَّا نرتِّب الأمر بحيث تكون هذه الولائم مُتوافِقَةً مع وجود بعض الشخصيات القادمة من القاهرة إلى عمَّان؛ مثل الدكتور سعد الدين فؤاد، والدكتور عبد الغفار خلَّاف، وغيرهما.

هكذا؛ كانت الأوضاع مُريحةً في عمَّان بالنسبة لي: أختي وعائلتها بالقرب منِّي (وإن كُنتُ أتجنَّب الاتصال بهم كثيرًا)، أعيش في صحبة أصدقائي التَّقدُّميِّين ونمارس "طق الحَنَك"، أنام في فِراشٍ وثير كلَّ ليلة في مَقرِّ البعثة، العلاقات النسائية، السهرات الممتعة، ولقاءات يومية مع شخصيات مُهمَّة وبعض المسؤولين...

وبالرغم من كل هذا كنتُ في أعماقي أشعر بأننا لسنا في الطريق الصحيح!

***

وقـد تزامـن مـع وصـولي -أو بعدهـا بقليـل- عـودَةُ بعـض الأطبـاء للقاهـرة، مـع اسـتبدالهم بآخريــن، معظمهــم قــد يكونــون أكــثرَ تَفتُّحًــا، وليــس لهــم أيديولوجيــة مُسـبَقة، ويبـدو أن ذلـك كان يتـماشى مـع شـخصيَّة محمـد توفيـق...

د. محمد توفيق رئيسًا

وجـاء الدكتـور توفيـق، كان في نحـو الخمسـين مـن عمـره: رجـلٌ قصـير القامَـة، عريـض المنكبـين، قَمحـيُّ اللـون، ذو ملامـح مصريـة، يتحـرَّك بأنـاةٍ، ويُفكِّـر بهـدوء.

عندمـا وصـل إلى عـمَّان لم يكـن يعـرف أحـدًا غـيري؛ فقـد تعارفنـا في القاهـرة قبـل حضـوره عـن طريـق الدكتـور سـعد الديـن فـؤاد، الـذي كان صديقًـا لـه، وكان مديـرًا لإدارة المستشـفيات في ذلـك الوقـت، ضمـن المجموعـة المشرفـة عـلى سـفر الأطبـاء إلى عـمَّان ومتابعتهـم مـن القاهـرة، وكان الدكتـور توفيـق -قبـل وصولـه مـن مـصر- يعمـل مديـرًا لمستشـفى بورسـعيد العـام.

حـاول الدكتـور توفيـق -مـن بدايـة وصولـه- فـرضَ سـيطرته عـلى أمـور البعثـة، والظهـور بمظهـر الرجـل الجـاد، وكان أوَّل قـرار اتخـذه هـو أن يكـون مفتـاح السـيارة المرسـيدس القديمـة الموجـودة لـدى البعثـة في حَوزَتِـه هـو فقـط، وبالفعـل، تخلَّـص مـن "أبـو رائـد" السـائق الأردني، ثـم "أبـو خالـد" المسـؤول الإداري، ولم يلبـث أن قَلَّـص مـن صلاحيـات أنـور البلبيـسي المسـؤول الأردني عـن البعثـة طيلـةَ الفـترة الماضيـة. كان محمـد توفيـق يقـوم بهـذه التغيـيرات تحـت عنـوان تقليـص النفقـات، التـي لم يشـكُ منهـا أحـد! فقـد كانـت النفقـات تتكفَّـل بهـا الـدول العربيـة التـي لم ترسـل أطبـاء، ولكنـه كان يقـوم بهـذه التحـرُّكات لأنهـا تتناسـب مـع تَحرُّكاتـه فيـما بعـد، مثـل علاقتـه بأخصَّائيَّـة العـلاج الطبيعـي، حتـى أنـه فيـما بعـد غـيَّر مـكان الاتحـاد ليكـون بعيـدًا عـن أعـين المخابـرات. اتَّهمـه الجميـع بأنـه محافـظ وبيروقراطـي، ولم يكـن أحـدٌ يرتـاح لـه، لكنـه قرَّبنـي إليـه؛ باعتبـاري واحـدًا مـن المجموعـة التقدُّميَّـة التـي كان يميـل إليهـا؛ بسـبب وحيـد: أنهـم كانـوا لا يُحرِّمـون الخمـر، وكان هـو يـشرب يوميًّـا.

محجوب عمر

سمِعتُ كثيراً من زملائي في البعثة، ومِمَّن التقيتُ بهم وتعامَلتُ معهم من الفدائيين الفلسطينيين- عن شخصيَّةٍ مصريَّة أسطورية؛ هو الدكتور محجوب عمر. وقد كنت مشوقًا إلى أن أراه، وغمرني فضول شديد لمعرفته، وكنتُ أشكُّ في أن هناك شخصية تَجمَعُ كلَّ تلك الصفات التي يتحدَّث عنها هؤلاء الشباب، وأقول لنفسي إنهم رُبَّما يُغالون في الوصف من فرط حُبِّهم له وإعجابهم به، وكنت أترقَّب لقائي به.

وبالفعل حضر يومًا إلى مَقرِّ البعثة، اكتشفت أنني أعرفه؛ فقد التقيت به في القاهرة مرَّتَين أو ثلاثًا، وتذكَّرتُ أنه هو نفسه رؤوف نظمي ميخائيل عبد الملك، الذي كان زميلًا لنا في الكلية، وتخرَّج معنا في نفس الدفعة؛ بالرغم من أنه يكبرنا بحوالي عشر سنوات، وكان سبب تأخُّره في التخرُّج هو كثرة دخوله السجن؛ بسبب انتمائه للحزب الشيوعي المصري، وكان أحدَ قياداته.

وتكرَّر تردُّده على مقر البعثة على فترات، وكان دائمًا يحضر في أيَّام الجُمَع. كان دائمًا يرتدي ملابس عسكرية، ويتحدَّث بتواضُعٍ شديد، وكان يتكلم دائمًا عن "فتح"، وعن عملياتها العسكرية، وعن العدوِّ الصهيوني.

لم أسمعه يتكلَّم عن الصراع بين اليمين واليسار، أو التَّقدُّميِّين والرَّجعيِّين، أو الشيوعيِّين والإخوان المسلمين؛ فمثل هذه المصطلحات لم تَكُن تَرِدُ في مُفردات مُعجَمِه الذي يتحدَّث به، وكان يسخر ممَّن يَتَّهمون زُعماء حركة فتح بأنهم يمينيُّون. كان يقول دائمًا: مَن يحمل السلاح ويُقاتل، فأنا معه ضدَّ العدو.

أُعجبت بالرجل، وأحببته، واستطاع أن يحتلَّ في نفسي مساحة احترام كبيرة.

كان الدكتور محجوب قد انسحب إلى الجنوب في منطقة نائية، وهي في منتصف المسافة في الجنوب بين "الكرك" و"معان" (آخر معاقل العمل العسكري جنوبًا)، وأكثرها خشونة. استقرَّ في "الطفيلة"، واستمرَّ فيها مُدَّةً طويلة، وبالرغم من أن قياديِّي الهلال الأحمر كانوا لا يُحبُّونه؛ فإنه لم يكن يبالي بذلك، كما كان يقول دائمًا.

مَقرُّ البَعثَة والمَخابَرات

كان مقـر البعثـة كـما لـو كان امتـدادًا لمكتـب "أبـو عاصـم"، فقـد سـمعت مـن الأطبـاء- ذات يوم-بـأن "أبـو عاصـم" اسـتأذن في أن نسـتضيف بعـض المناضـلات الفلسـطينيات ليُقِمـنَ ليلَتهُـنَّ لدينـا، إلى حـين نقلِهـنَّ في الفجـر إلى مـكان آمِـن، ورغـم أن ذلك لم يتـمَّ إلَّا أنـه كان ذا دلالـة؛ حيـث كان الرجـل يَثِـقُ في الأطبَّـاء الذيـن يعملـون في عَـمَّان، ويعتـبر مكتبهـم امتـدادًا لمكتبـه، وهـو شيء لَـم يسـتَرِحْ محمـد توفيـق لـه لأسـباب عديـدة. هـؤلاء المناضـلات الفلسـطينيات كـنَّ: ليـلى خالـد وصاحباتهـا -مـن أعضـاء الجبهـة الشـعبية لتحريـر فلسـطين- الـلاتي قُمـنَ بعلميـة خطـف طائـرة شركـة العـال الإسرائيليـة وتحويـل مسـارها إلى الصحـراء في شـمال الأردن، الـذي كانـوا يطلقـون عليـه مطـار الثـورة... وقـد كان الهـدف مـن اختطـاف الطائـرة هـو إطـلاق سراح الفلسـطينيين المعتقلـين لـدى إسرائيـل، ولَفـتُ أنظـار العـالم إلى القضيـة الفلسـطينية. كان المـكان الحصـين الـذي يمكنهـنَّ الاحتـماء فيـه مـن السـلطة الأردنيـة هـو مكتـب "أبـو عاصـم"، فحتـى السـلطة الأردنيـة لـو عرفـت بأنـه يأويهـن لَـم تَكُـن لتسـتطيع أن تُطارِدَهُـنَّ أو تطالـب بتسـليمهن... إلى هـذا الحـد كانـت قـوَّة المـكان، التـي يسـتمدُّها مـن قـوة "أبـو عاصـم".

ونحـن عندمـا ننظـر في أمـر عمليـة خطـف الطائـرات حاليًـا فإننا سـوف نسـتنكرها، أنـا نفـسي أسـتنكرها في الوقـت الراهـن، لكـن في ذلـك الوقـت، في سـتينيات وسـبعينيات القـرن المـاضي، وإذا اطَّلعنـا عـلى الدوافـع التـي جَعلَـت هـؤلاء الشـباب والفتيـات يقومـون بهـذا الأعـمال؛ قـد تخِـفُّ حِـدَّةُ الاسـتنكار.

كانـت الأعـمال الفدائيـة في تلـك المرحلـة تُماثِـلُ في حقـل العمـل السـياسي- الصَّاعِقَـة في المجـال العسـكري، والعمليـات الانتحاريـة... وهـذه الأعـمال كلهـا تَتَّسِـم بالعنـف الـذي كان مفهومًـا في هـذه الفـترة، وكان الفلسـطينيُّون يشـعرون بتَجاهُـل العـالم لقضاياهـم، رغـم أنهـا آخـر حالـة اسـتعمار اسـتيطانيٍّ مـا زال مُسـتمرًّا في العـالم؛ بسـبب تبنِّـي الولايـات المُتَّحـدة (أقـوى دولـة في العـالم) لإسرائيـل أكـثر مـن أي ولايـة امريكيـة... إنهـا أخطـر قضيـة ظُلـمٍ وَقَـعَ عـلى شـعبٍ تَـشرَّد أهلـه، وفَقَـدَ وطنـه، وتُمتَهَـنُ كرامتـه طـوال الوقـت وهـو يَتسـوَّل إقامَـةً هنـا أو هنـاك، وأكـثر مـن ذلـك: يتسـوَّل بطاقَـةَ هُويَّـة!

توفيق والتّنسيق مع وَزارة الصّحّة الأردنيّة

كانت الأحداث تتحرك بسرعة في عمّان خاصّةً، وفي جميع أنحاء الأردن.

توجّه الدكتور توفيق إلى مسؤولي الحكومة يطلب التعاون؛ على أساس أن المجموعة الموجودة معه -وتحت قيادته- يمكن أن تقوم بدور أكثر تأثيرًا؛ خاصّةً وأن هذه المجموعة جاءت بناء على قرارٍ من اتحاد الأطِبّاء العرب، الذي تشارك فيه الأردن، فلماذا لا تشارك الأردن في تسهيل مَهمَّتِهم بشكلٍ رسميٍّ؟!

قابل وزير الصحة الدكتور عبد السلام المجالي، وقد كنت معه، وكان الرَّجُلُ دَمِثَ الخُلُق، من أصلٍ فلسطينيٍّ، مُثقَّف، وابنه طبيبٌ شابٌّ، حديث التَّخرُّج، وقد دَفَعَه للعمل معنا للاستفادة من الخبرة الطبية المصرية، خاصَّةً في مجال علاج وجراحات الطوارئ.

قال توفيق إننا أطباء أوّلًا، وقبل كل شيء، ونريد أن نُقدِّمَ خدماتنا -أوّلًا- للفلسطينين حسب قرارات الاتحاد، ثم للفدائيين، وثالِثًا: للمواطنين، مِمَّن نستطيع أن نُقدِّم إليهم خدمة في مثل تلك الأحداث التي نمرُّ بها، وقد أشرت أنا إلى أننا نقوم فقط بالإسعافات الأوَّلِيَّة، حسب الإمكانات المُتوفِّرة لدينا، وأننا نرسل الجرحى إلى المستشفيات الأردنية حسب قُربِها من أماكن العمليات العسكرية، منوِّهًا إلى أنه رغم أن أطباء المستشفيات الأردنية لا يرفضون هذه الحالات لأنها حالات حرجة في الغالب، إلا أننا نرغب في أن نُمنَح التجهيزات اللازمة التي تمكِّننا من ممارسة دور أكبر؛ للاستفادة من جهودنا على الوجه الأمثل.

وكان مِمَّا قلناه للوزير إن الفدائيين الذين يُصابون في عمليات عسكرية يُوجَّهون للمستشفيات الحكومية بدون تنسيق مُسبَق، فلماذا لا يكون ذلك بالتنسيق مع اتحاد الأطباء العرب، ويُضاف إلى مساهمات الأردن في تشجيع العمل الفدائي؟ فاقتنع الرَّجُلُ تمامًا، وحَوَّل مستشفى النساء والولادة في شارع "السَّلط" إلى مستشفى طوارئ، وهو مستشفى صغير نسبيًّا في وسط عمَّان، وكان مُخصَّصًا لحالات النساء والولادة، ولم يكن عليه إقبال كبير، ولا أعرف السبب.

تأكَّد الأمرُ بعد أن أعلمتنا قيادة الهلال الأحمر الفلسطيني ترحيبَها بإمكانية أن يستقبل المستشفى حالات الفدائيين، وأن تكون لهم مُعامَلَة خاصَّة، ومراعاة داخل هذا المستشفى، ودعمها لهذا القرار.

كنَّا سعيدَيْن -أنا والدكتور توفيق- بممارسة العمل الجراحي واستقبال الحالات الحرجة؛ خاصة وأنه كان حاصِلًا على الزَّمالة في الجراحة من انجلترا، وعاش فترة من حياته هناك.

أوقاتٌ للتَّرفيه

كانت أمسياتي تتوزَّع بين جلسات "طقِّ الحَنَك"، والخروج مع شوقي، الذي يُفضِّل اصطحابي حين يذهب لملاقاة صديقته في بيتها الذي استأجرته في اللُّويبدَة؛ والذي يُعتبر بيت المضيفات الجوِّيَّات من زميلاتها.

هناك التقيت بفتياتٍ من صاحباتها، وتعرَّفت على شابة لطيفة، رقيقة، صوتها دافئ، تُسرِفُ في وضع مساحيق الزينة على وجهها، خاصَّةً عند تَوجُّهها لعملها، وتعدَّدَت اللقاءات بيننا، عَلِمتُ منها أنها مخطوبة لشاب في مصر. لم تَكُن بالنسبة لي أكثر من صديقة، كانت تُحدِّثني عن حبها لعملها، وأنه كان بالنسبة لها حلمًا؛ لأنها ترغب في أن ترى العالم كله، وكيف تُعارِضُ عائِلَتُها عَملَها؛ إذ تعتبره إهانةً لأسرة محترمة. حدَّثَتني عن أنها لا تُحِبُّ خطيبها، ولكنها في الوقت نفسه لا تكرهه، وأن أُمَّها قد رتَّبَت وأخَذَت الموافقة لهذه الخطبة دون حماسٍ من جانبها (وقد استطاعت أسرَتُها باستخدام نفوذها أن تُدبِّر إنهاءَ عملها فيما بعدُ في شركة الطيران).

كانت صديقة شوقي امرأةً تُجسِّد الأنثى المصرية، مُعتَدِلَة الطول، ملفوفة الجسم، جذَّابة جدًّا. هكذا وصفها شوقي عندما حدَّثَني عنها أوَّلَ مرَّة، قبل أن أراها.

تعرَّف عليها في الطائرة عندما كان عائدًا إلى عمَّان من إجازته الأولى، كانت مُضيفَةً في شركة "عالية"، كان يجلس وإلى جواره الدكتور علاء علوان، لَفَتَا انتباهَها بعدم اهتمامهما بمظهرهما وهما يجلسان في الدرجة الأولى، ظنَّتهما نجَّارَيْن! غازلاها، واندهشت لَمَّا علمت أنهما طبيبان، وتبادلوا أرقام التليفونات، واتَّفقوا على اللقاء فيما بعد.

عندما التقيا بها وبزميلاتها في منزلهنَّ الذي أجَّرْنه في اللويبدة -وكان يُطلق عليه بيت المضيفات المصريات- تدعَّمت العلاقات بين الجميع، وصارت علاقة أخوَّة. المضيفات أطلقن على علاء اسم "لالو"، وعلى شوقي اسم "شوشي".

تطوَّرَت حالة الإعجاب المتبادَل بين شوقي وصديقته بعد ثلاثة أشهر، لكنه انتقل إلى إربد في ذلك الوقت، وكان -كلَّ أسبوع أو أسبوعين- يحضر إلى عمَّان خِصِّيصًا ليراها، وكانت علاقة شوقي بصديقته دون تواصُلٍ خلال هذه الفترة، إلى أن عاد من إربد قبل مجيئي بأسابيع قليلة.

صديقة شوقي كانت إنسانة ذكية، درست في "الليسيه"، وبعد البكالوريوس عملت مضيفةً جوية بشركة "عالية"، وتحمَّلَت مسؤولية الأسرة ماليًّا، وكانت مشكلتها في الارتباط هي التخلِّي عن الأسرة، أمَّا هو فكان ما يزال لم يتحدَّد مسار مستقبله، وكان يعيش مرحلة التعبير عن قلق الشباب في هذه المرحلة من العمر، وكانا مُتَّفِقَيْن على عدم الزواج في البداية؛ نظرًا لالتزاماتها تجاه أسرتها -وكان يحترم ويُقدِّر دورها ومسؤوليتها تجاه أسرتها-، ولكنه اكتشف -بعد تفكير عميق- أن جزءًا من ارتباطه بها يعود إلى اعجابه بِتَحَمُّلها المسؤولية بشجاعة، وتمَّ الزواج بدون أيَّة مظاهر احتفالية، في بيروت، فيما بعد، متزامنًا مع انتهاء عمله مع الاتحاد وسفره مع زوجته لانجلترا.

النَّعرَة الشوفينية الدخيلة على المجتمع الأردني

نشأت المملكة الأردنية شرق نهر الأردن، وبعد حرب 1948 التي وقعت بين سبعة جيوش عربية، بأعدادٍ وعَتادٍ محدودٍ (كانت مصر من بين هذه الدول مصر!) والعصابات المُتطرِّفة التي تَحوَّلَت فيما بعد إلى جيش الاحتلال؛ تَفوَّقَت هذه العصابات على الجيوش العربية السبعة، ضَعيفَةِ العدد والعتاد (كانت هذه الحرب فضيحةً لِكُلِّ الدول العربية، وأحدَ الأسباب لقيام الجيش المصري بانقلاب 52 في مصر الذي تحوَّل إلى ثورة)، واستطاعت إعلانَ دولة إسرائيل، وبمعاونة أمريكا وبريطانيا حازت على الاعتراف الدولي. بعد احتلال إسرائيل لكل أراضي فلسطين لم يَتبقَّ منها غير الضفة الغربية لنهر الأردن للفلسطينيين، تحت إشرافٍ أردنيٍّ، وقطاع غزة تحت إشراف مصري؛ وذلك تحقيقًا لوعد بلفور البريطاني بإقامة

دولـة ليهـود الشَّـتات في فلسـطين، واشـتهر هـذا الاتفـاق بأنـه "مـن لا يملـك أعطـى مـا لا يملـك لمـن لا يسـتحق"، وقـد ضَمَّـت الأردن الضفـة الغربيـة حتـى حـرب 1967 التـي انتـصرت فيهـا إسرائيـل أيضًـا، واحتلَّـت الضِّفَّـة الغربيـة ضمـن مـا احتلَّـت في هـذه الحـرب.

ولم يكـن هنـاك تفرقـة بـين سُـكَّان الضفـة الغربيـة وسُـكَّان الضفـة الشرقيـة حتـى حـرب 1967، وظهـور فصائـل فلسـطينية مُسـلَّحة، أوَّلهـا كانـت حركـة فتـح، وكانـت كُلُّ القيـادات العربيـة تُرحِّـب بالتواجـد الفلسـطيني شـبه الرسـمي... لم يكـن ترحيبًـا فقط؛ لقـد اعتـبر أيُّ انتقـاد لهـذه الفصائـل نوعًـا مـن الخيانـة للقضيـة الفلسـطينية والخيانـة للأمَّـة العربيـة، وأصبحَـت القضيـة الفلسـطينية قضيَّـةَ العـرب الأولى في أيِّ محفَـلٍ دوليٍّ، وقـد كان توصيـف جـمال عبـد النـاصر للمقاومـة بأنهـا تُمثِّـل الأمـلَ دافِعًـا ومُحفِّـزًا على مسـاعدة تلـك التنظيـمات، وكان ظهـور النعـرة الطائفيـة والاهتـمام بمنشـأ المواطنـين لتحديـد الـولاء مثـارَ اسـتنكارٍ شـديدٍ لهـذا التَّوجُّـه، برغـم كُلِّ الأخطـاء التـي وقعـت مـن بعـض الفصائـل، والتـي كان مـن بينهـا -للأسـف- الفصائـل اليسـارية، أو المحسـوبة عـلى اليسـار، وبـدأت بعـض المشـكلات العنيفـة في الظهـور في الشـارع نتيجـةً لذلـك، وكمثـال عـلى ذلـك أحـداث شَـهِدتُها بنفسـي عندمـا كنـت مُسـافِرًا مـن سـوريا لـلأردن، وكان السـائق الـذي أجلـس بجـواره -مثـل كل السـائقين- يحمـل عَلَـمًا أردنيًّـا وصـورةً للملـك حسـين، وعَلَـمًا فلسـطينيًّا وصـورة لــ "أبـو عـمَّار". بخلاف السـائق، كنـت أتواجد في السـيارة مـع أربعـة مـن الشـباب الذيـن يتمتَّعـون بـروح الدُّعابـة، كانـوا ينتمـون للضفـة الغربيـة، وفي الطريـق -بعـد إربـد بقليـل- طُلِـبَ منَّـا أن نتَّجِـه شرقًـا عـن طريـق "الزَّرقـا"؛ لأن الطريـق مُغلَـقٌ، وهنـاك بعـض المشـاكل الأمنيـة، وعندمـا وصلنـا إلى مفـرق "الزَّرقـا" اسـتوقَفَتنا وحـدة مـن الجيـش الأردني؛ أخـذوا هويَّاتنـا جميعًـا، ولم يَتعرَّضـوا لي أو للسـائق الأردني بـشيء، لكنهـم أنزلـوا الشُّـبَّان الأربعـة، وأخـذوا يضربـون بعضَهـم ضربًـا مبرحًـا! اسـتمرَّ الـضرب نحـو سـاعة مـن الزمـان، عـادوا بعدهـا إلى السـيارة، كان منهـم اثنـان مجروحَـيْن، وكُلُّهـم يعانـون مـن الكثـير مـن الكدمـات، تبـيَّن أن مـا وقـع لهـم كان بسـبب أنهـم مـن مواليـد الضفـة الغربيـة! وبعـد أن كانـوا -طـوال الطريـق- يتضاحكـون، ويسـتعرضون ذكرياتهـم الطيبـة معًـا، راحـوا يتجادلـون سياسـيًّا، ويختلفـون مـع بعضهـم البعـض، ويتشـاتمون، وصـاروا أعـداءً فجـأة.

عمل جراحي

لم يكـن الدكتـور توفيـق يلـوم أحـدًا مـن شـباب مجموعتنـا عـلى تحرُّكاتهـم وعلاقاتهـم النسـائية، وكنـت أعـرف السـبب؛ فقـد كان عـلى علاقـة مـع أخصَّائيَّـة عـلاج طبيعـي مصريـة، وقـد خمَّنـتُ أنـه ربمـا يكـون مُتزوِّجًا بهـا في السـر، عُرفيًّا (ربمـا)، وربمـا كان يحـرص عـلى السريـة -رغـم انفصالـه عـن زوجتـه- حتـى لا يـؤذي مشـاعر ابنتيـه، اللتـين كانتـا في سِـنٍّ كبـيرة نسـبيًّا (25 سـنة أو أكـبر)، وقـد عَرَّفنـي بهـما في القاهـرة، وكان قـد اسـتطاع -بمسـاعدة د. سـعد فـؤاد- أن يُدبِّـر لهـا عَمـلًا في الأردن كأخصَّائيَّـة عـلاج طبيعـي في الفـترة التـي تـمَّ تكليفـه فيهـا بالعمـل في الأردن، وكان عملهـا في مجمـع المستشـفيات في "الأشرفيـة".

رغـم هـذا فإنـه لم يكـن يرتـاح كثـيرًا لجلسـات "طـق الحَنَـك" السياسـية التـي تَتـمُّ في مقـر البعثـة؛ حيـث أنـه لم يُحـبَّ التعامـل في السياسـة مثـل كل البيروقراطيـين.

تمكَّـن في هـذه الأثنـاء مـن أن يشـمل اتِّفاقُـه مـع وزيـر الصحـة الأردني أن يعمـل استشـاريَّ جراحـةٍ،

وفي الوقـت نفسـه كان قـد أعلـن للمقاومـة ولقيـادة الهـلال الأحمـر الفلسـطيني أن أطبـاء البعثـة المُكلَّفـين بمسـاندة الثـورة الفلسـطنية والفدائيـين لهـم قَـدَمٌ ووجـود في هـذا المستشـفى الحكومـي الكبـير.

كنـت -في أعماقـي- أشـعر بحنـين لممارسـة تَخصُّـصي أنـا أيضًـا، حتـى ولـو كان ذلـك في مستشـفى حكومـيٍّ أردنيٍّ تُعاديـه المقاومـة، لكنـه موجـودٌ في الواقـع، ولـه مكانتـه في البـلاد. وموقـع مستشـفى الأشرفيـة في "جبـل الأشرفيـة"، حيـث المعقـل الرئيـسي للفدائيـين، خاصَّـةً حركـة فتـح، وكان مـا تَوقَّعـتُ؛ إذ أقنـع الدكتـور توفيـق المسـؤولين بـأن أعمـل معـه مُسـاعِدَ جـرَّاح بالمستشـفى. كـما ظللـتُ أشـارك الشـباب في عملياتهـم الليليـة ضـد العـدوِّ.

عرفات.. لقاء أوَّل

في عمَّان التقيت الكثير من الشخصيات المشاركة في الأعمال النضالية، لكن أبرز من التقيتهم، وتعرَّفت إليهم، وكان لي شرف التعامُل معهم هو الزعيم الراحل ياسر عرفات، الذي كنت قد قابلته عدَّة مرَّاتٍ خلال اجتماعاتٍ لحركة فتح، كان يأخذني محجوب إليها معه، وذات يومٍ وجدتُ محجوب يطلب مني أن أزور ياسر عرفات في منزله! قال لي: "أبو عرفات يرغب في رؤيتك"، فاندهشت؛ حيث لم يكن هناك سبب واضح بالنسبة لي يدعو الرجل لطلب مقابلتي، فسألته عن السبب، فقال لي: "يا سيدي الراجل مريض، وطلب مني أكشف عليه وأنا قُلتله أنا مناضل.. مش دكتور.. وضحكنا شويَّة، ورشَّحتك له... في الحقيقة مش هوَّ اللي عاوز يكشف.. اللي صمِّم إنه يكشف همَّا الشباب اللي معانا، بينما هوَّ بيقول إنهم شوية برد وهيروحوا"... ثمَّن الحاضرون وقتها هذا الترشيح من محجوب، حيث كان بعضهم يعرفني، وكنت قد اكتسبتُ سُمعَةً طِبِّيَّةً جيِّدة (لا أعرف مَصدَرَها). سألته عن العنوان، فوصفه لي.

في الطريق إلى منزل "أبو عمَّار" كان يدور في ذهني تصوُّرٌ تكوَّن في ذهني جرَّاء ما كنت أسمعه عنه من أنه يعيش حياةً فاخرة، ويسكن في مكانٍ سريٍّ، لكن عندما وصلت إلى العنوان الذي وصفه لي محجوب وجدته يَقطُنُ بنايةً عاديَّةً، ووجدتُ بعضَ الشباب يرتدون ملابسَ عاديَّةً أمام البناية، كان واضِحًا أنهم من حراسه الشخصيين، وكان بعضهم يَعرفني، فرحَّبوا بي، ووصفوا لي مكان شقَّة الرجل (كانوا يلقِّبونه بالخِتْيار [وهي كلمة شاميَّة تعني: كبير السِّن])، كانت الشقة تقع في الطابق الأوَّل من البناية، إلى يسار السلَّم. صعدت إليها، ودَقَقتُ الجَرَس، ففوجئت بعرفات بنفسه يفتح لي الباب! رحَّب بي بحفاوة بالغة، وقام باحتضاني. لم يكن هناك أحدٌ سواه بالصالة، التي كانت فقيرة الأثاث بشكل واضح، حيث لم يكن هناك سوى كُرسيَّيْن أو ثلاثة. قادني "أبو عمَّار" إلى غرفته، فوجَدتُ سريرًا "سِفَري" (وهو فِراشٌ بدائيٌّ جدًّا يُستَخدم في القوَّات المُسلَّحة)، وأمامه طاولة عليها بعض الأوراق، وكرسيًّا وحيدًا. سألته عن الشكوى التي يعانيها فقال إنه يشعر بألمٍ في حَلْقِه، وأن حَرارتَه -كما قال له الشباب- أكثر من 38 درجة، فطلبتُ منه أن أفحصه، فأقسم ألَّا أفعل إلَّا بعد أن يُقدِّم لي واجب الضيافة، وعرض عليَّ

أن يقـدم لي الشـاي، كنـت متحرِّجًـا جـدًّا، حيـث أحسسـت بأنـه وحيـد بالمنـزل، وبالتالي سـيقوم هـو بنفسـه بصنـع الشـاي، لكننـي وافقـت بعـد إلحـاح منـه. قـام بالذهـاب إلى المطبـخ وأنـا أتبعـه وهـو يطلـب منـي أن أبقـى وألّا أُتعِـبَ حـالي، ودخلـت وراءه إلى المطبـخ، فوجدتـه مطبخًـا بدائيًّـا جـدًّا، وبـدأ الرجـل يشـعل "وابـور الجـاز" ليصنـع لنـا الشـاي عـلى نـاره، حاوَلـتُ مُسـاعَدَتَه فرفـض، وعاتبنـي قائـلًا: "يـا دكتـور.. انـت تعـرف إن إكـرام الضيـف شَرَف...".

طـوال وجـودي في منزلـه المتواضـع ذلـك ظَلَلـتُ أفكِّـر فيـما كان يُشـاع عـن الفنادق الفاخـرة والأثـاث المسـتورد، بينـما كان الرجـل في الواقـع يرفـض حتـى مُجـرَّد أن يُبقـيَ مَعـه شـابًّا لِخدمَتِـه!

العَملُ الطِّبِّيُّ العَسكريُّ في عَمَّان

كنَّـا نذهـب في عمليـات عسـكرية ونحـن في قافلـة المسـاندة الطبيـة، في سـيارة إسـعاف، وكُنَّـا مُسـلَّحين. كانـت بدايـات المعـارك تمثِّـل انطـلاق عملنـا نحـن أيضًـا، حيـث نبـدأ في تلقِّـي حـالات الجرحـى. وكنَّـا نُجـري للجرحـى الإسـعافات الأوليـة في الموقـع، ثـم ننقلهـم إلى المستشـفيات لاسـتكمال العـلاج، خاصَّـةً بعـد أن وضـع الدكتـور توفيـق صـورةً واضحـة للعلاقـة معهـم، وأصبـح الوضـع رسـميًّا؛ وكان -فيـما قبـل- يعتمـد عـلى سـلطة الفدائيـين.

وبالرغـم مـن مشـاركتي المنتظمـة في العمليـات -وفيهـا مـا فيهـا مـن الخطـورة بالطبـع- كنـت أشـعر دائمًـا -في أعماقـي- أن دورنـا ينقصـه الكثـير...

السؤال القديم الجديد

هل عملنا هذا يساعد على تحرير فلسطين؟

كان هـذا السـؤال يـتردَّد عـلى ذهنـي طـوال الوقـت. كنـت أفكِّـر كثـيراً عندمـا أخلـو لنفـسي: مـاذا نفعـل؟ وهـل هذا هـو الطريـق لتحرير فلسـطين؟ لقـد تَطوَّعـتُ بالقوات المسـلحة أثنـاء حـرب 67، وكان الشـعار المرفـوع وقتَهـا "سـندخُلُ تـل أبيـب"، وكان هذا

مُحتَمَلًا؛ إذ كان جيشنا هو الأقوى، وكُنَّا ساعَتَها نثق ثقةً عمياءَ في القائد ناصر، لكن حَدَثَت الكارِثة، بعدها تحدَّث عبد الناصر في خُطَبِه عن حرب الاستنزاف، وأن "ما أُخِذَ بالقُوَّة لا يُستَرَدُّ بغير القُوَّة"، وتناول العملَ الفدائيَّ والمُقاوَمة، قائلًا إنه يثق في أنها سيكون لها دورٌ كبير في معركة النصر، وصدَّقناه مرَّةً أخرى، وتَطوَّعنا للعمل مع المقاومة... ولكن أيَّة مقاومة تلك التي سوف تُحرِّر فلسطين؟ هل إطلاقُ بعض الرَّشَّاشات على الحدود (وفي بعض الأحيان مدفعية يرُدُّ عليها العدوُّ بأضعافٍ مُضاعَفَة لِما نُطلِقُه نحن) يمكن اعتباره مقاومة حقيقية؟! إن حَربَ الاستنزاف، هناك، على الجبهة المصرية هي ما يمكن تسميتها بالمقاومة الحقيقية بالفعل، فبالرغم من خسائرنا فيها -من الجنود وأهالي منطقة القناة- إلَّا أنها بالفعل أصابتهم بالقلق؛ فالهجمات المصرية كانت مُؤثِّرَة وعنيفة، وكان الجيش الإسرائيليُّ يضطرُّ إلى استدعاء الاحتياطي طوال الوقت، واقتصاد إسرائيل لا يَحتَمِلُ ذلك، في الوقت الذي كانت الجبهة المصرية فيه مُتماسِكَةً، والجنود سعداء بأيِّ معركةٍ يشعرون من خلالها أن الثأر قريب، وأن استرداد الأرض أصبح مُخطَّطًا له. وكان نجاح عملية تهجير أهالي القناة ونقلهم إلى أماكن أكثر أمانًا قد أعطى العدوَّ إنذارًا بأن المعركة الكبرى باتت وَشيكةً... هل يجب أن نعود ونشارك في حرب الاستنزاف أم ماذا؟ هل نحن حقل تجارب؟ كان هذا ما يحدث على الجبهة المصرية، أمَّا على الجبهة الأردنية فقد كانت العمليات تقتصر على هجمات محدودة الأثر، يُرَدُّ عليها بعنف من الجانب الآخر، وإن كان التَّصوُّر أن هذه العمليات قد تُقلِقُ العَدوَّ فأنا لم أتصور أنه مُنزَعِجٌ بالقدر الكبير المؤثِّر في نتائج الحرب.

كنت أشعر أن عمل الفصائل السياسي له أهميَّة أكبر لتجنيد الشباب الفلسطيني لكي يكونوا أداةَ المقاومة بالفعل، خاصَّةً إذا أمكن تحويلها إلى داخل فلسطين المحتلة، ولكن ما كان يحدث في الواقع لم يكن في الطريق الصحيح -من وجهة نظري- فقد كانت التحرُّكات تبدو وكأنَّ السُّلطة الفلسطينية تريد الاستيلاء على السلطة في الأردن!

علاقتي بالدكتور توفيق

كان د. توفيق يُعمِّق علاقته بي، رغم وجودي في الجنوب بعد ذلك، وقد كنت الأقرب له بالفعل من بين أطباء الاتحاد. كان يعلم بالعلاقة التي نشأت بيني وبين مساعدة مديرة التمريض في مستشفى الأشرفية أثناء عملي بالمستشفى كمساعد أخصائي، وكنتُ أُكلَّف بمُناوَبات بسبب العجز في أعداد الأطباء النُّوَّاب، نشأت هذه العلاقة بمبادَرَةٍ منها هي، وبتشجيع من محمد توفيق نفسه (ومن محجوب فيما بعد)، وكانت هي -في نفس الوقت- المُشرِفَةَ على سَكَنِ التَّمريض في عَمَّان، الذي تقيم به صديقة د. توفيق (أو زوجته، لست متأكِّدًا، ولا يعنيني الأمر). كان د. توفيق يستغلُّ علاقتي بمساعدة رئيسة التمريض، والمشرفة على سكن الممرِّضات في إعطاء تصاريح خروج، وأيضًا مبيت خارج منزل التمريض... وكانت هذه القضية مُهمَّة جدًّا له، وتكاد تكون أهمَّ من القضية الفلسطينية نفسها، وهذا يُفسِّر كثيرًا من تصرُّفاته وتَمَسُّكه بعلاقة قوية معي؛ إذ يسهِّل هذا حركَةَ صديقَتِه، ولم أُبْدِ اعتراضي على حضورها إلى السكن والمبيت فيه في بعض الأيام؛ على أساس المعامَلَة بالمثل لجميع الأطباء، وكان توفيق يعرف بأن اعتراضي قد يكون معناه اعتراض كلِّ شباب البعثة؛ بسبب علاقتي المتميِّزة مع الجميع، خاصَّةً الأطباء الجُدُد، الذين يعتبرونني مَرجعيَّةً لهم، وقد أبلَغتُهم جميعًا بمسألة المُعامَلَة بالمِثْل، وكانوا سعداء بهذا الاتفاق، حتى أن أحد الأطباء الجُدُد من المتفتِّحين كان يُحضِرُ صديقَتَه من إربد لتبيتَ معه.

وكنت في فترة عملي بالجنوب لا أحضر إلى عمَّان إلَّا قليلًا، ولم يكن الاتحاد يعنيني إلَّا إداريًّا في العلاقة مع القاهرة، وفي مَدِّ فترة عملي بالأردن؛ لِتَمسُّكِ القيادة الفلسطينية بي، وكذا قيادة الاتحاد، واقتناعي بأنَّ لي عَملًا يستحقُّ البقاء من أجله، وكانت زياراتي لعمَّان غير مُحدَّدَة الوقت.

فتح أم الجبهة الشعبية

كنت في البداية مستاءً من تكليفي للعمل مع فتح وليس الجبهة الشعبية، ولكن بمرور الوقت، وملاحظة ما يجري على الساحة، والطفولية اليسارية التي رأيتها، والعمل مع محجوب، ومناقشة هذه القضية وغيرها- كُلُّ هذا جعلني أكثر رضا بالعمل مع فتح، رغم أن هذا التوزيع لا يَدَ لنا فيه، وكنت في أحد الأيام قد قابَلتُ چورچ حبش -قائد تنظيم الجبهة الشعبية- أثناء إحدى زياراته لـ "أبو عاصم" عندما كُنَّا جيرانًا للمخابرات، وكان ينتظر دوره في اللقاء في مكتب اتحاد الأطباء كما يفعل الجميع، وكُنَّا نعمل سويًّا -من قبل- في تنظيم القوميين العرب عندما كان يَدرُس الطب في القاهرة، ولامَني برفقٍ على عملي مع فتح، فأَفْهَمتُه أنَّ الاختيار حَقٌّ من حقوق الهلال الأحمر الفلسطيني.

ولِأُقَرِّبَ الصورة عن الجبهة الشعبية أذكر هذا الموقف: كان "المشد" يذهب إلى المخيَّمات في لقاءات الجبهة بأعضائها؛ ليعطيهم محاضرات في الماركسية، وفي إحدى المرَّات حضرت معه لأستمع، فوجدته قد وصل إلى أقصى مدى من التطرُّف الفكري؛ إذ اتهم الجميع -عدا أعضاء الجبهة- بالرجعية، حتى وصل به الحال إلى أن اتهم "ماوتسي تونج" نفسه بهذا الاتهام العجيب! محمد المشد كان من عائلة أزهرية، وكان مُتقلِّبَ الفكر من النقيض للنقيض: يتحدَّث عن الماركسية، وفي اليوم التالي يتكلَّم كأنه شيخ أزهري، لا ينقصه سوى العمامة... وبرغم حبي له على المستوى الشخصي إلَّا أنني اكتشفتُ أنه لا يفهم الماركسية، وأنها مجرَّد طفولة يسارية، رغم أن تَشنُّجَه، واتهاماته التي وزَّعها على الجميع -عدا أعضاء الجبهة- أوحت إليَّ أن العالم خلا من الماركسيين والتَقدُّميين، فيما عداه!

من بين الذين كال لهم الاتهامات بالرجعية: الدكتور عبد الغفار خلَّاف، سكرتير اتحاد الأطباء المصريين، وصاحب فكرة إرسال متطوِّعين من الأطبَّاء لمساندة الفدائيين في الأردن، وكان عضوًا قياديًّا في التنظيم الشيوعي المصري! وكان دليله في ذلك أن الرجل كان مَحبوبًا جدًّا من الجميع، وبما أن الرجعيين يُحبُّونه؛ فلا بُدَّ أن يكون رجعيًّا! إلى هذا المدى كان الحماس يَصِلُ بالبعض إلى حَدِّ المغالَطَة، والتَّوهُّم، والتَّطرُّف.

"هوجة" عَمّان ومستَشفى الطّوارئ

كانـت عـمَّان حُبـلَى بالثـورة في تلـك الأيـام... هـذا مـا كان يـتردَّد بـين المراقبـين والمُعلِّقـين والمُحلِّلـين، وحتَّـى في جلسـات "طـق الحَنَـك"، كان هــذا الـكلام شـائعًا، لكنني في الواقع كان لـديَّ تصوُّر آخـر؛ فبالتسـليم بـأنَّ عـمَّان كانـت حبـلى بالفعـل؛ فـما الـذي يضمـن أن جنينهـا هـو الثَّـورة؟

أظنُّ أن تسميتها بـ "الهوجة" أقرب الى الدِّقَّة!

وعـلى أيـة حـال: كانـت هـذه قناعـاتي في ذلـك الوقـت؛ فلـم تكـن أوضاع الأردن عاديَّـةً مـن حيـث طبيعـة السُّـلطة، التـي كانـت تتقاسَـمُها الحكومـة والقـصر الملـكي مـن ناحيـة، وجماعـات الفدائيـين مـن ناحيـة أخـرى.

كان البعـض مـن مُتطـرِّفي الجانـب الفلسـطيني يـرى أنـه يجـب أن تكـون السُّـلطَة في أيـدي الفدائيـين وحدهـم، لا أن تتـوزَّع بينهـم والسـلطة الرسـمية كـما هـو حـادث. وعـلى الجانـب الآخـر كان هنـاك مَـن يـرى أن السُّـلطَة الرسـمية عاجِـزَة عـن تحجيـم الفدائيـين. جماعـة ثالثـة كانـت تـرى أن السـلطة الأردينـة لم تكـن عاجـزة؛ إنمـا أرادت توريطهـم...

هل كان صحيحًا ما نراه إذ ذاك؟

تَوازُن الرُّعب!

أتذكـر هنـا حادثـة تُعـبِّر عـن الجَـوِّ السـائد في عـمَّان وقتهـا: التَّوتـر، وانتشـار السـلاح، مـع تَـوازُن الخـوف... في هـذه المرحلـة كنـت أذهـب للأشرفيَّـة يوميًّـا، حيـث المستشـفى ومركـز قيـادة فتـح، وكنـت أسـتخدم التاكـسي في تَحـرُّكاتي، كانـت التعريفـة المعروفـة لهـذا المشـوار هـي عـشرة فِلسـات، وفي أحـد الأيـام اسـتوقفتُ سـيارة تاكـسي، ركبـت كعـادتي بجـوار السـائق، وطلبـت منـه الذهـاب للأشرفيـة، كنـت أرتـدي ملابـس مَدَنيَّـة عاديَّـة، فوجئـت بـه في منتصـف الطريـق يخـبرني أن الرحلـة سـتُكلِّفني نصـف دينـار، أي خمسـين فِلسًـا، فسـألته هـل تغـيَّرَت التعريفـة؟ وطلبـت منـه رؤيـة التَّعريفة الجديـدة، فقـام برفـع جريـدة عـن الفاصـل الـذي بيننـا، ورأيـت رشَّـاش كلاشـينكوف،

فقلت له: "ماشي"، وكان سلاحي أيَّامَها مُسدَّسًا صغيرَ الحجم، ولكن له خزانة تحمل عددًا كبيراً من الطلقات "9 مِلِّي" (الكل كان يحمل سلاحًا)... وعندما وصلنا إلى المستشفى وضعت يدي في جيبي لإخراج النقود، وتعمَّدتُ أن يكون المُسدَّسُ ظاهِرًا للرَّجُل، وبدون مناقشة أعطيتُه العَشرة فِلسات وأنا أقول: "أصل أنا ماشي على التَّعريفَة القديمة"، فأخذ النقود وشَكَرني قائِلًا: "طيِّب مش كنت تقول من الأوَّل؟"، ولم نتبادل أي حديث سوى ذلك... كان تَوازُن القوى وتوازُن الخوف هو السَّبَب في الهدوء الذي يَعُمُّ عمَّان، غير أنه في الوقت ذاته كان يَشي بانفجارٍ وشيكٍ، سيقع في أيٍّ وقت.

كان الجميع مُقتَنعين -كُلٌّ بطريقته- بمقولة عبد الناصر أن الفدائيِّين يُمثِّلون "الأمل"، ويُمثِّلون الشُّعلَة التي تُناضِل وتُحارِب. وكان الكُلُّ -من جميع اتجاهات اليمين واليسار- يُدعِّمون ويدفعون حركة الفدائيين إلى الأمام، ويرون أنَّ من الخيانة إيقافَ الفدائيين عن القيام بدورهم في محاربة العدو الإسرائيلي.

وهكذا؛ كنت وزملائي من الأطباء المصريين -من اتجاهات مُتبايِنَة- في الأردن نقوم بهذا الدور، كنَّا بالنهار نلبس للنِّضال لباسه، وكان كُلٌّ مِنَّا يحتفظ بسُترةٍ يلبسها فوق ملابسه العادية، أو يُغيِّر كُلَّ ملابسه؛ ليس مهمًّا! وكان المهم أن يأتي كلٌّ منَّا إلى مقرِّ البعثة لينام في سريره!

وبين هذا وذاك تكون جلسات "طقِّ الحَنَك"، واللقاءات مع العديد من القيادات الفلسطينية وبعض الصحفيين والمُفكِّرين أحيانًا، ودائمًا سهرات الشراب ومقابلة النساء والمغامرات معهنَّ! كانت عمَّان مُزدَحِمَة بالجميع.

كانت عمَّان في هذه الفترة تموج بالأحداث، وكان أحد المُحرِّكين الكبار لهذه الأحداث هو مكتب "أبو عاصم"، الملاصق لمقرِّ البعثة، وكنَّا على صِلَةٍ بكل ما يحدث بشكل يوميٍّ.

أخَذَت الخلافات بين فصائل المقاومة والسلطة الأردنية تزداد عمقًا؛ خاصة عندما بدأت القوى اليسارية في داخل حركات المقاومة ترفع شعارات ماركسية في الشوراع وتُحَوِّرها إلى صالح الفدائيين. هذا ما فعلته حركة چورچ حبش وحركة نايف حواتمة اللتين رفعتا شعار "لا سلطة إلا سُلطَة المقاومة". كان هذا تَحدِّيًا سافرًا من المقاومة للسلطة الأردنية؛ حتى أصبح كثير من رجال السلطة الأردنية

يخشـون عـلى أنفسـهم مـن الخـروج ليـلًا. كانـت هنـاك نقـاط تفتيـش خاضِعَـةً للجيـش الأردني، وفي مقابـل هـذا -في مناطـق أخـرى- كانـت هنـاك نقـاط تفتيـش خاضعـة للفدائيـين! كان التفتيـش عـلى الهويَّـات، وكان معظـم الرجـال مسـلَّحين، حتـى مَـن ليسـت لهـم علاقـة بالسياسـة. ولم تكـن سـلطة الدولـة هـي المهيمنـة. وكان يلـزم -دائمًـا- أن توضـع سُـلطَة الفدائيـين في الاعتبـار.

وفي أحـد الأيـام انفجـر الوضـع بالفعـل؛ لأن السـلاح في يـد الجميـع، وعـمَّان -بجبالها السـبعة- تنـوء بالفقـراء، وفي الوقـت نفسـه؛ كان هنـاك الأغنيـاء ذَوي الغِنَـى الفاحـش. ولأن الفقـراء يملكـون السـلاح؛ بعـد أن كان توزيعـه عشـوائيًّا لـكلِّ مَـن يمـلأ اسـتمارة لأيٍّ حركـة مـن حـركات الفدائيـين التـي كانـت تتنافـس عـلى عضويـة الجميـع؛ خـرج المُسـلَّحون في أحـد أيـام فبرايـر سـنة 70 إلى الشـوارع، فيـما أطلَقـتُ عليـه: "هوجـة عـمَّان"، ذهبـوا إلى بيـوت الأغنيـاء، وراحـوا يكسـرون أبوابهـا ونوافذهـا، ويطلقـون الرصـاص عشـوائيًّا في الشـوارع. وكانـت الإصابـات عديـدة.

ذهبـتُ أنـا والدكتـور توفيـق إلى مستشـفى الطـوارئ الـذي كان مستشـفى النسـاء والتوليـد مـن قبـل -في شـارع السـلط- وأقمنـا هنـاك نحـو خمسـة أيـام غـير قادريـن عـلى مغادرتـه؛ لكـثرة الحـالات التـي تَـرِدُ للمستشـفى مـن ناحيـة، ولخطـورة الوضـع في الشـوارع، وتعـذُّر العـودة مـن ناحيـة أخـرى، وكانـت معظـم الحـالات إصابـاتٍ طفيفـةً مـن طلقـات رصـاص. لم تكـن تلـك التحـرُّكات مُنظَّمَـةً، وليـس لهـا قيـادة لتوجيههـا، ولم يكـن لهـا أهـداف واضحـة غـير التَّذمُّـر، وشـعورهم بالقـوة بسـبب وجـود سـلاح في أيديهـم. كانـت معظـم الإصابـات عشـوائية، وحدثـت إصابـات كثـيرة لبعـض السـيارات الموجـودة في الشـارع، دون تمييـز، حتـى تحوَّلَـت بعـض سـيارات الأصدقـاء المناصريـن للعمـل الفـدائي -وكذلـك بعـض الأطبـاء- إلى مـا يشـبه "المَنخُـل" مـن كـثرة الخـروم في هياكلهـا، بعـض السَّـيَّارات كانـت أعطالُهـا كبـيرةً، وبعضهـا لم يتـضرَّر بمـا يمنـع مـن اسـتعمالها؛ حيـث أن إصاباتهـا كانـت سـطحيَّة.

النِّضال -بالتأكيد- ليس ما نفعله، وإن لم يلُمْنَا عليه أحد.

وكان شـوقي دائمًـا يُـردِّد -بسـخريته المعهـودة، التـي لا تخلـو مـن حكمـة- أننـا نعيـش مسرحيـة هزليَّـة!

أوّلُ الشهداء من الأطباء المصريّين

حرصت على كتابة اسم مصر على الإكليل، أَردتُها رسالةً تقول إن المصريين موجودون، ويُضَحُّون بحياتهم في سبيل فلسطين وثورتها؛ حتى لا يختلط الأمر على الناس؛ فلقد كانت كل الجنازات التي تُقام لفدائيين فلسطينيين، ووافقني رئيس البعثة وبقيَّة الزُّملاء...

كُنَّا في مقرِّ البعثة ليلًا، رنَّ جرس التليفون، كنتُ أقربَ الموجودين إليه، رفعتُ السَّمَّاعة؛ فكُنتُ أوَّلَ مَن تلقَّى الخبر الصاعق: عبد الرحمن عودة سقط شهيدًا. خيَّم الحزن على المكان، وانفجر البكاء من القلوب، وارتبك الجميع...

استعدتُ هدوئي غير الطبيعي الذي يحلُّ عليَّ عادَةً في أوقات الأزمات، سَحبتُ ورقةً فوق المكتب، وأخذت أكتب عليها الترتيبات والإجراءات التي يجب عملها في هذا الموقف؛ مثل: إبلاغ السفير المصري، ووزير الصحة في القاهرة، وإعلان الصحف، وموعد الجنازة، وحجز الطائرة، وإكليل الزهور، واسم مُرافِق الجثمان إلى القاهرة. أعطيت الورقة لرئيس البعثة، فمَسَحَ بَلَلَ عينَيْه، ونظر فيها، ثم قال: لهذا أحبُّكَ، وأحب أن تكون بجانبي؛ لأن تفكيرك مُنظَّم، وتكون مُتماسِكًا في المواقف الصعبة وأوقات الشدائد.

في جلسة طَقِّ الحَنَك المسائية، دار الحديث كرَجْم الغَيب.

قلت:

- عودة مات!
- كُلُّنا مُعَرَّضون للموت.
- بس هُوَّ مات في موقع من مواقع النضال اللي جينا عشانه.
- هو مات في إربد بالليل في الطريق.
- واحنا هنا بنشرب ويسكي ونقابل أصدقاء ونطُقّ حَنَك...
- انت تعرف الحكاية الحقيقية؟
- مش مهم...

- عـودة مـا كانـش بيعـرف يسـوق، واتّفـق مـع السـوّاق يِعلّمـه السّـواقة، وانقلبـت بيـه العربيّـة.
- ولو... أيًّا كان... لا بُدّ من وقفة.

وسَكَتَ الجميع بعد أن قال شوقي -أكثر الموجودين سخرية وتهكُّمًا-:

- عبـد الرحمـن عـودة مـات في عمليـة... عنـد الهبـوط مـن الجبل أشعل السـائق ضـوء السـيارة؛ فاصطـاده الإسرائيليـون بالهاوزر.

كانـت وفـاة عبـد الرحمـن عـودة نقطـة حسَّاسـة عـلى الطريـق؛ فقـد بـدأ زمـلاؤه مـن مجموعـة اليمـين في رفـع أصواتهـم، مُزايديـن بأنّـه جـاء مثـل بقيـة المجموعـة للنضـال الحقيقـي، وأنـه استشـهد في قِتـالٍ مـع العـدو الإسرائيـلي. ولم يسـتطع أحـدٌ أن يجـزم بكيفيـة استشـهاد عـودة! لكـن مجموعـة اليسـار في عـمّان راحـت تتقـصّى أخبـار المجموعـة الأخـرى. علمـوا أنهـم في إربـد أجَّـروا بيتًـا فاخـرًا تدفـع إيجـارَه مُنظَّمـةُ فتح، وجـاءت الأخبـار بأنهـم كانـوا يقضـون الليـالي المـلاح؛ يسـمعون الموسـيقي ويغنُّـون وينشـدون، وكوَّنـوا مجموعـة أحبَّـاء أم كلثـوم وعبـد الوهـاب. لا أدري لمـاذا كنـت أحـسُّ أن تأثـير وفـاة عبـد الرحمـن عـودة عـليَّ كان أكـثر مـن تأثـيره عـلى الآخريـن. وعـلى أيـة حـال؛ تحرَّكَـت الأحـداث بعـد ذلـك، وعـاد كثـيرون إلى القاهـرة؛ بعـد أن طلَبَـت الحكومَـةُ عَودَتَهـم.

وعبـد الرحمـن كان ينتمـي لعائلـة "عـودة" صاحبـة التاريـخ السـياسيِّ والاجتماعـيِّ ذي التَّوجُّـه الإسـلامي (مـن أشـهر أبنائهـا: عبـد القـادر عـودة)، ولهـم شـهرة كبـيرة في الدقهليـة، خاصـة في مجـال العموديَّـة.

وقـد بـدأ عبـد الرحمـن حياتـه الدراسـية في مدرسـة القريـة الابتدائيـة، ثـم أكمـل دراسـته في مدرسـة شربـين، والّتـي سُـمِّيَت باسـمه بعـد استشـهاده، وكان مـن المُتفوِّقين؛ فالتحـق بكليـة الطـب جامعـة القاهـرة في سِـنٍّ صغـيرة، وقـد تخـرَّج فيهـا، وحصـل على البكالوريـوس عـام 65، وكان عمـره 22 سـنة، ثـم حصـل عـلى دبلـوم الجراحـة العامـة عـام 68، ثـم تَطـوَّع في صفـوف الفدائيـين منـذ 1969/8/13، واستشـهد في 1969/9/4.

التحـق الكثـير مـن عائلـة عـودة بتنظيـم الإخـوان المسـلمين؛ ولذلـك تَبنَّـت جماعـةُ الإخـوان الشَّـهيدَ، واعتَبَرتـه الشَّـهيدَ الثّـاني للإخـوان -بعـد عبـد القـادر عـودة مـن نفس

العائلة- وخرجت اللافتات تتحدَّث عن عبد الرحمن عودة شهيد الإخوان وحركة فتح، رغم أننا لا نعرف إذا كان قد التحق تنظيميًّا بالإخوان أم لا، ونُشِرَت حكايات كثيرة عن قضيَّة العزاء، وكيف رفض الأمنُ في البداية -مثل حالة عبد القادر عودة- إقامة عزاء له، ولكن تمَّت الموافقة بعد ضغط العائلة... والحقيقة -التي شاركتُ فيها- أنه في اتصالنا بمصر تمَّ ترتيب جنازة عسكرية بمشارَكَةٍ رمزيَّةٍ من الفدائيين، تبدأ من المطار.

محجوب عمر ونقطة التحوُّل

يومًا ما، انتحيتُ بالدكتور محجوب جانبًا عندما كان في إحدى زياراته لعمَّان يوم جمعة، قلت له:

- أريد أن أتحدَّث معك... بصراحة أنا مقتنع بك وبتصرُّفاتك! ليتك تنصحني بالرأي الصائب حول حقيقة الأوضاع وما يحدث حولنا؛ فأنا لست مقتنعًا بما نفعله هنا، ولا بالمسؤولين في الهلال الأحمر. أرجو أن تحدِّثَني بصراحة!
- لماذا لستَ مُقتنعًا بهم (يقصد المسؤولين في الهلال الاحمر)؟
- لأنهم انتهازيُّون يُزايِدون بالشعارات الثَّوريَّة، ويهتمُّون بمظاهر العمل الثوري، ولا يمارسونه؛ فلهم مُخطَّطاتهم الخاصَّة، وصراعاتهم شديدة فيما بينهم؛ من أجل الوصول إلى المناصب وتحقيق مصالحهم. وكما يُجمع الشبابُ التَّقدُّميُّون: السبب في كل هذا يرجع إلى كونهم يمينيِّين...

وفتح الدكتور محجوب قلبه قائِلًا:

- أنا معك... لا يعجبني جماعة الهلال الأحمر، لكن ليس لأنهم يمينيُّون، أو لأنهم ليسوا يساريِّين أو تقدميين؛ بل لأنهم "بهوات"، لا يعرفون شيئًا عن مُعاناة الناس في المغارات، ولا يعرفون كيف يعيش المقاتلون في المناطق البعيدة. ولأنهم "بهوات" يصعُبُ عليهم السفر إلى هذه المناطق.
- وماذا بعد؟!
- أنا نفسي لي مشاكلي معهم، وأحسُّ أنهم لا يحبُّونني. هل تريد أن تحاربهم؟!

- لستُ قادِرًا على أن أحاربهم!
- بل قادر!
- كيف؟!
- تعـال إلى الجنـوب، وابـق معـي هنـاك. أنـا دون أن أحاربهـم يشـعرون أننـي أهزمهـم. هـم لا يحبُّوننـي؛ لأننـي بعيـدٌ عـن مُتنـاوَلِ أيديهـم؛ فبُعْـدُ المـكان وطبيعتـه الوعـرة يجعلانهـم غـير قادريـن عـلى السـيطرة عليـه، أو حتـى محاولـة زيارتـه، وكل مـا يفعلونـه هـو أنهـم -مـن حـين لآخـر- يرسـلون لي أُناسًـا ليعملـوا معـي أو يشـاركوني العمـل، لكـن هـؤلاء لا يسـتطيعون البقـاء في هـذه الظـروف.

وحدَّق في عيني متسائِلًا:

- مُستَعِدّ؟
- أنا جاهز!
- متى؟
- من الغد!

أَحسستُ أنه لم يقتنع بكلامي، وأن ما قلته مُجرَّد "طق حَنَك"، كما اعتاد.

وسافر الدكتور محجوب...

عـاد شـوقي إلى القاهـرة في منتصـف ديسـمبر 1969 عـودة نهائيـة؛ ليعمـل في مستشـفى الأمـراض العقليـة في العباسـية. افتقـدتُ وجـودَه معـي، وافتقـدت لقاءاتنـا المسـائية. لم أَحْـظَ بوجـوده معـي في عـمَّان سـوى ثلاثـة أشـهر فقـط، واسـتمرَّت علاقتي بصديقتـه، وصديقتهـا التـي أصبَحَـت صديقتـي، وكانـت مشـاعري تجاههـا تنمـو في اتجـاهٍ إيجـابيٍّ، وفوجِئـتُ بهـا يومًـا وقـد خلَعَـت خاتـم الخطوبـة، أخبرتنـي أنهـا فسـخت الخطبـة بالفعـل... هنـا أحسسـتُ أن كلينـا قـد تحـرَّرَ مـن قَيـدِ ارتباطهـا برجُـلٍ آخـر، وانطلَقَـت عواطفـي تجاهَهـا دون أيَّـةِ عوائِـقَ.

وبعـد شـهر ونصـف الشـهر مـن معرفتـي بهـا، لم تَكَـد علاقتنـا تتأكَّـد حتـى شَـددتُ الرِّحـال إلى الجنـوب...

توجَّهـتُ إلى الهـلال الأحمـر الفلسـطيني، وطلبـتُ مـن القيـادة أن أذهـب إلى "الطُّفيلـة". أصابتهـم الدهشـة؛ لأنهـم كانـوا يجـدون صعوبـاتٍ شـديدةً في أن يَقبَـلَ أحـدُ الأطبـاء -حتـى الفلسـطينيين، أو الفئـات المعاونـة مثـل اتحـاد الأطبـاء العـرب- بالذهـاب إلى مـكان كالطفيلـة. رحَّبـوا؛ وهـم متأكِّـدون مـن أننـي سـأعود، مثـل غـيري ممَّـن سـبقوني، ولم يحتملـوا البقـاء هنـاك.

وفَّروا لي سيارة، وحملتُ حقيبتي، واتَّجهت إلى الطفيلة.

كنـت طـوال الطريـق أُفكِّـر فيـما ذكـره لي الدكتـور محجـوب عـن ماوتـسي تونـج، القائـد الشـيوعي الصينـي، قـال إنـه عندمـا سُـئِل: كيـف سيسـتطيع تحريـر الصـين -وكان في بكِّـين، وسـيطرة الحكومـة شـديدة عليهـا- ردَّ بأنـه سيسـيطر عـلى بكِّـين مـن الريـف الصينـي!

الفصل الثاني
جنوب الأردن

قبل سفري لجنوب الأردن حدثت بعض التَّغييرات في الاتحاد، ولاحَظتُ فيها تَدخُّلات من محمد توفيق، فمَثَلًا طلب من اللجنة التي تختار الأطبَّاء أن تتَجَنَّب أصحاب التوجُّهات السياسيَّة؛ لتَجنُّب الصراع -والصُّداع-، وفعلًا كان معظم الأطباء الجُدُد ليس لهم أيَّة عقيدة سياسية، ومعظمهم كان مُتفتِّحًا، أذكر واحدًا منهم كان يُسمَّى "عزَّت"، كان ضئيل الحجم، قصير القامة، ذا صوت رفيع حاد (مسرسع)، كانت لديه "لازمة" يردِّدها دائمًا: "أنا مش جاي هنا أَتْبَرْوِز"! في إشارة إلى صورة عبد الرحمن عودة، التي كبَّرناها، ووضعناها في برواز في مدخل الاتحاد...

طلب مني د. توفيق أن آخذ عزَّت معي في مهام المشاركة مع الشباب في عملياتهم العسكرية، وكانت المشاركة كوميديَّة، وأقسَمتُ بعدها ألَّا أُشرِكه معي مرَّةً أخرى في أي نشاط عسكري؛ حيث كاد يتسبب لنا في كوارث أمنية، ورغم ذلك كان خفيفَ الظِّلِّ؛ كُنَّا يومًا نأكل، وكان من ضمن أصناف الطعام الموضوعة أمامنا "شوربة لسان العصفور"، كان "لسان العصفور" بها على شكل حروف الأبجديَّة الإنجليزيَّة؛ فأخذ يَضحكُ بشكلٍ طُفوليٍّ، قائلًا: "هُوَّ اللي يشرب الشوربة

دي يعـرف بعدهـا يتكلِّـم إنجليـزي؟"!. كانـت شـخصية عـزَّت مهتـزَّة؛ يخـاف مـن كل شيء حولـه، ويمكـن القـول إنـه كان "يخـاف مـن خيالـه"، وبالطبـع لم يحتمـل المكـوث طويـلًا في ظـل الأجـواء التـي كانـت تحيـط بنـا، وأصرَّ عـلى العـودة إلى مـصر عـلى أقـرب رحلـة.

بعد عودته سَمِعنا أخبارًا غيرَ مُؤكَّدَة عن انتحاره!

في الطَّفيلَة

الطَّفيلـة مدينـة بدائيـة، بعيـدة عـن المدنيَّـة، تقـع في جنـوب الأردن، وتبعـد عـن عـمَّان بحـوالي مائـة وثمانـين كيلومـترًا...

كانـت العيـادة موجـودة في بيـت مـن البيـوت الشـعبية الصغـيرة؛ وهـو مـن طبقـة واحـدة، والبـاب الملاصـق لـه كان مقـرَّ قيـادة فتـح في الجنـوب (تحـت قيـادة مـوسى عرفـات -ابـن عـم يـاسر عرفـات- وهـو رجـل عسـكري يتميَّـز بالصرامـة، التـي تتناسـب مـع منصبـه كقائـد عسـكريٍّ)، وبالتـالي كانـت العيـادة -هـي الأخـرى- مقـرَّ العمـل الطبـي في الجنـوب، الـذي يبـدأ مـن مادبـا، ثـم الكـرك، وينتهـي عنـد معـان، ويصـل إلى العقبـة، وكانـت هنـاك بلـدة صغـيرة في منتصـف المسـافة بـين الطفيلـة ومعـان تُسـمَّى "مثلـث عنيـزة" في منطقـة الشـوبك.

كان مبنـى العيـادة أكـثرَ بدائيـة مـن المبـاني المجـاورة لـه، وكانـت فقـيرة جـدًّا مـن حيـث التجهيـزات؛ حيـث تُضـاءُ بِمُولِّـد كهربـائي، يعمـل فـترةً، ويتوقَّـف فـتراتٍ! ولم يكـن بهـا أَسِرَّة؛ حيـث أصرَّ الدكتـور محجـوب عـلى عـدم وجودهـا؛ إعـمالًا -منـذ البدايـة- لمبـدأ المسـاواة الكاملـة بـين العاملـين في العيـادة، وحتـى لا يتميَّـز أحـدٌ عـلى آخـر! السريـر الوحيـد بهـا كان بدائيًّـا، وهـو مُخصَّـصٌ للحـالات الحرجـة فقـط؛ بحيـث إذا أتى مريـضٌ حالتـه تسـتدعي أن يتمـدَّد عـلى السريـر أنمنـاه عليـه مؤقَّتًـا! والعيـادة بهـا طبيـب، وأكـثر مـن ممـرِّض، وأكـثر مـن خـادم، وعـدد مـن الفدائيـين.

كان الدكتـور محجـوب ينـام عـلى الأرض، ويرفـض النَّـومَ عـلى السريـر الوحيـد هـذا، أو عـلى طاولـة الكشـف الموجـودة في العيـادة. أقـرَّ قاعِـدةَ المسـاواة بين الجميـع، وابتدأ أوَّلَ مـا بـدأ بنفسـه؛ لهـذا دخـل قلـوب جميـع المحيطـين بـه والمتعاملـين معـه -فعـلًا لا

قـولًا- وعـاش في القلـوب، وامتلكهـا؛ ولهـذا أيضًـا أطلقـوا عليه اسـم "الحكيـم". والحكيم هـو "الطبيـب"، والحكيـم كذلـك: "الرجـل العاقـل"، و"الأخ الأكـبر"، و"الصديـق"... وكل شيء طيـب، وقـد كان الدكتـور محجـوب كذلـك بالفعـل.

استقبلني الرَّجُلُ عندما وصلت إلى العيادة، بابتسامته المعهودة، قائِلًا:

- أهلًا وسهلًا...

ثم أردف -بصوته الذي يشعُّ حُنُوًّا- سائِلًا -في استنكارٍ لا يخلو من طيبَة-:

- يا تَرَى حتقعد معانا كام يوم؟!

قلتُ مُؤكِّدًا في عناد:

- على طول...

سألني:

- إنتَ عارف احنا عايشين ازَّاي هِنا؟

- عايشـين ازَّاي؟ مـش مهـم... ومـش حيبقـى صعـب... انتُـم عايشـين وانـا حاعيش زَيِّكُم!

شـعرت بـأن التركيـز عـلى عـدم قُـدرَتي عـلى تَحمُّـل المعيشـة فـي المـكان فيـه بعـضُ التقليـل مـن قـدراتي؛ فـزاد ذلـك مـن عنـادي، والشـعور بالتحدِّي.

كانـت العيـادة تقـع -كـما ذكـرت- إلى جـوار مقـرِّ قيـادة فتـح، وكان الحكيـمُ (محجـوب) مُتعايشًـا معهـم، ويعيـش حياتَـه مثلهـم؛ يـأكل كـما يأكلـون، ويـشرب كـما يشربـون، ويلبـس كـما يلبسـون... حتـى السـجائر التـي يُدخِّنهـا؛ كانـت مـن النـوع الـذي يُدخِّنـه الفدائيـون. كان عـليَّ أن أُجاريـه، وأن أتـصرَّف مثلـه، وأن أعيـش حياتـه، كان هـذا أمـرًا في غايـة الصعوبـة؛ فكـما حـكى لي -مـن قبـل- أن كثيريـن حاولـوا، لكنهـم فشـلوا في أن يتواءمـوا مـع قوانـين حيـاة الطفيلـة. ولاحظـت أن الحكيـم كان يتعامـل معـي بحـرص، كنـت أشـعر في داخـلي بأنـه يُعامِلُنـي بجفـاءٍ متعمَّـد، لكنـه خفيـف، وإن كانـت كَلماتُـه رقيقـةً كعادَتِـه. كنـتُ أحـسُّ أنـه لا يثـق بأننـي سأسـتمرُّ في تَحمُّـل هـذه الحيـاة. كان هـذا خـلال الأيـام الأولى لوجـودي في الطفيلـة، لكـنَّ تعامُلَـه معـي تغـيَّر عندمـا تأكَّـد -بعـد ذلـك- مـن أننـي قـادِرٌ، ومُصمِّـمٌ عـلى الاسـتمرار. كان هـذا

بعـد اختبـاراتٍ عديـدة كان يضعنـي فيهـا؛ كأن يَطلُـبَ منِّـي أن أذهـب معـه إلى منطقـة بعيـدة سـيرًا عـلى الأقـدام، وبالرغـم مـن أن السـير عـلى الأقـدام كان خَطِـرًا؛ كنـتُ أقـول لـه: فَليَكُـن!

... "سـتذهب وحـدكَ إلى منطقـة الحسـينية، وتحـاول أن تجتـذب الأهـالي؛ حيـث إنهـم معـادون للثـورة"!

... "فليَكُن"!

... "تُؤسِّس عيادة هناك، وليَكُنْ هدفك سياسيًّا قبل أن يكون طِبِّيًّا"!

... "فليكن"!

كُنَّـا قـد تناقشـنا مـن قبل حـول أهـداف العيـادات المختلفـة التـي نفتَتِحُهـا، واختيار الأماكـن المُناسِـبَة لهـذه العيـادات، فأخـبرني محجـوب أن الظاهـر في هـذه العيـادات هـو عـلاج المـرضى، خاصَّـةً في المناطـق البعيـدة عـن المركـز الطبِّـيِّ الحكومـيِّ، ونحـن نقـوم بذلـك فعليًّـا، ولكـن ذلـك ليـس الهـدفَ الأسـاسيَّ لنـا... حيـث إن الطَّفيلـة هـي أقـرب المـدن الأردنيـة لــ "وادي عَرَبـة"؛ فقـد كانـت طائـرات الهليوكوبـتر الإسرائيليـة تحلِّـق في سـماء المدينـة يوميًّـا، تلقـي منشـوراتها التـي تدعـو الأهـالي للتعـاون مـع سـلطة الاحتـلال، ويتصيَّـد عملاؤهـا -عـلى الأرض- عنـاصر مـن الذيـن يطحنهـم الفقـر والحاجـة مـن الأهـالي، ويوقعونهـم في شـباكهم مـن أجـل التجسُّـس لصالـح إسرائيـل، كان البعـض يقـع في هــذا الـشَّرَك -للأسـف- فـكان لا بُـدَّ مـن تأمـين الطـرق التـي يسـلكها الشـباب في طريقهـم للعمليـات التـي يقومـون بهـا؛ مـن أجـل هـذا كان مـن ضمـن أهـداف نـشر عياداتنـا في المنطقـة -أوَّلًا-: اجتـذاب الأهـالي، واسـتمالتهم؛ ليعملوا كعيـون طبيعيـة لنـا في المـكان، وكذلـك كان مـن بـين أهدافنـا تدريـب المزيـد مـن الشـباب ليكونـوا مُمرِّضـين متواجديـن هنـاك يوميًّـا، نقـوم بمنحهـم دورات سياسـية مـع الـدورات التمريضيـة. في نفـس الوقـت كُنَّـا نحـرص عـلى تمتـين الارتبـاط بـين المـرضى وبـين تلـك العيـادات، فيحـرص الطبيـب الـذي يَمُـرُّ للكشـف عـلى المـرضى لحثِّهـم عـلى متابعـة الحضـور يوميًّـا؛ لأسـباب مختلفـة؛ لأخـذ حقنـة -مثـلًا- أو قيـاس الضغـط، أو الحـرارة، ومـا شـابَهَ...

اجتزت كُلَّ الاختبارات التي وضعني فيها محجوب، دون شكوى أو تَذمُّر.

ورغـم أنـه كان رئيـسي بالعمـل، إلا أنـه لم يكـن يطلـب منـي شـيئًا في صيغـة أمـر أبـدًا؛ كان لديـه أسـلوب في صياغـة تكليفاتـه، تبـدو معهـا تعليـماتٍ أو ملاحظـات.

سـألني في اليـوم الأول إن كنـتُ أحـبُّ أن أنـام في السريـر، فسـألته: "وأيـن تنـام أنـت؟"، فقـال: "عـلى الأرض"! قلـتُ لـه: "وأنـا مثلـك... سـأنام عـلى الأرض"! أخـبرني أن الأرض تكـون رطبـةً، ودرجـة حـرارة الطَّفيلـة تصـل إلى صفـر بعـد منتصـف الليـل، ولا يوجـد لـكل فَـردٍ سـوى ثلاثـة "حِرامـات" (بطاطـين)، عليـه أن يُدبِّـر حالَه بهم... فسـألته إن كانـوا يسـتطيعون تحمُّـل هـذا الوضـع، ولمَّـا أخـبرني أنهـم بالفعـل متأقلمـون، وأنهـم اعتـادوا هـذا الأمـر؛ قلـت لـه بحسـم: "وأنـا أيضًـا أتحمَّـل...".

كنَّـا حـين ننـام نفـترش أرضًـا إسـمنتية تَبـثُّ الـبرودة في عظامنـا! وكان لِـكلٍّ منَّـا بطانيـات ثـلاث؛ إحداهـا يضعهـا تحتـه، والأخريـان يتدثَّـر بهـما. وبـدلًا مـن المخـدَّة؛ كنَّـا نلـفُّ الحـذاء ذا الرَّقبـة في أيَّـة ملابـس قديمـة، ونتوسَّـدها كـما لـو كانـت مخـدَّة! في بعـض الأحيـان، عندمـا كان يحـلُّ بنـا أحدُهـم ضيفًـا ليبيـت عندنـا؛ كان كلٌّ منَّـا يتخلَّى عـن بطانيـة مـن بطانياتـه.

وهكـذا كانـت كل ظـروف الحيـاة في تلـك البقعـة مـن الأردن -في هـذا التوقيـت- شـديدة القسـوة، حتـى الاسـتحمام كان صعبًـا للغايـة؛ كنـا نلجـأ في هـذا الأمـر إلى إحـدى الـبِرك الآسِـنة التـي تقـع خلـف العيـادة، كانـت مياههـا سـيئة للغايـة، تختلـط بالرمـال والأتربـة، وفي أحـد الأيـام -بعـد ذلك-اكتشـفت -أنـا ومحجـوب- بـأن مـاء هـذه البحـيرة ينحـدر مـن أعـلى الجبـل، ليصُـبَّ في تلـك البحـيرة الصغـيرة، وبعـد فحص مسـار المياه وجدنـا أنهـا تكـون صافيـة جـدًّا في بدايـة رحلتهـا، عنـد المنطقـة الصخريَّـة أعـلى الجبـل، حيـث تتدفَّـق الميـاه مـن بـين تلـك الصخـور، وتتراكـم في حفـرة صخريـة، عُمقُهـا حـوالي المـتر، وكذلـك طولهـا وعرضهـا، في قمـة الجبـل، ثـم تخـرج الميـاه مـن فتحـة صغـيرة في جـدران الحُفـرَة الصخريـة، وهـذه الفتحـة يُمكِـنُ غَلقُهـا بسـهولة بصخـرة صغـيرة. اعتبرنـا اكتشـافنا كَنـزًا، وسَـمَّينا الحفـرة الصخريـة: "حـمَّام كليوباتـرا"! واحتفظنـا بهـذا الـسر "الخطـير" لنفسـنا، وعندمـا نريـد أن نسـتحمَّ كُنَّـا نصعـد إلى قمـة هـذا الجبـل، نسـدُّ الفتحـة بصخـرة، حتـى يمتلـئ الحـوض الصخـري بالميـاه النظيفـة، ثم نذيـب في المـاء بعـض مسـحوق الغسـيل "رابسـو"، ونسـتلقي في هـذا "البانيـو" الطبيعي

بملابسنا الكاملة، ثم نكرِّر الأمر دون مسحوق غسيل، وننشر ملابسنا على صخور الجبل حتى تجفَّ! وكان هذا هو حمَّامنا الأسبوعي...

***

لم تكن ظروف الحياة القاسية فقط هي كل العقبات التي واجهتني أنا وزملائي في الطفيلة؛ فقد كانت هناك مشكلة كبيرة أخرى تواجهنا أثناء ممارسة مهامنا الطبية، فرغم طيبة، وحماس المعاونين لنا، ورغم أننا قمنا بتدريبهم (وإن كان تدريبًا قصيرًا بالطبع)؛ إلَّا أننا عانينا بشدة من عدم توفُّر العنصر البشري المساعد، الذي يمتلك خبرة وحنكة الممرضين الحقيقيين؛ فكنا نقوم بمعظم الأعمال وحدنا -كأطباء-، غير أن بعض الأعمال الطبية التي كنا نمارسها كانت تتطلَّب وجود مساعد محنَّك، مثل إجراء عملية جراحية، حتى ولو بسيطة...

ومن النماذج التي أذكرها، والتي ربما يكون سرد جزء من الأحداث هنا عنها مُعَبِّرًا عمَّا أريد أن أنقله للقارئ: شابٌ يُدعى صبحي جبريل، كان قد التحق بالعيادة للعمل كممرِّض، وقد بذلت جهدًا غير عادي في تدريبه على التَّعقيم؛ لمُساعَدَتي في بعض العمليات الصغيرة التي أقوم بها في العيادة، وأثناء إحدى هذه العمليات كان صبحي يقف معي وهو في ملابس التعقيم، ففوجِئتُ به يخلع "الماسك" الطبيَّ الذي يرتديه على وجهه، ويحكُّ أنفه! ولمَّا لُمْتُه على تلك الفعلة التي تُعرِّض حياة المريض للخطر؛ نتيجة تعريضه للعدوى وهو في تلك الحال- أجاب ببراءَةٍ أنه شعر بِحَكَّةٍ في أنفه، وأنه لا يتصوَّر أن ذلك سيتسبَّب في ضررٍ؛ فوجهه نظيفٌ!

من بين هذه النماذج أيضًا كان هناك "قاسم"، أو "كاسم محمد كاسم" (كما كان ينطق اسمه!) السائق، الذي يقود السيارة الوحيدة التي نمتلكها، وكانت مخصَّصة لنقل المرضى الذين يحتاجون إلى وسيلة تنقلهم بين العيادة والمنزل، أو العكس. كان قاسم ضخمًا، ذا شخصية كوميدية، يتحدث بلهجة الأهالي هناك، الذين لديهم طريقة خاصة في نطق الحروف، فيقلبون "القاف" "كافًا"، إلَّا أن سائقنا لم يكن ينطق "الراء" تقريبًا! أذكر أنني قُمتُ بعمل بعض الغُرَز لمريض مُصابٍ في وجهه في إحدى الأمسيات، وكان لا بُدَّ من إيصاله بسيارة الإسعاف؛ حيث كان قد فَقَدَ دماءً كثيرةً قبل أن يحضر إلى العيادة، ولم يَكُن بالعيادة إلا

"قاسـم"، لكنَّـه كان نائمًـا عندمـا استـدعيته، سـألتُه إن كان يسـتطيع إيصـالَ المريـض، أجـاب بالمُوافَقـة، وبعـد حـوالي نصـف السَّـاعة وجدتُـه أمامـي مجـدَّدًا وهـو يحمـل المريض المُصـابَ عـلى كَتِفَيـه! كان هـو نفسـه مُصابًـا، تلطَّخ ملابَسَـه بُقَعُ الدمـاء، كان منهـكًا وهـو يجـرُّ قدميـه بصعوبـة، مـع وجـود هـذا الحمـل الثقيل عـلى كفيـه... راعني مـا رأيتـه، وسـألتُه عـمَّا حَدَث، فأخـبرني بأنـه كان يُغالِـبُ النَّـومَ، فاصطدمـت السـيارة بعامـودٍ في الشـارع! خـلال نقـل المريـض مـن عـلى كتفيـه إلى السريـر في العيـادة طلبـت منـه أن يصـف لي مـاذا حـدث للجريـح، فأجابنـي بأنـه لا يعـرف، ولكـنَّ رأسَـه اصطـدم بالزجـاج الأمامـي للسـيارة، وربَّمـا تكـون الغُـرَز قـد تفكَّكَـت... قـال إنـه حـضر مشـيًا عـلى قدَمَيْـه لطلـب المسـاعدة، وإعـادة خياطـة الغُـرَز المفكوكـة! ولمَّـا سـألته عـن السـيارة قـال إنهـا تعطَّلَـت "لأن العَـكَل فَكَّـع"، يقصـد: "العَجَـل فَرْقَـع"...

ومـن ضمـن نـوادر "قاسـم" هـذا، أنـه كان السـبب في أننـي نمـت -مـرَّةً وحيـدةً- عـلى السريـر الوحيـد بالمـكان؛ حيـث حـضر -ومعـه بعـض المقاتلـين الآخريـن- في إحدى الليـالي بسـيارة الإسـعاف، وقـد حمَّلهـا بالأدويـة، كان الوقـت قـد تأخَّـر، وقـد نِمنـا جميعًـا، كان علينـا تدبـير أماكـن وأغطيـة للجميـع، وكان آخرهـم "قاسـم"، الـذي لم يتوفَّـر لـه -في النهايـة- إلَّا بطانيـة واحـدة؛ فطلبـتُ منـه أن ينـام فـوق سريـر الكشـف في العيـادة؛ فضحـك بشـدَّة، وقـال: "لا أكـدر"، فسـألته: "ليـه؟"، فقـال: "أكـع" (أقـع)، اقترحـت عليـه أن نضـع بعـض الكـراسي بجـوار السريـر، فوافـق، ونـام. وبعـد نصـف سـاعة انتفضنـا مـن نومنـا عـلى صـوت ارتطـام جسـده عندمـا وقـع عـلى الكـراسي، وكسرهـا... كان غارِقًـا في الضحـك وهـو يقـول: "مـش كلـت لكـو حاكـع!"... وكان لا بُـدَّ مـن تغيـير مـكان نَومِـه، فنـام مـكاني، ونِمـتُ أنـا فـوق سريـر الكشـف، لأوَّل وآخِـرِ مـرَّة؛ حيـث كان لا بُـدَّ مـمَّا ليـس منـه بُـدٌّ!

ورغـم كل شيء، فـإن هـؤلاء الشـباب كانـوا يتنافسـون للمشـاركة في الأعـمال العسـكرية في وادي عربـة ضـد العـدو الصهيـوني، وكانـوا يتباهـون في مناقشـاتهم بعـدد العمليـات التـي شـاركوا فيهـا.

***

بالطبع، كانت بداياتي معهم في مثل هذه الظروف غايةً في الصعوبة والقسوة عليَّ، لكنها صارت -بمرور الوقت- معتادة، بل لقد صار ممتعًا -بالنسبة لي- أن أُواجِهَ مثل هذا التحدِّي، وأن أتغلَّب على كل هذه الصعوبات. كنت -دائمًا- أبدي ترحيبًا بتكليفات الدكتور محجوب لي، رغم أنني عانيت كثيرًا من تأديتها، ومن نمط الحياة الذي كنت أحياه، ولكنَّني شعرت -للمرة الأولى منذ جئت إلى الأردن- بأنني أعيش حالة نضال، وأنني أعمل عملًا ذا قيمة؛ وأن لحياتي معنى!

وزال تصوُّرُ أنَّ الجبهة الشعبيَّة أَنسَبُ أو أَكثرُ صِدقًا من ذهني، بعدما رأيته بعيني في عمَّان من تَصرُّفات العناصر المنتمية إليها -والمحسوبة عليها- الطفوليَّة، وبعدما عملت مع محجوب... وتأكَّد امحاء لك الصورة عندما بدأتُ أزور المواقع والقواعد؛ لم أرَ وجودًا فعليًّا لهذه التَّنظيمات، ولا عمليَّات ضد العدوِّ... كما لو أن هؤلاء كانوا يريدون تحريرَ فلسطين بالخطابات النارية، من عمَّان، والمدن الأخرى!

محجوب.. أسلوب حياة!

يبدأ العمل بالعيادة الصباحية في الساعة الثامنة، كنا نستيقظ قبلها بساعة على الأكثر، لكن الدكتور محجوب كان يستيقظ في السادسة إلا ربعًا، يوميًّا. لم يكن يستعمل المُنبِّه، ويعتمد على ساعته البيولوجية الموجودة في المخ؛ توقظه في الموعد نفسه كلَّ يوم. سألته مرَّة: "لماذا السادسة إلَّا الرُّبع، لماذا لا تكون السادسة، أو الخامسة والنصف حتَّى؟!".

- يا أخي.. عشان ميعاد التفتيش (يقصد التفتيش الروتيني في السجون)... دايمًا بيكون الساعة ستة، لازم أصحى سِتَّة إلَّا ربع؛ علشان أخبِّي الممنوعات...
- ممنوعات؟!
- يعني: قلم... ورقة... سيجارة... أو ما أشبه... مأكولات أو غيره.

كان يتعمَّد أن يعيش حياة التقشُّف الذي فُرِضَ عليه في السجن في حياته العادية، عندما كان في القاهرة، كما حكى لي فيما بعد. كان مُستعدًّا -دائمًا- لدخول

السـجن؛ لأنـه يتوقَّـع أن يُقبـض عليـه مـع أيَّـة أحـداث تقـع في القاهـرة أو في أي منطقـة، فَبُمجـرَّد أن تَصِلَـه أخبـار عـن حركـة اعتقـالات -حتـى لـو كانـت لمجموعـة من الإخـوان المسـلمين- كان يُجهِّـز "حقيبـة السـجن"؛ وهـي "شـنطة" صغـيرة يضـع فيهـا حاجاتـه الأساسـية، ويرتـدي الملابـس التـي يـرى أنهـا يمكـن أن تلائـم حيـاة السـجن، ويجلـس منتظـرًا مَـن سـيأتون للقبـض عليـه. في الغالـب كانـوا يُحقِّقـون معـه، ويتبيَّن لهـم أن ليـس لـه علاقـة بالأمـر؛ فيُفـرج عنـه في اليـوم نفسـه، أو بعـد عِـدَّة أيَّـام. لم يكـن يخـسر شـيئًا؛ فنَمَـطُ حيـاةِ السِّـجن يعيشـه في حياتـه اليوميـة، وقـد تحـوَّل هـذا النمـطُ إلى شَـكلٍ مـن أشـكال العـادة التـي فرَضَـت نفسَـها عليـه؛ فلـم يكـن يسـتطيع تغييرهـا، حتـى لـو أراد ذلـك: لا يسـتخدم السريـر؛ وإنمـا ينـام عـلى الأرض، حتـى في منزلـه، وكان ينـام مبكـرًا، ويسـتيقظ مُبكِّـرًا.

كانـت العيـادة تتكـوَّن مـن غرفتـين للكشـف، وغرفـة كبـيرة للصيدليـة، ومَخـزَنٍ لـلأدوات الطِّبيَّـة، ومـكان للطَّبـخ، ودورة ميـاه. وكان الدكتـور محجـوب ينـام في الغرفـة الرئيسـية. عـرض عـليَّ في ليلتـي الأولى معهـم أن أنـام في الغرفـة الأخـرى، عـلى سريـر الكشـف (وكان أي مقاتـل أو ممـرِّض أو أي فـرد مـن العاملـين في العيـادة يسـتخدمه، إذا شـاء، غـير أنـه لم يكـن هنـاك تنافـس عـلى اسـتخدام السريـر، الغريـب أن التنافـس كان عـلى عـدم اسـتخدامه!)، لكننـي رفضـت، بعـد أن عرفـت منـه -كـما ذكـرتُ- أنـه ينـام عـلى الأرض، وطلبـت منـه أن أشـاركه غرفتـه، إن لم يكـن يمانـع، فرحَّـب بذلـك .

بالفعـل، شـاركت الدكتـور محجـوب الغرفـة الرئيسـية وقـت النـوم، قضينـا ليـالي طويلـة نتحـدث قبـل أن نخلـد إلى النـوم، كُنَّـا ندخـن نفـس السـجائر التـي تُوزِّعهـا القيـادة عـلى الجميـع بالمسـاواة الكاملـة في الكمِّيَّـات والنوعيـات... فمثـلًا تخلَّينـا عـن نوعيـة السـجائر التـي كُنَّـا نُدخِّنُهـا لنسـتخدم النوعيـة الموزَّعـة عـلى الجميـع، كان اسـمها "سـيد"، كانـت طبعًـا أرخـصَ السَّـجائر الأردنيـة. كان محجـوب يُسـمِّي السـيجارة الأخـيرة قبـل النـوم مباشرَةً: "السـيجارة الرومانتيكيـة"؛ حيـث ننـام بعدهـا بـدون أحاديـث، ويغـرق كُلٌّ مِنَّـا في خصوصياتـه: عائِليَّـة، أو عاطفيـة... كان يشـغل بـالي وقتهـا عـدَّة أمـور عاطفيـة، مـن بينهـا قصتـي مـع الصديقـة في عَـمَّان، وتتقاطـع معهـا العلاقـة الجديـدة التـي نشـأت بينـي وبـين إحـدى قيـادات التمريـض، بعـد أيـام قليلـة مـن وجـودي بالطفيلـة، كانـت رئيسـة تمريـض، كان اسـمها فائـزة، وقـد فاجـأني

أنها هـي التـي فاتحتنـي في أمـر إقامـة علاقـة معهـا، ورغـم تحفُّظـي النسـبي، إلا أننـي -بتشـجيع مـن الدكتـور توفيـق، والدكتـور محجـوب نفسـه!- اسـتمريت في الأمـر...

في العـادة كنـت أسـتيقظ في السـابعة صباحًـا، وفي إحدى المـرَّات اسـتيقظت **،ارَكِّبمُ** مـع الدكتـور محجـوب، في السادسـة إلَّا الربـع، وجدتـه يتحـرَّك في العيـادة ذهابًـا وإيابًا، كان يسـير بطريقـة غريبـة اسـترعت انتباهـي: يمـشي ثـلاثَ خطـواتٍ، ونصـف الخطـوة، ثـم يسـتدير ويفعـل الـشيء نفسـه، بِعَـدَدِ الخطـوات نفسـها، دون أن يكمـل الخطـوة الرابعـة! واسـتمر هكـذا مـدَّة ربـع السـاعة!

كنت أحترم ما يفعل أيًّا كان ما فيه من غرابة!

ولمَّا سألته:

- ليـه مـش بتكمِّـل الخطـوات أربعـة، أو تكتفـي بثـلاث خطـوات، واتِّسـاع العيـادة يسـمح حتـى بخمـس خطـوات؟!

- ما اقدَرش.

- ليه؟!

- هـوَّ طـول الزنزانـة كان كـده... لمَّـا أقعـد عـشر سـنين أمـشي كل يـوم تـلات خطـوات ونـص، مـا أقـدرش أغـيَّر بعـد كـده.

- إزاي؟!

- لـو مشـيت تـلات أو أربـع خطـوات، وبعديـن لمَّـا أخُـشّ السـجن.. أعمـل إيـه؟ الحقيقـة أنـا اتعـوِّدت، والتـلات خطـوات ونـص دول ملازمينِّـي في حيـاتي...

- ...!

- أيـوه.. حتـى وأنـا في بيتـي... ممكـن أمـشي سـبع أو تمـن خطـوات، لكني بـاصِرّ.. أو لقيـت نفسـي مـا اقـدرش أكمِّـل أكـتر مـن تـلات خطـوات ونـص.. وأرْجَـع في الاتجـاه المعاكس!

هكذا؛ كان الرجل يعدُّ نفسه دائمًا لما قد يحدث، ويستعد لصعوبات الحياة!

بعد ذلك اعتدت أن أستيقظ معه، في السادسة إلا الربع...

بعـد أن ينهـي فـترة المشي كان يبـدأ -عـلى الفـور- في تسـجيل أفـكاره التـي راوَدَتـه خلالهـا، كان يكتـب عـلى أوراق كثـيرة، كتاباتـه -عـادةً- عـلى هيئـة خطابـات موجَّهـة إلى صديقنـا قـدري حفنـي، ولم يكـن مُهِـمًّا عنـده أن يرسـل هـذه الخطابـات، كان يكتـب ليسـجِّل الأحـداث اليوميـة، ولم يكـن -حـين يرسـلها- يتوقَّـع أن يأتيـه ردٌّ عليهـا إذا وصَلَـت، وقـد لاحظـت أنَّ أكـثر خطابـات محجـوب بلاغَـةً هـي الخطابـات القصـيرة التـي يكتبهـا عـادةً للدكتـور قـدري حفنـي... بعـد أن ينتهـي مـن كتابـة خطاباتـه -وأكـون أنـا بـين اليقظـة والنـوم- يُشـغِّل جهـاز تسـجيلٍ قديـم موجـود في العيـادة، يضـع بعـض الأشرطـةِ مُسـجَّلٌ عليهـا أغـانٍ مصريـة؛ بعضهـا أغـانٍ وطنيـة، وبعضهـا مـن الـتراث، أو مـن أغـاني سـيد درويـش، يُغنِّيهـا بعـضُ المطربـين الذيـن صِرتُ أَطـرَبُ لأدائهـم وجَـمالِ أصواتهـم (الشـعبية)؛ مثـل عبـد المطلـب، وكان محجـوب يحـب أن يدنـدن في بعـض الأحيـان مـع بعـض الأغنيـات، كان صوتـه يـروق لي، خاصَّـةً عندمـا يُقلِّـد صـوت عبـد المطلـب ومحمـد رشـدي، وكانـت أكـثر الأغـاني التـي يُردِّدُهـا هـي أغنيـة عبـد الوهـاب القديمـة: "لمَّـا انـت نـاوي تغيـب عـلى طـول"... كنـتُ أحـترم رغبـات محجـوب، وأسـتمع معـه إلى الأغـاني التـي يُحبُّهـا؛ حتـى أننـي صرتُ عاشـقًا لهـذه الأغـاني؛ لأنني تعـوَّدتُ سـماعَها، وصرت أَحِـنُّ إليهـا بـين الحـين والآخـر...

بعدهـذا الطقـس اليومـي نجتمـع عـلى الإفطـار، الـذي -في الغالـب- يكـون جَماعيًّـا، نفطـر بمـا هـو موجـود في العيـادة، مِـمَّا تحضره لنـا حركـة فتـح.

كـما قلـت؛ كانـت علاقتـي بالدكتـور محجـوب علاقـة مـودة عميقـة، كنـت أشـاركه في كافـة الأمـور، طـوال فـترة وجـودي في الطَّفيلـة، ولا أفعـل إلا مـا نكـون متفقـين عليـه تمـام الاتفـاق، أشـاركه في كافـة نشـاطاته، والعكـس أيضًـا... سـوى في أمريـن -رغـم عدم معارضتـه لي فيهـما-: علاقتـي بطـارق شرف، ونشـاطي مـع أطبـاء المستشـفى الحكومـي -الوحيـد- بالطفيلة...

في الطَّفيلـة كانـت هنـاك قاعـدة عسـكرية قويـة، تَتبَـعُ رسـميًّا جيـشَ التحريـر الفلسـطيني، ولكـن كان العاملـون فيهـا مـن ضُبَّـاط القـوَّات المسـلحة المصريـة، وكان معظمهـم مـن أفـراد الصاعقـة والمخابـرات، بعضهـم مـن المغضـوب عليهـم سـابقًا، وكان جـزء منهـم قـد اضطـرَّ إلى تـرك الخدمـة، حتـى أعادهـم الفريـق محمـد صـادق.

كان طـارق شرف مـن بينهـم، وهـو الأخ الأصغـر لسـامي شرف، مديـر مكتـب عبـد النـاصر في ذلـك الوقـت، ولكـن "سـامي" كان يتعامَـل معـه بجفـاءٍ؛ حيـث كان هنـاك تَصـوُّرٌ أنـه شـارك -أو حـاول المشـاركة- في محاولـة انقـلاب ضـدَّ السُّـلطة في مـصر.

تعرَّفـت إلى طـارق في عـمَّان، قبـل ذهـابي للجنـوب، وكان مـن أذكى الشـخصيات التي قابَلتُهـا في حيـاتي؛ كان يمتلـك أكـبر ذاكـرة فوتوغرافيـة قابَلتُهـا: عندمـا يمـرض وأَصِـفُ لـه بعـضَ الأدويـة كان يقـرأ النـشرة الداخليـة لعلبـة الـدواء، ثـم يـأتي ليسـألَني عـن كُلِّ عُنـصرٍ كيـماويٍّ (يصعـب حِفـظُ أسـمائها، حتـى عـلى الأطبـاء، وحتـى الصيادلـة، ولكـن طـارق يحفظهـا مـن قـراءة واحـدة للنـشرة)! كان طـارق موسـوعةَ مَعلومـاتٍ في مجـال الأسـلحة: يعـرف كلَّ شيء عـن جميـع الأسـلحة في العالم تقريبًـا، وأيِّ جيـشٍ يمتلكها. كان ينظـر إلى المتحـدث معـه بحـدَّة، بعَينَيْـه الخضراويـن، ووجهـه المـصري الأصيـل... وقـد علَّـم نفسـه الإنجليزيـة حتـى صـار عـلى مسـتوى عـالٍ جـدًّا مـن إتقانهـا؛ أهَّلَـه ليتبـوَّأ وظيفـة مُترجـمٍ فـوريٍّ في الأُمَـم المتَّحِـدة بعـد خروجـه مـن الجيـش، ولم تَمـضِ فـترةٌ طويلـة حتـى أصبـح كبـيرَ المُترجِمـين الفَوريِّـين، وكانـت آخِـرَ وظيفـةٍ لـه قبـل وفاتـه... كنـتُ أُسـمِّيه "العبقـري المجنـون". كان مـن بـين هوايـات طـارق: تحليـل شـخصيات أصدقائـه، وهـو صاحـب رؤيـة ثاقبـة، قلَّـما تخيـب، وفي هـذا الإطـار كان يقـول عنـي إننـي أحتـاج لبعـض الوقاحـة اللازِمَـة في الحيـاة لأُصبِـحَ شـخصًا شِـبهَ مُتكامِـلٍ، ولمَّـا سـألته: "لمـاذا هـذا التشـخيص؟"، قـال: "في بعـض اللحظـات يَحمَـرُّ وَجهُـكَ احمـرارًا خفيفًـا؛ ومعنـى ذلـك أنـك تتملَّـكُكَ حساسِـيَةٌ مُفرِطَـةٌ، تُحـاوِلُ السَّـيطَرَةَ عليهـا" (وكان ذلـك صحيحًـا!).

كان مُقاتِـلًا شَرِسًـا، يقـوم بعمليـات جريئـة ضـدَّ الإسرائيليـين، وكنـت أحبُّـه، وأَثِـقُ في نَزاهَتِـه وقُدراتِـه، ولكـن محجـوب -رغـم عـدم اعتراضـه عـلى لقـاءاتي المتكـرِّرة بطـارق- كان حَسَّاسًـا تجـاهَ السُّـلطة بـكل أشـكالها؛ فرفـض التَّعـرُّفَ إليـه، أو التعامـل معـه، لكنـه لم يَحتَـجَّ أو يرفـض علاقتـي بـه، وكان بإمكانِـه مَنعـي مـن زيارَتِـه؛ حيـث إنـه كان رئيـسي، ويَعلَـمُ مَـدى تقديـري لآرائـه، ولكنـه لم يفعـل؛ كان يرفـض فقـط تَعامُلَـه هـو مـع أيٍّ مـن أفـراد القاعـدة المصريـة هنـاك، والحقيقـة أنـه كان يتجنَّـب التَّعامُـلَ مـع كلِّ مَـن يشـغل منصبًـا رَسـميًّا، وحتـى أثنـاء وجـوده بمـصر كان يتجنَّـب التعامـل مـع أي مَسـؤولٍ، إلَّا مُضطـرًّا...

الأمـر الآخـر الـذي كنـت أمارسـه بعيـدًا عـن محجـوب كان علاقتـي بأطبَّـاء المستشـفى الوحيـد في الطَّفيلـة، وكان الطبيـب المقيـم هنـاك حديـثَ التَّخـرُّج والخـبرة، وكان يلجـأ لي في كثـيرٍ مـن الحـالات -بعلـم رؤسـائه، وكان الجميـع سُـعداء بذلـك، بمـا فيهـم محجـوب- ويُشـجِّعونه؛ حيـث كان المستشـفى هـو المـكان الوحيـد القـادر عـلى اسـتقبال حـالات الجرحـى مـن شـبابنا أثنـاءَ عمليَّاتهـم العسـكرية.

عيادات الجنوب

لم يكـن لنـا عيـادة ثابتـة في العقبـة؛ حيـث كان هنـاك تواجُـدٌ حكومـيٌّ كبـير، وكانـت القُـوَّات المُسـلَّحة الأردنيـة مُتواجِـدَةً بشـكل ضخـم، بخـلاف بَقيَّـة مناطـق الجنـوب، ولكنَّنـا كنَّـا نذهـب إلى العقبـة بعيـادات متنقِّلـة، أمَّـا الطَّفيلـة؛ التـي تقـع في المسـافة بـين الكـرك ومعـان؛ فكانـت -كـما ذكـرتُ- مدينـةً صغـيرة جـدًّا، أشـبه بالقريـة، وليـس لهـا مـن صفـات المدينـة إلَّا الاسـم. وتتناثـر حولهـا عديـد مـن القـرى والمراكـز، أهمهـا مركـز "الشـوبك" و"عنيـزة"، وكانـا مركزيـن مُهِمَّـيْن بالنسـبة لنـا؛ فقـد كانـا إلى الجنـوب الغـربي منهـا، وتـأتي تلـك الأهمِّيَّـة مـن كونهـما عـلى طريـق المقاتلـين عندمـا يذهبـون في عمليـات عسـكرية إلى الضفـة، وكان لا بُـدَّ مـن تأمينهـم في ذهابهـم وعودتهـم.

كنـت قـد فهِمـتُ مـن "الحكيـم" أن الكثيريـن مـن قاطني جنـوب الأردن مـن البدو، وكثـير منهـم لم يَكُـن ولاؤه للوطـن، ولكـن الـولاء الأكـبر كان في كثـير مـن الحـالات لمـن يدفـع أكـثر! وكانـت إسرائيـل -دائمًـا- عـلى اسـتعدادٍ للدفـع. كان الـدَّورُ الـذي تقـوم بـه العيـادة في هـذه المنطقـة مُختَلِفًـا عـن الـدور الـذي تقـوم بـه عيـادات المقاومـة في كل أنحـاء الأردن؛ لقـد كان دورًا سياسـيًّا أكـثر منـه طبيًّـا...

كنـا نتناقـش مـع الحكيـم -دائمًـا- حـول الهـدف مـن العمـل الطبـي، وكان يقـول إن الهـدف مـن العمـل الطبـي في جميـع أنحـاء العـالم هـو الجانـب الإنسـاني، ولكنَّنـا هنـا لا نبحـث عـن مجـرَّد العمـل الإنسـاني بقـدر مـا نخـدم العمـل العسـكري.

وهكـذا، حتـى لا تضيـع منَّـا البوصلـة في خِضَـمِّ عَمَلِنـا المتواصـل؛ كنَّـا نقـوم بانتقـاء مواقـع العيـادات

الثابتـة والمُتَنقِّلَـة بعنايـةٍ، ودِقَّـةٍ فائقـة، بحيـث تشـمل الطريـق المـؤدِّيَ إلى غَـوْر الأردن.

ولم يكـن عملنـا مقتـصرًا عـلى مـا نقدِّمـه للمقاتلـين، بل كُنَّـا نُقـدِّم الخدمـات الطبية لسُـكَّان هـذه المناطـق، وكانـت تعليـمات الحكيـم لنـا تقـضي باتِّبـاع أسـلوب غـير تقليـدي في معاملـة هـؤلاء السـكان (وبخاصَّـةٍ في الأماكـن ذات الحساسـية الخاصـة). كان هـذا الأسـلوب يقـضي بتفضيـل إعطـاء الـدواء في شـكل حُقَـنٍ، والغيـار عـلى أيَّـةِ جـروح يوميًـا في العيـادة، حتـى ولـو كان الـدواء مُتاحًـا عـلى هيئـة شرابٍ أو حبـوب! كان الغـرض مـن هـذه التعليـمات أن نحافـظ عـلى ارتبـاط أبنـاء تلـك المناطـق النائيـة -دومًـا، وبقـدر الإمـكان- مـع عياداتنـا، كنَّـا عندمـا نـترك العيـادة أو نتحـرَّك بهـا مـن هـذه المناطـق البعيـدة عـن المستشـفيات أو المراكـز الطِّبِّيَّـة الأردنيـة، فـإن المريـض يلجـأ إلى مُمـرِّض المسـتوصف، الـذي لم يكـن مهـمًّا أن يكـون مـن الكـوادر الطبيَّـة بقـدر مـا هـو مهـمٌّ أن يكـون مـن الكـوادر السياسـيَّة المدرَّبـة. كان هـذا الممـرض يقـوم بعمـل الشـاي والقهـوة -وبخاصـة القهـوة؛ لأن لهـا معنـى خاصًّـا لـدى البـدو- لمرضـاه الذيـن يأتـون بعـد انتهـاء فـترة عمـل العيـادة؛ لأخـذ الحقـن، أو عمـل الغيـارات عـلى الجـروح، أو غيرهـا مـن الأعـمال التمريضيـة التـي يجيـد أداءهـا. كانـت التعليـمات أن يُحسـن اسـتقبال المـرضى، ويجلـس معهـم -مـا اسـتطاع- للحديـث عـن المقاومـة، والـدور الـذي تقـوم بـه، وأهميـة هـذا الـدور.

وكلَّـما زادت حساسـية المـكان كنَّـا نكثِّـف زياراتنـا لـه بواسـطة العيـادات المتنقلـة. لم يكـن هنـاك عـدد كافٍ مـن الأطبـاء، وكنـت أنـا والحكيـم نـزور هـذه الأماكـن مسـتخدمين سـيارة الإسـعاف.

كان العـدو الإسرائيـلي قبـل أن تنتـشر العيـادات التابعـة لنـا -في تلـك الأيـام- يرتـع في أجـواء الجنـوب الأردني بطائـرات الهليكوبـتر، ولم تكـن هنـاك قُـوَّاتٌ مـن الجيـش لِتُدافِـعَ عـن حُرمَـةِ هـذه الأراضي والأجـواء؛ فـكان الجـوُّ مسـتباحًا ومُسـتَحَلًّا لإسرائيـل؛ لتسـتهدف الأماكـن وبعـض السـيارات.

لهـذا كانـت نصيحـة القيـادة العسـكرية لنـا ألَّا تكـون سـيارات الإسـعاف التـي نسـتعملها بيضـاءَ اللـون؛ فكانـت سـيارات الإسـعاف في الجنـوب تختلـف عنهـا في أي مـكان آخـر، كانـت تتميَّـز بلـونٍ بُنِّـيٍّ فاتـح، بحيـث تبـدو مثـل أيَّـةِ سـيَّارةٍ عادِيَّـة؛

تمويهًا على العدو؛ فلا يُمكِنُ رَصدُها من الجو، وذلك بعد وصول معلومات للقيادة بأن العدو ينوي استهداف سيارات الإسعاف عندما شعر بتعاظُم دور الخدمات الطبية في التوعية والحشد ضدَّ العدو؛ فكنَّا مستهدَفين: الحكيم، وأنا من بعده. كنَّا نستخدم طريقة بدائية لاستنطاق الأفراد الذين نَشُكُّ في خيانتهم، ولا يتقدمون طوعًا للإدلاء بالمعلومات، كنَّا نخدِّرهم تخديرًا جُزئيًّا باستخدام كمية محدودة من مادَّةٍ مخدِّرة تُحقن في الوريد بحيث يذهب وَعيُه، وعندما يبدأ الشخص في العودة تدريجيًّا لوعيه نقوم باستجوابه. كثيرون ممَّن اتَّبعنا معهم هذه الطريقة في الاستجواب أدلى بالكثير من المعلومات؛ كانوا يمدُّوننا بأسماء الجواسيس الآخرين، وذلك كان يساعدنا كثيراً في عملنا؛ فعملنا الطبي لم يكن عملا إنسانيًّا بحتًا، لكنه كان في خدمة العمل العسكري أوَّلًا، وفي خدمة العمل السياسي ثانيًا.

كنت أرفض هذه الممارسات في أعماقي؛ حيث اعتبرتها -وما زلت- غير أخلاقية، وتتنافى مع قسم أبيقراط الذي أقسمناه كأطباء، لكن بالنظر إلى الظروف وقتها؛ أعتقد أنها كانت أمرًا حتميًّا، طبقًا لقاعدة دفع الضَّرر، الذي كان كثير منه يقع بسبب هؤلاء الخونة، إذ سقط عشراتٌ من شباب المقاومة شهداء بسبب وشاياتهم للعدو الصهيوني.

العمل العسكري في الجنوب

كان الفدائيون يقومون بعمليات مؤثِّرة وموجعة ضد العديد من الأهداف الإسرائيلية، خاصة المصانع الموجودة في وادي عربة، كانت عمليَّاتٍ نوعيَّةً مدروسة يقوم بها الضُّبَّاطُ المصريُّون. ولأن منطقة الجنوب كانت أعلى من وادي عربة؛ فقد كنَّا نشاهد ما يحدث من إظلام في وادي عربة مع بداية العمليات التي يشنُّها الشباب، والتي كانوا يتفاخرون بها ويتنافسون للمشاركة فيها. كان المشهد أشبهَ بفيلم سينمائيٍّ، ولم تكن القيادة العسكرية في الجنوب تطلب من الأطبَّاء التَّواجُدَ على أطراف منطقة العمليات، كما في الشمال، ولكن بسبب انبساط الأرض نسبيًّا في وادي عربة فكانت القيادة تعتبر وجودَ طاقم طبي قد يكون معوقا في الحركة لحماية هذا الطاقم ويعتمدون على سياراتهم لنقل الجرحى ويبلغونا فقط

بالاستعداد .وتقلَّصت عمليات استخدام الهليكوبتر التي كانت تستبيح الجنوب؛ فبعد تواجد قوات الثورة الفلسطينية؛ لم يعد الإسرائيليون يجرأون على القيام بصولاتهم وجولاتهم التي كانوا يتمتعون بها من قبل.

المؤسف في الأمر أنه رغم تقديمنا لخدمات كبيرة لأهالي هذه المناطق -وكان أغلبيتهم من البدو- إلا أن كثيرين منهم كانوا يُكِنُّون نوعًا من العداء لنا؛ للفدائيين على وجه التحديد، وكان زعماء العشائر والقيادات الموجودة هناك شديدي العداء لنا؛ لأسباب متباينة، وقد قوبِلتُ -ومَن معي- في مرَّات كثيرة بمظاهرات تُطالِبُ بقتل الإرهابيين (يقصدون: الفدائيين) الذين نحن جزء منهم.

كنَّا نأخذ معنا كَمِّيَّات ضخمة من الأدوية، ونتعامل مع المواطنين هناك بمنتهى الرقَّة، ورغم حرصنا على ارتداء الزِّيِّ العسكرية، لكننا كنَّا نتجنَّب حمل السلاح عند دخولنا إلى العيادات، نتركه -دائمًا- في السيارة أو العيادة. وكان الممرِّضون الموجودون -في العيادة- من العناصر المدرَّبة على أن تحمي نفسها عند الضرورة. ونحن كان قد تم تدريبنا على استخدام السلاح؛ بحيث نستطيع أن ندافع عن أنفسنا في مواجهة الأخطار التي يمكن أن تُواجِهَنا. كنَّا نحن -القيادة الطبية- في مناقشاتنا مع القيادة العسكرية نزعم أننا نستطيع كَسبَ هؤلاء الناس، واستمالهم لصفِّنا، وقد كسبنا بعضهم بالفعل، وظهر ذلك جَلِيًّا فيما بعد، عندما دافع الأهالي -في غالبيتهم- عنَّا في مواجهة الجنود المجازين[1]، القادمة من عمَّان؛ فقد كنا قد استطعنا أن نؤثِّر في عدد كبير منهم، ببذل مزيد من الجهد والوقت، على الرغم من أن مجرَّد الذهاب إلى هناك -في هذه الآونة- كان يُعَدُّ مُخاطرةً كبيرة.

تحوُّلات

بداية انقلاب السُّلطة الأردنية وقُوَّات الجيش على الفدائيين أَتَت من الجنوب، قبل أن تصل إلى عمَّان فيما بعد، بمحاولة تأليب العناصر البدوية في الجنوب على الفدائيين، رغم أن من بين زعماء العشائر في الجنوب الكثير من الوطنيين، الأكثر

(1) المقصود بالجنود المجازين هم الجنود (من أبناء بدو الجنوب في الغالب) الذين كانت تمنحهم قيادة الجيش إجازات -حتى في غير أوقات الإجازات المعتادة- ليعودوا لمنازلهم في الجنوب، مع إصدار توجيهات لهم لكي يقوموا بإثارة القلاقل ضد الوجود الفدائي هناك، وكانت توضع لهم الخطط، وتوزَّع المهام عليهم في سبيل تنفيذ ذلك.

فهمًا للأوضاع ممَّا يتصوَّر بعض الناس. كان من العُرف أن زعماء العشائر يبعثون برقيَّاتٍ للملك في كل أزمة سياسية أو عسكرية- بالتأييد، وتأخُّر مثل هذه البرقيات كان له معنًى ودلالة بالنسبة للسُّلطة، وقد حدث -في خلال أزمة أو هوجة فبراير- أنَّ برقيات التأييد تأخَّرَت إلى حدٍّ ما؛ ممَّا بثَّ القلقَ في دوائر الحكم في عمَّان، وكانت التعليمات لزعماء العشائر -الذين يقيم معظمهم في العاصمة- بأن يذهبوا للبقاء في أماكنهم. وبدأت زيارات مشبوهةٌ يقوم بها بعض المسؤولين الكبار للعشائر والقرى، ويعرضوا على البدو أن يسلِّحوهم لتكوين تنظيمات تحت مسمَّى المقاومة الشعبية، وبالفعل، راح بعض الأهالي ينضمُّون تحت لواء هذه التنظيمات، وكان القليل منهم مَن يفهم أن هذه المقاومة الشعبية مقصودٌ بها -في النهاية- مقاوَمَةُ الفدائيين، ولكن أكثرهم كان يعتقد أن وجود مزيد من السِّلاح يعني مزيدًا من القوة. ولم تقف الثورة الفلسطينية موقفًا مُعاديًا لعملية المقاومة الشعبية. وأبرز الزيارات التي قام بها المسؤولون الكبار هي زيارة وليِّ العهد الأمير الحسن لِمُدُن الجنوب. وقد ذهب وليُّ العهد إلى الطَّفيلة في صيف 1970، حيث اجتمع بزعماء العشائر، ورئيس بلدتها الشيخ عبد الله العوران. تَمَّ الاجتماع في مبنى موتور الماء والكهرباء، الذي يقع على مدى البصر من القيادة الفلسطينية والعيادة الطبية؛ حيث مَقرِّي أنا والحكيم.

في اجتماعه بهم، حاول الأمير الحسن استفزازَ مشاعر الشيوخ، عندما قال لهم إنه كان يتصوَّرهم أهل شَهامَة، لا أن يتركوا بناتهم لأيدي الأغراب؛ أي الأطباء المصريين، حيث كان جزءٌ كبيرٌ من المرضى من النِّساء والفتيات، وكان التَّعامُل معهم بكلِّ رفقٍ وأدب؛ ممَّا جعل الكثيرات منهنَّ يُفضِّلنَ العلاج في عيادة الفدائيين، بعلم ذويهم بالطبع. عندئذ أجابه أحد الشيوخ بأن هؤلاء أشرفُ ناسٍ، ولم يكن الرجل يتحدَّث عن الحقيقة فقط، ولكنه كان يدافع عن شرف عائلاتهم؛ لأنَّه يعلم أن أهل منزله يُفضِّلون الذهاب إلى عيادة الفدائيين؛ لِمَا يجدونه من معامَلَةٍ طيبة، وخدمة طِبِّيَّة جيِّدة، واحترام لهم؛ لذلك كان الشيوخ يدافعون عن عيادات الفدائيِّين.

في الحقيقة، لم تكن العلاقة بيننا وبين أهالي المنطقة مثالية طوال الوقت، فحسب الطبيعة البشرية كانت تقع بعض الاحتكاكات -بين الحين والآخر- بين بعض الجنود وأفراد من القبائل المختلفة والفدائيين، لكننا كنَّا نحتويها من خلال

القانون العشائري الذي تُنفِّذه "الجاهة"، وهو مصطلح يطلق على المجلس الذي يضمُّ مجموعة من وجهاء القوم من الطرفين، يجتمعون معًا في جلسة لمناقشة الموقف وأسبابه، وما يُتَّفق عليه يُعتبر أمرًا واجب النفاذ على الطرفين كليهما، وكنت أنا والحكيم نحضر "الجاهة" -دائمًا- منفردَيْن، أو مجتمعين؛ حيث إن الأطباء -في العموم- كانوا يتمتَّعون باحترامٍ كبيرٍ في منطقة الجنوب.

عندما تَطوَّر النِّقاش بين الأمير الحسن وشيوخ العشائر طلب الأمير منهم أن يعملوا على إخراج الفدائيين من المنطقة، فأجابه رئيس البلدية بشكل قاطع، قائلًا: "عندما تخرجونهم من عمَّان؛ نُخرِجهم نحن من هنا"! وفشل هذا الاجتماع، وعاد الأمير الحسن غاضبًا...

مشكلة معان

في أثناء ذلك كان الشيخ فيصل الجازي -شيخ الحويطات أكبر قبائل الجنوب- يقوم بعمليات مشبوهة لاستقطاب الشباب وتكوين تنظيمات، وكان يُنظِّم اجتماعات يتمُّ فيها الإساءة إلى المقاومة الفلسطينية، وإثارة النَّخوَة عند البدو، بإشاعة أنَّ وجود الفدائيين عارٌ على الشَّهامَة البَدويَّة في هذه المنطقة، وكان الهجوم يتركَّز على التَّواجُد الطِّبِّيِّ أكثر ممَّا هو على التواجد العسكري؛ حيث إن العسكريين كانوا يتجنَّبون الظهور بملابسهم العسكرية داخل القرى، وكانت السُّلطَة تعلم تمامًا تأثيرَ القطاع الطبي الذي يقوم بعمل سياسيٍّ، إلى جانب عمله الطبي؛ لتجميع الجماهير وحشدها حول الثورة الفلسطينية. والشيخ فيصل الجازي كان يستمدُّ نفوذَه من السُّلطَة الأردنية، وقد كان خالَ اللواء مشهور حديثة رئيس أركان الجيش الأردني، وهو وبهجت التلهوني كانا من أشهر رجالات السلطة الذين أتوا من الجنوب، والحقيقة أن الرَّجُلَيْن -برغم مَنصِبَيْهِما الكبيرين- كانا صاحِبَي موقفٍ معتدل من قضية الثورة الفلسطينية.

وفي بلدة معان، ذات الوضع الاستراتيجي الخطير بالنسبة للفدائيين؛ حيث إنها في مفترق الطرق التي تَصِلُها بالخليل، ويقطنها الكثير من الفلسطينيين المهاجرين منذ عام 1948 من الخليل وغزَّة- استطاعَت السُّلطَةُ الأردنيَّة تَسييرَ مُظاهَرةٍ من

الجنـود المُجازيـن، معهـم عـدد مـن عُمَـلاء السُّـلطَة، عـلى رأسـهم صبـاح كريشـان، الـذي تحـوَّل مـن مُجـرَّد سـائِق حافِلَـةٍ إلى مالِـكٍ كبـير ورَجُـلِ أعـمال!

لم يكـن للمُنظَّـمات الفدائيـة في معـان -في ذلـك الوقـت- إلَّا ثلاثـة مكاتـب: واحـد لحركـة فتـح، وثـانٍ للجبهـة الشـعبية، وثالـث للصَّاعقـة، وكلهـا تعمـل في نطـاق الأرض المحتلَّـة؛ فمعـان تقـع عـلى الطريـق التاريخـي للقوافـل بـين الخليـل والحجـاز، وبـين غـزة والحجـاز؛ ومـن هنـا كانـت أهميتهـا الاسـتراتيـچية بالنسـبة للفدائيـين. ولأوَّل مـرَّة في تاريـخ الجنـوب عَلَـت أصـواتٌ تهتـف ضـدَّ الفدائيـين والوجـود الفـدائي. طَـرَقَ المُتظاهـرون (وغالبيتهـم مـن "الجنـود المجازيـن") أبـوابَ البيوت، وسَـبُّوا الفلسـطينيين. وطالبـوا بطردهـم مـن البلـدة، وأطلقـوا أعـيرةً ناريَّـةً في الهـواء.

توتَّـر الجـوُّ في المدينـة كُلِّهـا، ووقـع تبـادُلٌ لإطـلاق النـار في الهـواء، كـما تبودِلَـت الاتِّهامـات، واسـتمرَّت حالـة الاضطـراب المُفتَعَـل ثلاثـةَ أيَّـام. كثـيرٌ مـن الأهـالي -بعضهـم مـن الفلسـطينيين، أو الأردنيـين الأكـثر وعيًـا- كانـوا يتَّصِلـون بنـا في الخَفـاء، ويعرضـون خدماتهـم، وبعضهـم أبـدى اسـتعدادَه لتهريـب الشـباب، فقوبِـلَ هـذا برفـضٍ شـديدٍ وحاسِـمٍ؛ إذ كيـف نـأتي إلى الجنـوب ونحـن نعلـم أنهـم في غالبيتهـم معـادون للفلسـطينيين بشـكل عـام والثـورة بشـكل خـاص؛ لأن غالبيـة سـكان الجنـوب مـن البـدو- ثـم نـترك سـاحة نضالنـا ونفـرُّ!

أمكـن بعـد ذلـك السـيطرة عـلى الأوضـاع، بالتعـاون بـين قيـادة قـوات العاصفـة في القطـاع الجنـوبي، وبـين رئيـس بلديـة معـان: الشـيخ معـن الـشراري، وبـين محافـظ معـان، ومديـر الشرطـة فيهـا، اللَّذَيْـن أَبْدَيَـا تعاوُنًـا كبـيرًا لتقريـب وجهـات النظـر والسـيطرة عـلى الحالـة الأمنيـة.

الحقيقـة أن مـا حـدث مـن الجنـود المُجازيـن في هـذه الأحـداث لم يكـن لـه أي داعٍ؛ وقـد عارضهـم الأهـالي وكثـير مـن المسـؤولين المقيمـين في الجنـوب؛ لأنَّهـم -كـما قالـوا هـم- لم يـروا في عمـل الفدائيـين بالجنـوب، وخاصـة المنتمـين منهـم للقطـاع الطبـي أي عمـل يـسيء لهـم.

وتفسـيري لمـا حـدث مـن قلاقـل أثارهـا هـؤلاء الجنـود، الذيـن دُفعـوا مـن قياداتهـم بالجيـش للقيـام بذلـك، هـو أن مشـاكل الجنـوب كانـت عـادةً ردَّ فعـلٍ لمشـاكل تقـع في عـمَّان، وفي هـذا السـياق لا يمكـن تجاهـل تأثـير قبـول عبـد النـاصر لمبـادرة "روجـرز"

في هـذه الآونـة عـلى الشـارع في عـمّان؛ إذ أُوقـف القتـال عـلى ضفَّتَـي القنـاة بموجـب قبـول المبـادرة، وكان هـدف القيـادة المصريـة في هـذه المرحلـة هـو اقتنـاص الفرصـة لبنـاء حائـط الصواريـخ. صحيـح أن المبـادرة كانـت بالنسـبة لإسرائيـل فُرصـةً لالتقـاط الأنفـاس، لكنهـا لم تكـن تَحظـر عـلى الطـرف المـصري أيَّـةَ تشـكيلاتٍ عسـكريَّة، أو اسـتعدادات عـلى الجانـب الغـربي مـن القنـاة، وقـد اسـتغلَّت القيـادة المصريـة هـذا الوضـعَ بِنَقـلِ الصَّواريـخ المُضـادَّة للطائـرات إلى غـرب القنـاة؛ مـمَّا أعطـى مسـاحة أكـبر للقُـوَّات في التحـرُّك إلى شرق القنـاة بـدون خـوف مـن الطائـرات الإسرائيليـة، كانـت هـذه هـي الخلفيـة الإقليميـة التـي واكبتهـا الأحـداث التـي وقعـت في عـمَّان، في ظـل وجـود بعـض فصائـل الثَّـورة التـي يمكـن وصفهـا بالتطـرُّف، ووصـف بعـض تصرُّفاتهـا بالطفولـة اليسـارية، حتـى إن بعـض الحـركات الثوريـة "التَّقدُّميَّـة" كانـت تتنافـس في محاولـة إظهـار الثوريـة، وتلجـأ في هـذا إلى المزايـدة عـلى بعضهـم البعـض، سـواء برفـع الشـعارات الصارخـة، أو بالمقـالات ذات النـبرة العاليـة، ولا أنـسى مـا رآه النـاس في عمَّان: حـمارٌ كبـير يجـوب الشـوراع، مكتـوبٌ عـلى جسـمه اسـم عبـد النـاصر، ومجموعـة مـن الأطفـال يتقافـزون حولـه ويهتفـون ضـدَّ القيـادة المصريـة، وضـدَّ خيانَتِهـا!

أبـدت القيـادة المصريـة امتعاضهـا الشـديد للحكومـة الأردنيـة مـن هـذه الأحـداث المشـينة، وهـو مـا اسـتغلته القيـادة الأردنيـة بشـكل يخـدم أهدافهـا الخاصـة أيضًـا، فقـد وجـدت في هـذا مُـبرِّرًا لمحاولـة فـرض سـيطرتها الأمنيـة عـلى الأوضـاع؛ إذ كانـت قـوات المقاومـة تتعامـل بِندِّيَّـة شـديدة مـع القـوات الحكوميـة في الشـوارع.

عـلى الجانـب الآخـر كان تقييمنـا -نحـن الشـباب- لمـا حـدث هـو أن المُخطَّطـات الأمريكيـة والإسرائيليـة تلتقـي مـع مخططـات الرَّجعيَّـة العربيـة، وكان ذلـك مُـبرِّرًا كافيًـا لنـا لـكي نقـوم بـكل مـا يمكـن للدفـع في اتجـاه مُنـاصَرة الثـورة الفلسـطينية؛ برغـم الأخطـاء التـي قامـت بهـا بعـض الفصائـل.

ونتـج عـن هـذه الأحـداث -سـواء في عـمَّان أو معـان- أن قـرَّرَت قيـادة القطـاع الجنـوبي تكثيـف العمـل السـياسي في مدينـة معـان، وتكثيـف العمـل السـياسي يعنـي لدينـا أن نزيـد مـن الخدمـات الطِّبِّيَّـة التـي نقدِّمهـا أوَّلًا، ومـا يتبعهـا مـن نشـاط الشـباب المُمرِّضـين والأَطِبَّـاء، بدأنـا نبحـث عمَّـن يُؤجِّرنـا مكانًـا لإقامـة عيـادة شـعبية، ولم يكـن ذلـك سـهلًا بعـد مـا حـدث... وجدنـا بيتًـا قديمًـا في حـارة الشراريـة في معـان،

يملكه مُدرِّسٌ عائد من الخارج، وكان على استعدادٍ لتقديمه لنا بلا مُقابِل. كُنَّا نرفض -دائمًا- قبول أي شيء بلا مقابل، وأصررنا على أن نحرِّر عقدًا، وأن ندفع الإيجار مُقدَّمًا، وافق المُدرِّس أمام إصرارنا، وبدأنا الاستعداد لتأثيث العيادة، ولم تَمُرَّ إلَّا بضع ساعات حتى اتصل بنا معتذرًا بأن عشيرته كلها ترفض تأجير البيت لنا. طلبنا الاجتماع مع شيوخ العشيرة لمناقشتهم في الأمر؛ محاولين إقناعهم، وعُقِدَ الاجتماع، واستمر أكثر من يومين، لم نتطرَّق أثناء المفاوضات إلى أن لنا حَقًّا ناتجًا عن امتلاكنا عقد الإيجار باعتبارنا مُتعاقِدين، لكنَّنا كنَّا نركِّز على حقِّنا -باعتبارنا عربًا نجاهد من أجل فلسطين- في أن نقيم في البلد، وفي حماية أهلها أيضًا، وبعد أكثر من يومين وافَقَ شيوخُ العشيرة، واستأجرنا الدار بلا شروط.

كنَّا نعمل في العيادة ثلاثة أيام في الأسبوع، وهو نظام مُكثَّف؛ لكونها مدينة، ولأننا نريد استباق العناصر المعادية التي كانت نَشِطَةً في تجنيد عناصر جديدة. وسرعان ما انتقلنا من العمل الطبي إلى إقامة الندوات الجماهيرية السياسية. كان ذكاء المقاومة أكبر وأسرع من قدرة هؤلاء الذين يحاولون الوقيعة بين الفدائيين والمواطنين من أهل الجنوب، فقد كان الموقف في عمَّان خطيرًا، وإذا حدث وأُصيب أو قُتل أحد الجنود في عمان من إحدى قرى أو مدن الجنوب، فإن أهله -في الجنوب- يرتِّبون له جنازة، ويحدِّدون موعدًا، وتقوم العشيرة بلقاءات ومسيرات وتظاهُرات. وكنَّا نحن -في الجنوب- نبذل قصارى جهدنا لكي نحتوي مثل هذه المشاكل التي تقع في عمَّان وينعكس أثرها في الجنوب؛ لذا فإن دور رجل المطافئ الذي كنا نقوم به في هذه الفترة كان واحدًا من أهم الأدوار التي مارسناها بالفعل، وأذكر أنني كنتُ -يومًا- أحضر أحد مجالس الصلح بصفتي "عضو جاهة" عن العمل الفدائي؛ بسبب مقتل طفل بالخطأ في حادث سيارة كان يقودها أحد الفدائيين، سارعنا إلى دفع الدِّية، وقد بذلت مجهودًا كبيرًا من أجل إتمام الصُّلح، ولحسن الحظ قبل أهل الطفل المتوفَّى الدية، وأُطفئ حريق -ربما كان ليتأجَّج بشدة- قبل أن يشتعل... كذلك، في أحد الأيام، بعد إحدى الندوات الجماهيرية التي حضرها مسؤولون من عمَّان، وقيادة القطاع الجنوبي لقوات العاصفة، طُفنا مع الإخوان -بحسب العادة- على بعض بيوت الوجهاء؛ تلبيةً لدعواتهم لشرب القهوة، في إحدى هذه الزيارات؛ أشار واحد من الحاضرين -من أهل معان- مستنكرًا أن أحد الفدائيين أرسل بذلته العسكرية للمصبغة للغسيل والكي، ودفع

لقاء ذلك أربعين قرشًا، وهو مبلغ زهيد جدًا؛ الأمر الذي اعتبره المتحدِّث نوعًا من أنواع أخذ الأشياء غصبًا من أبناء المنطقة من قبل الفدائيين، وفي هذا تعدٍّ صارخ -من وجهة نظره- على عاداتهم وتقاليدهم؛ لذا تقرَّر -فورًا- نقل هذا الفدائي من المنطقة كلها، وشَكَرنا الشَّيخَ على ملاحظته. كانت هذه نماذج من مشاكل نجحنا في وأدها قبل أن تتفجَّر، وهناك غيرها كثير...

أحداث تتسارع في الجنوب

كنت -دائمًا- أشارك أطبَّاء مستشفى الطفيلة في إجراء العمليات الجراحية؛ أساعد في بعضها، وبعضها أقوم به وحدي، وبعضها يساعدني فيه الآخرون، وكان أن أُصيبَت ابنة مفتي الجيش الأردني بنزيفٍ يتطلَّب جراحةً عاجلة لها في مستشفى معان، وقرَّر الأطبَّاءُ ضرورة نَقْل ألف سنتيمتر مكعَّب من الدم لها قبل العملية، كان نَقْلُ الدَّمِ في الأردن يُمثِّل مشكلة؛ لأن معظم الأردنيين في ذلك الوقت كانوا يتصوَّرون أن من يتبرَّع بالدم يمكن أن يموت، لكن الفدائيين لم يتأخَّروا عن التبرُّع وتوفير الدم اللازم، كان لهذا الموقف أثر كبير؛ ممَّا دفع المفتي أن يدعو لهم علنًا أثناء صلاة الجمعة التالية.

وأُصيبَت ابنة رئيس المجلس البلدي في الطفيلة -ذات يوم خلال تلك الفترة- بخُرَّاج في الثدي؛ وكان لا بُدَّ من عمل جراحة لها، ولأنها ابنة شخصية مهمَّة؛ فقد أُرسلت إلى عمَّان، ولكن لم يتمكنوا من الوصول بها إلى هناك؛ حيث كانت الظروف متوتِّرة، والطرق مقطوعة؛ فعادوا بها إلى الطفيلة، ولم يجدوا أطباء في المستشفى العام، فتطوَّعت أنا لإجراء الجراحة، وعاوَنَني الحكيمُ في التخدير.

وأثناء وجودنا في المستشفى الحكومي -حيث أُجريت العملية الجراحية- جاء مَن يبلغنا أن السائقين العائدين من عمَّان يقولون إن جنديًّا أردنيًّا من منطقة الشوبك قد قتله فدائيون أثناء عودته من عمَّان إلى قريته، وأنَّ التَّوتُّرَ يسود الجنوب كلَّه.

تأكَّد لنا النبأ؛ فطلبنا من الفدائيين عدمَ التحرُّك على الطرق حتى نتبيَّنَ ما حدث، وترك الحكيمُ الطَّفيلَة، متوجهًا إلى الشوبك بسرعة، ومعه أحد الشباب

يقـود "اللاندروفـر"؛ كان مُقاتِلًا، لكنـه أُصيـبَ في سـاقه في إحـدى العمليـات، غـير أنـه آثـر البقـاء في القطـاع، وعمـل معنـا سـائقًا... وكان هـذا آخـر عهـد الحكيـم بالطُّفيلـة، وبدايـة خيـوط المؤامـرة.

في نحـو العـاشرة مـن صبـاح الثـاني مـن أيلـول/ سـبتمبر؛ كانـت سـيارة "سِرفيـس" قادِمَـةً مـن عـمَّان إلى معـان، السـيارة تُقِـلُّ جُنديًّـا، وأخـاه، وزوجـة أخيـه وابنتهـما الشـابة، وراكبًـا خامسًـا غـير السـائق،

اعـترضَ السَّـيَّارةَ -عنـد موضـعٍ يُسـمَّى "ملجـأ العجـزة" أو "قاعـدة الشـهيد حسـن سـلامة"- حاجِـزٌ لمسـلَّحين يرتـدون زيَّ الفدائيـين، كان الجنـديُّ يحمـل بندقيـة كـما كانـت تقتـضي أوامِـرُ الجيـش وقتئـذ، أمـره المُسـلَّحون بالخـروج مـن السـيارة، وبِمجـرَّد نزولـه إلى الأرض أطلقـوا عليـه النـار في منتصـف الطريـق، وأخـذوا البندقيـة، وطوَّحـوا بهـا داخـل الحـرش المجـاور، ثـم أمـروا السـائق بمواصلـة السـير، والسـيارة تحمـل بقيـة الـركاب؛ وهـم أسرة الجنـدي والراكـب والسـائق، وكان هـذا تَصرُّفًـا غَبيًّـا لا معنـى لـه؛ حيـث كانـت تعليـمات القيـادة للشـباب -خاصَّـةً في ظِـلِّ التَّوتُّـر السـائد- تحثُّهـم عـلى ضبـط النفـس، بخـلاف أنـه تأكَّـد لنـا مـن مصـادر محايـدة أن الجنـدي لم يَقُـمْ بـأي عمـل عـدائي. مضـت السـيارة في طريقهـا تذيـع النبـأ في كل مـكان، بـل تسـتوقف السـيارات المُتَّجِهَـة إلى عـمَّان وتـروي لهـا القصـة، وراحـت السـيارات تنـشر النَّبـأَ في كل قـرى الجنـوب وبيوتـه. تَحـرَّك عـرب الحجايـا عنـد منطقـة القطـران لقطـع الطريـق الـدولي، وتصـادف مـرورُ سـيَّارَةِ تموينٍ لحركـة فتـح، فيهـا عنـصران مسـلَّحان، فاحتجزوهـما، والسَّـيَّارة.

كان الجنـدي القتيـل مـن عشـيرة الروافعـة، مـن قريـة "بيرضـداد" مـن منطقـة الشـوبك.

ومنطقـة الشـوبك تقـع عـلى مشـارف وادي عربـة، لكنهـا منطقـة زراعيـة غنيـة، وفيهـا مدرسـة زراعيـة عُليـا، وقُراهـا متناثـرة، وتسـكنها عشـائِرُ حَـضَر، ويتجـوَّل في أراضيهـا وحواليهـا عشـائر بـدو. كانـت العيـادة تقـع عـلى بُعـد أربعـة كيلومـترات مـن المدرسـة الزراعيـة التـي تَضُـمُّ عـددًا مـن المدرسـين الفلسـطينين والأردنيـين المتعاطفـين مـع الثـورة الفلسـطينية، وهـم يقيمـون مـع أُسَرِهـم داخـل المدرسـة. في منطقـة الشـوبك -أيضًـا- مشروعـات زراعيـة وسـكنية تبنيهـا السـلطة الأردنيـة وتُملِّكهـا لضبـاط

الجيش؛ خصوصًا ضُبَّاط المدرَّعات، ومعظمهم ينتمون إلى عشائر الحويطات، وفيها كانت مزرعة لقائد سابق للحرس الملكي كُنيَتُه "أبو جميل". دعا "أبو جميل" شيوخَ العشائر في الشوبك للاجتماع في المساء للبحث في حادثة مقتل الجندي، غابت الشمس، وكان الحكيم وثلاثة آخرون من الأشبال قد وزَّعوا أنفسهم للحراسة: اثنين في مقر القيادة، والآخرين في محيط المقر، الذي كان عبارة عم كوخ من سقف وثلاثة جدران، والجدار الرابع هو كتف الجبل، وأمامه باحة مسوَّرة بأحجار مكوَّنة ما يشبه الحاجز العسكري. عند الحادية عشرة مساءً جاء أحد الأشبال باثنين من أهل الشوبك وجدهما يتسلَّلان إلى المكان، عرفهما الحكيم، وأبلغاه قرارات اجتماع الشيوخ كما سمعاها من أبويهما؛ وهي: إجلاء قواعد الفدائيين من المنطقة، وإجلاء الفلسطينيين من المدرسة الزراعية، وإهانتهم، والثأر بقتل الطبيب! غير أن الشابَّين أكَّدا أن هذه كانت اقتراحات "أبو جميل"، الذي لم يستطع الشيوخ مُعارَضَتَه علنًا؛ خوفًا منه ومن علاقاته مع القصر، وأكَّدا -أيضًا- أن شيئًا من هذا لن ينفَّذ، ولن يسمح أحدٌ بوقوعه. أرسلهما الحكيم إلى المدرسة لتحذير الفدائيين هناك، وللتنبيه عليهم بعدم التَّحرُّك، وطلب منهم اختيار مَن يمكن أن يحمل رسالة إلى عمَّان دون أن يعترضه أحد.

وفي الثانية عشرة ليلًا وصل من معان عددٌ من الفدائيين الذين سمعوا بالحادث، وخافوا أن يحدث رَدُّ فعلٍ فوريٍّ ضدَّ الحكيم ورفاقه؛ فأتوا بسيارة مسلَّحة عليها رشاش جرينوف، وكانت هذه غلطة استفزازية، لا تفيد بحال من الأحوال. قضوا بعض الوقت مع الحكيم ورفاقه يتداولون، ثم اتفقوا على عدم التَّصرُّف كمُتَّهمين. أجمعوا على مراعاة مشاعر السكَّان، وعدم الانسحاب من أي موقع أيًّا ما كان الخطر عليه؛ لأن الانسحاب معناه نهاية ما بُني، وعدم إطلاق النار على الجماهير حتى لو كانت تطلق النار عليهم، وأن الدفاع عن المواقع بالسلاح لن يكون إلَّا في حال التَّعرُّض لهجوم من قوات الأمن أو الجيش. عند فجر اليوم التالي تحرَّك اثنان من الفدائيين إلى عمَّان عَبرَ طرق فرعية كانت مفتوحة، وحَمَلَا معهما رسالةً إلى القيادة تشرح الوضع، وتقترح تفويتَ الفرصة على أي عميل؛ بأن تطلب ما يُسمَّى -في أعراف البدو- بـ "عطوة تفتيش"؛ أي قبول الاتهام، ولكن مع مطالبة بتحقيق من المشايخ، وذلك بدلًا من تجاهل الأمر. وللأسف، جاء الرَّدُّ بعد يومين يرفض هذا الإجراء، متضمِّنًا توجيهًا به كثير

مـن الاسـتفزاز؛ إذ وجَّهـت القيـادة بـأن تقـوم الفدائيـون بتحذيـر الأهـالي مـن عواقـب أي مسـاس بالعنـاصر الموجـودة، ولكـنَّ الحكيـم فضَّـل ألَّا يُبلِـغَ أحـدًا بمضمـون الـرد.

مـضى النصـف الأول مـن نهـار اليـوم التـالي في حـوارٍ مُرهِـقٍ بـين الحكيـم وشـيوخ العشـائر، فـرادى ومجتمعـين. أكَّـد كلٌّ منهـم -عـلى انفـراد- عـدم موافقتـه عـلى قرارات الأمـس، بعـد أن عرفـوا مـن الحكيـم أنـه عرفهـا، ولكنهـم -مُجتمعـين- كانـوا يُـصِرُّون عـلى ضرورة فعـل شيءٍ مـا ينقـذ الموقـف.

كانـت السَّـيَّارة المُسـلَّحة التـي حـضر بهـا الفدائيـون مـن معـان لا تـزال تقـف إلى جـوار العيـادة، وقـد لاحظهـا الأهـالي، وصعـد الشـبل إليهـا، وأنـزل رشَّـاش الجرينـوف بتوجيـهٍ مـن الحكيـم. جـاؤوا -واحـدًا بعـد الآخـر- واعتـبروا أن هـذه البـادرة دليـل نوايـا طيِّبـة.

بعـد الظهـر أمكـن إرسـال رسـالة إلى عـمَّان مـع أحـد الفدائيـين مـن طلَّاب المدرسـة الزراعيـة، الـذي أكَّـد للحكيـم أنـه سيمرُّ بأمـان؛ لأسـباب عشـائرية؛ باعتبـاره مـن أبنـاء عشـيرة أردنيـة كبـيرة في الشـمال.

عنـد الغـروب تَوجَّـه الحكيـم إلى القاعـدة القريبـة في المنطقـة، عـلى بُعـد سـبعة كيلومـترات، وعنـد مـروره بقريـة "الجايـة" دعـاه شـيخُها، ولمَّـا جلسـا اجتمـع حولهـما أهـل القريـة. أبلـغ شـيخ القريـة الحكيـم أن الفدائيـين يجـب أن يرحلـوا في أمـان، بـدلًا مـن المشـاكل. انقسـم أهـل القريـة وتصايحـوا، فذكـر الحكيـم أنـه مُطمَـئِنٌّ؛ لأن الفدائيـين لم يفعلـوا مـا يـسيء، وأنـه لـن يتـصرَّف إلَّا بأوامـر مـن القيـادة.

في هـذه الليلـة اتَّصـلَ الحكيـم بالطفيلـة تليفونيًّـا، كان الوضـع متوتِّـرًا، ولكـن دون وقـوع حـوادث تُذكَـر.

أمَّـا في الكـرك فقـد كانـت هنـاك محاولـة اسـتفزاز مـن جانـب جنـود مجازيـن يرتـدون ملابـس مدنيـة؛ حاولـوا التظاهـر ضـدَّ العمـل الفـدائي، وأطلقـوا نـيران بنادقهـم في الهـواء، لكـن القـوة المتمركـزة بالقـرب مـن الكـرك -وهـي سَرِيَّـة جيـش التحريـر، وبعـض عنـاصر مـن فتـح، والصاعقـة، والجبهـة الشـعبية- أسرعـت بالتَّمركُـز في القلعـة. وفي الوقـت نفسـه؛ تحرَّكَـت القـوى الوطنيـة في المدينـة -وهـي قـوى ذات نفـوذ سـياسي وعشـائري- وأوقفـت محاولـة الاسـتفزاز، وطَـرَدَت العنـاصر الاسـتفزازية مـن المدينـة؛ فهـدأت الحالـة.

في اليـوم التـالي -وهـو يـوم جمعـة- كان موعـد عيـادة معـان، وموعـد اجتـماع أكـبر مؤتمـر للعشـائر، دعـا إليـه الشـيخ فيصـل الجـازي في الحسـينية. كان لا بُـدَّ مـن الذهـاب إلى معـان؛ حتـى لا يُفسَّر عـدم فتـح العيـادة -في هـذا اليـوم- عـلى أنـه بـادرة انسـحاب، وحتـى تكـون متابعـة أخبـار توتُّـر العشـائر أوَّلًا بـأول.

وصـل الحكيـم إلى معـان عنـد الظهـر، لم تكـن هنـاك أي تحـرُّكات مريبـة عـلى الطريـق مـن الشـوبك حتـى معـان، غـير أنـه لوحِـظَ يومهـا أن عَـدَدَ المـرضى قـد انخفـض إلى الثُّلُـث؛ ومعظمهـم حـذَّر مـمَّا يُدبَّـر للفدائيـين، وأكَّـدت تقاريـر الرصـد أن وجوهًـا غريبـة كثـيرة موجـودة في البلـدة، وأن سـيارات لاندروفـر مسـلَّحة، تحمـل مسـلَّحين، تجـوب البلـدة أيضًـا، تسـتفزُّ الفلسـطينيين بالشـتائم والإهانـات. أمَّـا أخبـار مؤتمـر العشـائر؛ فقـد وصلـت في المسـاء.

عُقِـد اجتـماعٌ في مقـرِّ مكتـب فتـح في معـان، تـمَّ تـداول الـرأي في الأوضـاع، ووصلـت معلومـات أن مؤتمـر العشـائر أصـدر قـرارًا بإجـلاء الفدائيـين عـن الجنـوب، مـع مجموعـة قـرارات أخـرى تُدعِّـم المَلِـكَ. كان تقديـر الموقـف أنـه في حـال حـدوث أي هجـوم، فسـتكون منطقـة الشـوبك هـي هـدف المهاجمـين؛ لأن الجنـدي القتيـل مـن أهـالي الشـوبك، ولوجـود قاعـدة فدائيـة فيهـا. وتَـمَّ التأكيـد عـلى الاتفـاق السـابق: لا انسـحابَ، ولا اختفـاءَ، ولا إطـلاقَ نـارٍ عـلى الجماهـير. وعـاد الحكيـم إلى الشـوبك، فبلغهـا في المسـاء، وهنـاك عـرف أن جثـمان الجنـدي القتيـل سـيصل في اليـوم التـالي، وكأن الأمـر مرتَّـبٌ لـكي يتوافـق وقـرارات مؤتمـر العشـائر.

في الصبـاح التـالي وَرَدَت شـائعات عـن تَظاهُـراتٍ مُعادِيَـةٍ للوجـود الفـدائي في الجنـوب تطـوف شـوارع معـان، وتطلـق النـار في الهـواء. تواتـر أيضًـا أن هنـاك تظاهُـرَة مُماثِلَـة تتجمَّـع في سـاحة الطَّفيلـة، لكنهـا لم تنجـح في جمـع أحـدٍ حولهـا. في الشـوبك عقـد شـيوخ العشـائر اجتماعًـا في السـاحة أمـام العيـادة الشـعبية عنـد مكتـب البريـد، ثـم أرسـلوا في دعـوة الحكيـم، ذهـب إليهـم، حيـث وجـد معهـم مَـن قَدَّمـوه باسـم "الزعيـم عـلي"، مـن الجيـش، وهـو مـن أبنـاء المنطقـة. دار الحديـث حـول ضرورة عمـل شيء، مثـل "أخـذ عطـوة"، أو دفـع فديـة؛ حتـى يُمكِنَهـم تفويـت الفرصـة عـلى مَـن أَسـمَوهم "أولاد الحـرام". لم يكـن الرَّفـضُ المُبـاشِرُ مَعقـولًا، لكـن الحكيـم طلـب منهـم أن يُقسِـمَ أربعـة مـن العقـلاء عـلى أن القاتـل مـن فتـح، أو حتـى مـن الفدائيـين،

وقال إنه إذا حدث هذا فإنه على استعدادٍ لطلب العَطوَةِ فورًا، بل يُفوِّضون هُم -كجاهَةٍ- لطلبها من أهل المغدور. وبالطبع لم يقبل أيٌّ منهم أن يُقسِمَ؛ فليس بينهم مَن شاهد الحادث، ولا مَن تحقَّق من تفاصيله. انتهى الاجتماع بالاستئذان منهم وتركهم يتداولون، وعاد الحكيم إلى العيادة.

مضى النهار في اتصالات مع أهل الشوبك الذين كانوا يبحثون عن مَخرَجٍ يَضمَنُ عدم المساس بالفدائيين، ويُهدِّئ -في الوقت نفسه- ثائِرَةَ عشيرة المغدور.

عند الغروب اتصل محافظ معان -تليفونيًّا- بالحكيم، وأبلغه -بصوتٍ مُتأثِّر- أنه وقعت أحداثٌ مؤسفة، وأن هناك أربعة قتلى وسبعة جرحى من الفدائيين، وسأله عن كيفية التصرُّف بجُثَث القتلى: هل يُدفنون في معان أم يُنقلون إلى عمّان؟ سأله الحكيم عن هوية القتلى؛ فقال بعد تَردُّدٍ: "أحدهم كان يعمل مُمرِّضًا معك"... عرف الحكيم أنه سمير عزام، لم يَستَطِع السيطرة على انفعالاته، وانفجر في البكاء.

رفض الحكيم دفن الشهداء في معان، وطلب من المُحافِظ ضرورة تسهيل وصوله إلى معان حتى يرى الشهداء والجرحى قبل تقرير أي شيء.

كانت الأحداث قد تطوَرت بسرعة شديدة، وانفجرت الأوضاع بالفعل في معان، ففي صباح اليوم الخامس من أيلول/ سبتمبر، كان قد دخلها نحو مائة وخمسين من الجنود المُجازين، يرتدون ملابس مدنية، ثمَّ انضمَّ إليهم صباح كريشان، وعَدَدٌ من رجاله في سيارات مسلَّحة، وطافوا الشوارع يُردِّدون شعاراتٍ مُعاديَةً للفدائيِّين وللثورة، ويهتفون بحياة الملك حسين.

أُغلقت المدارس، وخَلَت الشوارع من الناس، وتجمَّع عدد من التلاميذ حول المظاهُرَة التي توجَّهت إلى مقر محافظ معان، خرج إليهم المحافظ وألقى فيهم كلمة، حاول تهدئتهم، وطالَبَهم بالعودة إلى أعمالهم، والكفِّ عن الإثارة، ووعدهم بأن ينقل مَطالِبَهم بإجلاء الفدائيين إلى الملك.

تَركَت المُظاهَرَة مكتب المحافظ، وتوجَّهَت إلى مكتب فتح، الذي كان قد انتقل إليه عناصِرُ مَكتَبَيْ الجبهة الشعبية والصَّاعقة؛ فزاد عددهم من ثلاثة، ليُصبِحَ أحدَ عشر فدائيًّا.

أطلَقَت مظاهَرَة الجنودِ النَّارَ وقذائف "الإنيرچا" في اتجاه المكتب، وهي تسوقُ أمامها مجموعةً من تلاميذ المدارس. لم يُطلِق النَّارَ أحدٌ من الفدائيين الموجودين في المكتب، ومع ذلك استمرَّ إطلاقُ النار من جانب القوات المهاجمة لنصف ساعة كاملة...

طوال هذا الوقت، كان سمير عزَّام -وهو كادر من التنظيم الطلابي لفتح، التَحَقَ بالقطاع الجنوبي، وأُرسِل إلى معان لدعم النشاط فيها بالكوادر- يُردِّد بأعلى صوته الأَمرَ بعدم إطلاق النار على الجماهير. نزل سمير من فوق سطح المكتب، وفتح الباب، وخرج إلى المُتظاهِرين، وتقدَّم واقفًا بينهم. توقَّف إطلاق النار، وقال سمير بصوت عالٍ: "نحن إخوة. چينا هنا لمحاربة الإسرائيليين وتحرير فلسطين"... أطلق أحدهم النار من الخلف على سمير، فسقط على الأرض، وتَقدَّم عَميلٌ وداسَ على رَقَبَتِه بالحذاء، قائلًا: "جول يعيش سيِّدنا". حاول سمير أن يرفع جسمه مرتكزًا على ذراعيه، فعاجله العميل بطلقة أخرى، فاستشهد.

انتشر إطلاق النار في المدينة كلها، خرج الأهالي من بيوتهم، وخرج مَن بقي حيًّا من الفدائيين من المكتب، أَخَذَت العائلات تدفع بهم إلى داخل البيوت، أطلق رجال الأمن النار على بعضهم البعض: على المتظاهرين، وعلى الفدائيين، وكاد الأمر يتحوَّل إلى حرب أهلية. عندئذ وصَلَت كتيبةٌ من الجيش، وفُرِض حظر التَّجوُّل.

كانت حصيلة هذا اليوم الدامي أربعة شهداء، وسبعة جرحى، نُقلوا جميعًا إلى المستشفى.

وبدأت الاتصالات مع شيوخ العشائر للسيطرة على الموقف، وانسحب الجنود المجازون...

قبل الفجر وَصَلَت من معان إلى عيادة الشوبك سيارة "چيب" تابعة للأمن العام، وفيها أربعة جنود مُسلَّحين؛ لاصطحاب الحكيم إلى معان. كان الجنود مُتَوتِّرين، وعندما خرج معهم الحكيم طلبوا منه أن يحمل سلاحه كامِلًا معه، وأن يكون مستعدًّا في الطريق، وأجلسوه في المقعد الخلفي بين اثنين منهم. كان اثنان منهم فلسطينيَّين، والآخران من منطقة الشمال، ومن الواضح أنهم كانوا من المناصرين للعمل الفدائي. عندما وصلوا إلى معان توجَّهوا -على الفور- إلى

منـزل رئيـس شرطـة المحافظـة الزعيـم نـوَّاف سـعود القـاضي، هنـاك تـرك الحكيـمُ سِـلاحَه، وتوجَّـه في السـيارة نفسـها -مـع الجنـود ذاتهـم- إلى مستشـفى معـان.

كان الحكيـم يعـرف المستشـفى جيـدًا، ويعـرف العاملـين فيـه، كـما يعـرف بعـض المـرضى أيضًـا. أسرع إلى القاعـة التـي خُصِّصـت للشـباب الجرحـى الذيـن أصيبـوا في أحـداث اليـوم السـابق، وجـد أحَدَهـم قـد أُجرِيَـت لـه عمليَّـة بَـترٍ مـن تحـت الركبـة. كان الباقـون في حالـة جيِّـدة نسـبيًّا. بـكى واحـدٌ منهـم عنـد ذِكـر سـمير عـزَّام ومـا جـرى لـه. قـال الآخـر: "مـا طخَّينـاش، ولا كان ممكـن نطـخ. نطـخ عـلى مـين؟ عـلى أطفـال سـايقينهم قدَّامهـم؟!".

طلـب أحدهـم مـن الحكيـم أن يُطَمـئِنَ عائلتـه، ونبَّهـه إلى أن إذاعـة الثـورة قـد أذاعـت -في مسـاء اليـوم السـابق- أن جميـع الموجوديـن في معـان قـد ذُبِحـوا، وأن عائلتـه تعـرف أنـه في معـان.

وعدهـم الحكيـم بالعـودة مـرَّة أخـرى، ونـزل إلى حيـث أُودع الشـهداء. كانـت غرفـة كبـيرة نسـبيًّا في الطابـق الأرضي، لم تكـن غُرفَـةَ المـوتى في المستشـفى، كانـت عارِيَـةً مـن أي شيء، ويبـدو أنهـا كانـت مَخزنًـا أُفـرغ عـلى عَجَـل. لم يكـن فيهـا إلا الشُّـهداء الأربعـة الذيـن وُضعـوا عـلى الأرض إلى جـوار بعضهـم البعـض، وبـين كُلٍّ منهـم مسـافة مـتر تقريبًـا، أمـام البـاب الـذي يُفتَـح مبـاشرة عـلى السـاحة الخلفيـة للمستشـفى، كانـوا: صبحـي جبريـل؛ بشـعره الأحمـر، ووجهـه ذي النمـش، وصرامتـه المعهـودة. بُقعَةٌ صغـيرة مـن الـدم كانـت تحـت الـرأس مبـاشرة. عـلى يسـاره كان سـمير عـزَّام؛ ازداد وَجهُـهُ سُـمرَةً وهـدوءًا، ذراعـاه مَثنيَّتـان عـلى صـدره، لكـن دون أن تَتقاطَعَـا، بنطلونـه مُخَضَّـب بالدمـاء مـن الناحيـة اليُمنَـى، وقـد انـزاح قميصـاه: الخارجـي والداخـلي عـن بعـض صـدره وخاصرتـه، ومَخْـرَجُ الرَّصاصـة القاتلـة كان واضِحًـا. عـلى يسـار سـمير كان واحـد مـن الشَّـهيدَيْن: محمـود حسـن أو حسـن سـليم؛ كان يميـل بوجهـه نحـو الحائط الأيـسر، لم يسـتطع الحكيـم رؤيتـه جيـدًا؛ فقـد كان في الزاويـة البعيـدة المُعتِمَـة للغرفة، لكـن مُؤخِّـرة الـرأس كانـت مُهشَّـمةً تمامًـا. اقـترب الحكيـم مـن صبحـي وسـمير، ووقـف بينهـما، وقبـل أن ينحنـي عليهـما سـمع صـوت الممرِّضـة خلفـه؛ وهـي تناديـه: "إلحـق يـا حكيـم.. إلحـق يـا حكيـم.. واحـدة بتولـد وجالهـا نزيـف". اسـتدار، وتَبِعَهـا.

هُـرع الحكيـم إلى المـرأة، وسـاعد عـلى إنقاذهـا مـن خطـر النزيـف، ثـم نـزل إلى مدخـل المستشـفى، حيـث الجنـود ينتظرونـه، سـمعهم يتحَدَّثـون عـن توجُّـه شـاحنات تحمـل أعـدادًا كبـيرة مـن بـدو وادي القويـرة إلى الشـوبك؛ حيـث سـيحاصرون القاعـدة والعيـادة.

طلـب مـن الجنـود أن يسرعـوا بالعـودة؛ فأخـذوه إلى منـزل الزعيـم نـوَّاف القـاضي (أبـو عـرب)، حيـث تـرك سـلاحه، حـاول "أبـو عـرب" إقناعـه بالبقـاء عنـده، لكنـه أقنعـه بـأن وجـوده في الشـوبك ضروريٌّ لحمايـة مَـن هُـم هنـاك، وأن عـدم عودتـه سيُقلِقُهم عليـه. أمـر "أبـو عـرب" الجنـود بإعـادة الحكيـم بسرعـة، وأوصاهـم بالحـذر في الطريـق...

عنـد وصـول الحكيـم إلى الشـوبك، توجَّـه إلى العيـادة، فوجـد الشِّـبلَ والمـدرِّس. كان السـلاح الموجـود -لـدى الأربعـة: الحكيـم والسـائق والشـبل والمـدرس- أربـع بنـادق آليـة؛ مـع كل منهـا وحدتـان ناريَّتـان ومسدَّسـان ورشَّـاش "ألفـا"، مـع سـبعة مخـازن. كان لديهـم طعـام محفـوظٌ وبطاطـا، ولم يكـن لديهـم خبـز. أَشرَقَـت الشـمس مـن وراء التلَّـة الواقعـة أمـام العيـادة، كانـت السـاعة نحـو السـابعة صباحًـا، حـضر قائمقـام الناحيـة مُعَزِّيًـا في شـهداء معـان، وطلـب مـن الحكيـم -بِلُطـفٍ- ضَبْـطَ الأعصـاب، ووَعَـدَ ببـذل أقـصى مـا يسـتطيع، وعنـد خـروج القائمقـام تقابـل في الطريـق أمـام العيـادة مـع جـرَّار يسـحب مقطـورةً مليئـة بالبـدو القادمـين مـن خـارج المنطقـة، أشـار إليهـم بالوقـوف، فأجابـوه بإطـلاق الرصـاص في الهـواء، كان في باحـة العيـادة مُسَـلَّحون ينتـشرون في حـرش التلَّـة الواقـع أمامهـا، وحتـى السـاعة العـاشرة تقريبًـا كانـت تُسـمع طلقـات ناريـة مـن مسـافات بعيـدة، وبعـد نحـو نصـف سـاعة سُـمِعَ هـرج شـديد عـلى الطريـق وصيحـات، وازداد عـددُ المُسـلَّحين في الحـرش أمـام العيـادة، وبـدأ إطـلاق النـار في الهـواء بكثافـة، وحـضر مَـن يقـول بـأن القاعـدة لم يَعُـدْ فيهـا أحـدٌ منـذ الصبـاح، وأن الجيـش قـد أَخـلَى مسـتودع التمويـن، واعتقـل اثنـين كانـا موجوديـن هنـاك مـن الفدائيـين.

بعـد قليـل فوجـئ الحكيـم بِرَجُـلٍ مُسـنٍّ يحمـل بندقيـة إنجليزيـة قديمـة، ويتقـدَّم نحـو العيـادة، لم يكـن مـن أهـالي الشـوبك، وكان الرجـال الأربعـة بالداخـل متوزِّعـين حـول غرفـة العيـادة، في الظـلِّ، وخلـف الجـدران، لم يكـن مـن السـهل للواقفـين في

الخارج أن يروهم. بسرعة خلع الحكيم الجعبة الصدرية، ووضع البندقية جانبًا، وخرج لملاقاة الرجل. عندما وصل الرجل إلى باحة العيادة، سأل عن الحكيم، فلمَّا أجابه، أخذ يهدِّد ويتوعَّد، ويلوِّح ببندقيته، ويطلب منهم الرحيل. في لحظاتٍ، وجد الحكيم عددًا من رجال ونساء الشوبك؛ وكأنما هبطوا من السماء وقد أحاطوه؛ بحيث يصعب إطلاق النار من التلَّة تجاه العيادة دون أن يصابوا هم أيضًا.

عَلَت أصواتهم جميعًا تطالب الرَّجُلَ المُسِنَّ بالرحيل، وتُطَيِّب خاطر الموجودين في العيادة وتنصحهم بالابتعاد عن الخطر. عندما خرج المسنُّ مهدِّدًا بقي عَدَدٌ من أهالي الشوبك في العيادة. قال شيخٌ جليلٌ منهم مُحدِّثًا الحكيم: "نحن لم نقتل الأتراك -كغيرنا- وقتَ أن جاء لورنس. أنتم خَدمتمونا، ولم نَرَ منكم شرًّا، ولا يمكن أن نسمح لأحد بأن يَمَسَّكم".

عرف الحكيم -ساعتها- أن هذا قرار أهل الشوبك، وعرف منهم أن المحافظ ومدير شرطة معان وشيوخ العشائر مُجتَمعين في مقر مديرية الشوبك، التي تبعد نحو مائتي متر عن العيادة.

لوحظ وصول سيارات مسلَّحة من الأمن والبادية والجيش، وحضر إلى العيادة ملازم أول يُدعى "رياض"، ومعه سيارة مسلحة برشَّاش 500 ملم، وأبلغ الحكيم بأن المحافظ يطلب حضوره إلى مقرِّ المديرية. خرج الحكيم معه، ورَكِبَا السيارة المُسلَّحة، برغم أن المسافة قصيرة.

أمام مبنى المديرية لاحظ الحكيم أن عددًا من أتباع الشيخ فيصل الجازي وحراساته يقفون على جانب الطريق، ودخل غرفة الاجتماع.

كان محافظ معان يجلس خلف طاولة قائمقام الناحية، بجواره الزعيم نواف القاضي. وكان الشيخ فيصل الجازي جالسًا أمام الطاولة. وفي الغرفة الصغيرة اجتمع كُلُّ شيوخ عشائر الشوبك، وعدد من شيوخ الجنوب. دار حوارٌ متوتِّر، فهم الحكيم أن بعض العشائر تطلب رحيلهم من المنطقة، لكنَّ عشائر الشوبك ترفض أن تطلب منهم ذلك، وترفض أن يمسَّهم أحد بسوء، والمشكلة أن هذا الموقف قد يُؤدِّي إلى اقتتال العشائر.

عندما تحدَّث الشيخ فيصل الجازي حاول أن يفصل بين العيادة ومَن فيها وبين وجود القواعد الفدائية؛ فأوضح الحكيم لهم أن وجود العيادة ومَن فيها هو نتيجة وجود الفدائيين، ثم سأله:

- لنا ثلاث سنوات في الجنوب، هل يمكن أن تَذكُرَ خطأً واحدًا ارتكبناه في حَقِّ سكّانه؟

فقال:

- أَشهَد بالله أبدًا... لكن إخوانكم في عمّان ذَبَحوا أولادنا.

قال الحكيم على الفور:

- ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرى...

فصاح الشيخ هارون الجازي شيخ الحويطات في أدرح:

- صدق الله العظيم... صدق الله العظيم.

وتَمْتَمَ الحاضرون جميعًا مثله.

هَدَأ الجوُّ قليلًا؛ فسأل الحكيم عن مصير الشابَّيْن اللَّذَيْن اعتُقِلا، فأخذه الزعيم "أبو عرب" إلى غرفة أخرى، حيث وجدهما جالِسَيْن وأمامهما طعام الغداء!

بعد ذلك ألحَّ المُحافِظُ ومدير الشرطة على ضرورة مُغادَرَة المنطقة؛ ضمانًا لأمن الشباب، ونَبَّها الحكيم إلى حرج عشائر الشوبك التي لا تريد الدخول في قتال ضد عشائر أخرى، وبالذات ضد فيصل الجازي، وتَمَّ الاتفاق أخيرًا؛ أعلن الحكيم عن الرغبة في مغادرة المنطقة مُؤقَّتًا للحيلولة دون اقتتال الإخوة، مع شكر أهل الشوبك على ما قدَّموه. وأعلن المحافظ -من جانبه- استضافَتَهم عنده حتى تهدأ الأحوال ويعودوا، وأن يخرجوا بكامِل سلاحهم وسياراتهم العسكرية معهم. رتَّب المحافظ ومدير الشرطة مَوكِبَهم، وعادوا إلى العيادة ومعهم الشابان اللذان كانا قد احتُجِزا من مستودع التموين. حمل كلٌّ منهم سلاحه، ووزَّعهم مدير الشرطة على السيارات المُسلَّحة بين جنود البادية وضُبَّاطها. أمَّا سيارتهم؛ فقد قادها أحد شيوخ الشوبك، وجلس إلى جواره السائق، وإلى يمينه بجوار النافذة شيخٌ آخر. تعمَّد مدير الشرطة أن يعلن عن الطريق الذي سيسلكونه إلى معان أمام الحاضرين والمُتَجمهِرين.

وانطلق الموكب...

غيَّر ضابط القوة الطريق المعلن، وقال للحكيم -وكان يجلس بينه وبين سائق السيارة-:

هذه هي الأوامر الحقيقية...

كان الرجل يخشى الكمائن على الطريق، وقد رأوا واحدًا منها بالفعل ينتظر عند مدخل المدينة، حيث دخلوها من الجنوب.

بعد أن وصل الموكب إلى معان، أُفرِدَت لهم قاعة كبيرة في الطابق الثاني من مبنى المحافظة، أمام مكتب مدير الشرطة، وبجوار مكتب المحافظ. أُعِدَّت بالفُرُش والبطاطين. في المساء زارهم فيها الشيخ محمد الشراري وعددٌ من شيوخ معان. كانوا مُتأثِّرين لاستشهاد الشباب الأربعة، وأنكروا -مرارًا- أن يكون أحدٌ من أبناء معان قد شارك في هذا العمل. سألهم الشيخ الشراري عن السبب الذي جعل الشباب لا يطلقون النار على المظاهرة، فقال له الحكيم:

لأننا نريد تحرير فلسطين، ومعان مدينة مهمَّة في الطريق إليها، ولو كنَّا أطلقنا النار لَقَتَلنا على الأقل عشرين قبل أن يستشهد الشباب، لكننا كُنَّا قد أقمنا بذلك عشرين حاجزًا من الدم العشائري بيننا وبين أهل معان. الآن نحن لنا حق... نُؤجِّله حتى تحرير فلسطين، وقد نتنازل عنه لوجهها بعد ذلك...

قال أحد الشيوخ:

سيبقى دمُ الشباب على رؤوسنا في معان، وحَقًّا لكم، وعارًا علينا وعلى أولادنا...

استأذن الشيوخ في دفن الشهداء الأربعة؛ نظرًا لانقطاع طريق عمَّان. وافق الحكيم؛ شريطة أن يُودَعَ كُلٌّ منهم في تابوت، ويُكتَبَ عليه اسمه؛ حتى يمكن نقله فيما بعد.

نهاية العمل الفدائي في الجنوب

انتهـى اليـوم السـادس مـن أيلـول/ سـبتمبر، وقـد انتهـى الوجـود الفـدائي العَلَنـيُّ في معـان، باسـتثناء قـوة جيـش التحريـر الفلسـطيني، ومـا لحـق بهـا مـن القـوات المتمركـزة في مدينـة الكـرك.

كنـت طـوال هـذاذ الوقـت موجـودًا في الطفيلـة، أتابـع عمـلي بهـا، في تلـك الأثنـاء اشـتعلت الأمـور في الكـرك بشـكل غـير طبيعـي، فاسـتُدعيت إلى هنـاك للمسـاعدة في حَـلِّ بعـض المشـاكل، ولمتابعـة العيـادة.

كان شـكل المعـارك في الكـرك مختلفًـا عـن بقيـة الجنـوب؛ حيـث كانـت معظـم القـوَّات تتبـع جيـش التحريـر الفلسـطيني، وبعـض منهـا كانت قـواتٍ لفتـح، وتنظيمات أخـرى.

كانـت توجـد قلعـة كبـيرة في الكـرك، احتلَّهـا جيـش التحريـر الفلسـطيني، وهـي تـشرف مـن منطقـة عاليـة عـلى الوديـان التـي حولهـا؛ وكان لذلـك أثـر كبـير في معادلـة موازيـن القـوى بـين قـوات الثـورة المدعومـة بجيـش التحريـر الفلسـطيني، والجيـش الأردني.

أثنـاء ذلـك جـاء مـن يخبرنـا بـأن هنـاك تظاهـرة معاديـة هاجمـت مَقـرَّ قيـادة الطفيلـة والعيـادة الطبيـة،

تحرَّكَـت قـوات مـن العاصفـة مـن داخـل الكـرك، وقُـوَّاتٌ أخـرى مـن جيـش التحريـر الفلسـطيني؛ لأنهـم كانـوا قـد هاجمـوا -في الوقـت نفسـه- مَقـرَّ جيـش التحريـر الفلسـطيني في الطفيلـة.

تحرَّكـتُ معهـم إلى مشـارف الطفيلـة، حيـث تـم احتجـاز حافلـة ركَّاب كانـت قادِمَةً مـن عـمَّان متَّجهـة إلى الطفيلـة، وأرسـل مجموعـة مـن ركَّابها برسـالة تحذيـر إلى القيادة الموجـودة بالطفيلـة، وأن قـوات جيـش التحريـر عـلى اسـتعداد -مـن موقعهـا المرتفـع عـلى التـل المـشرف عـلى الطفيلـة- للهجـوم في حالـة عـدم تسـليم أفـراد الجهـاز الطبـي والعسـكري لفتـح وجيـش التحرير.

في مسـاعي التفـاوض طلـب المسـؤولون في الطفيلـة أن يكـون الطبيـب مـع وفـد التفـاوُض! كانـت ليلـة بغيضـةً...

كنَّا في الخلاء، وكان التَّوتُّر متواصِلًا، وتقلَّص المكان الذي حُدِّد لي لأنام فيه إلى حفرة في أعلى التل. أيُّ نوم يأتي في مثل هذا الجو!

طلب مُمثِّلو ركَّاب الحافلة عَقدَ مؤتمر لقيادة الطَّفيلة وبعض المسؤولين من فتح وجيش التحرير، على أن يكون من بينهم الطبيب؛ أي أنا! على أن يكون التفاوض في الطفيلة. توجَّهت إليهم، ووجدتني أمام وجوهٍ تُظهر ودًّا، لكنني شعرت أنها تُضمِرُ عداءً خفيًّا. لم أعرف ساعتها إن كان ذلك إرضاءً للسُّلطَة، أم أنهم كانوا منافقين بشكل غريزي!

تمَّ اللقاء في مقر رئيس البلدية الذي يَبعُدُ عن مقر العيادة وقيادة العاصفة أقلَّ من مائة متر.

عندما مَررتُ أمام مَبْنَيَيْ العيادة والقيادة وجدتهما قد أُحرِقا، وتَهشَّم كُلُّ ما فيهما تمامًا؛ بسبب قصف المتظاهرين من الجنود المجازين وعدوانهم الذي يعبِّر عن غِلٍّ وكراهية شديدين. دخلت العيادة، فحزنت كثيرًا عندما وجدت دولاب ملابسي قد تهشَّم، وقد كُسِرَت أدواتي واحترقت. لم يبق لي شيء يمكن أن آخذه معي.

لم أتخيَّل أن يحدث كل هذا! والحقيقة كان المسؤولون يتعاملون معنا على أحسن وجه، ويحاولون ترضيتنا؛ ربَّما لِعلمِهم بأن الطَّفيلة كانت مُحاصَرَةً بقوات جيش التحرير وفتح، ومن الممكن أن يكون الخوف هو الدافع لهذه المعاملة الطيبة.

حسبت الموقف بدقَّة، تساءلت عن طلبات العسكريين، وتحدَّثتُ معهم قبل أن نلتقي المسؤولين في الطَّفيلة. دارت في ذهني أسئلة كثيرة: "هل من الممكن فَرْضُ وجود الفدائيين في وسط هذا الجوِّ المُعادي؟ أم تقوم القوات الموجودة لجيش التحرير وفتح بقصف الطفيلة؟ وكيف نعيش فيها بعد ذلك؟!"...

وتمَّ الاتفاق على تجميع الشباب، وأن يتحرَّكوا بكامل عتادهم ومُعدَّاتهم وسياراتهم، وخرجنا من الطفيلة مُعزَّزين مُكرَّمين؛ برغم الجو المعادي الغوغائي.

واستؤنِفَت المظاهرات ضد الفدائيين، لكن أحدًا لم يقترب من موكبنا.

وذهبنا إلى الكرك.

كان هذا آخر عهدي بالطفيلة!

في الكـرك؛ كنـت أتقـصَّى أخبـار الحكيـم، ولم يكـن هـذا مُتاحًـا إلَّا مـن خـلال المسـافرين؛ حيـث كانـت وسـائل الاتصـال مقطوعـة.

اطمأننـت عـلى أن الحكيـم والشـباب الذيـن معـه بخـير بعـد حادثـة القتـل التـي حدثـت في معـان، ولقـي فيهـا أربعـة مـن شـباب مجموعـة العمـل الطبـي مَصرَعَهـم، منهـم صبحـي جبريـل وسـمير عـزَّام اللـذان كانـا عزيزَيْـن عـليَّ جـدًّا: صبحـي جبريـل؛ ذلـك الشـاب الفلسـطيني، الخَجـول، الصامـت، الصـارم الملامـح، الـذي لا يبتسـم إلا نـادرًا؛ علَّمتـه كيفيـة أن يتعقَّـم، ويلبـس الكفـوف الطبيـة لمسـاعدتي في العمليـات الصغـيرة التـي كنـت أجريهـا في العيـادة... كان مـن عادتـه أن يحـكَّ أنفـه بالكفـوف المعقَّمـة، فأنهـره عـن ذلـك!

لا أتذكَّـر بالضبـط كـم بقيـت في الكـرك، لكـن الوضـع في الكـرك كان مختلفًـا؛ حيـث إنهـا مدينـة كبـيرة، فيهـا قـوات كثـيرة مـن الفدائيـين والتنظيـمات المختلفـة وقـوات الجيـش الأردني.

جاء الأمر من القيادة بالانسحاب إلى عمَّان!

كان هـذا قـرارًا عقلانيًّـا؛ فقـد كان مـن المسـتحيل أن تبقـى عنـاصر في الكـرك، بينهـا وبـين عـمَّان مسـافة بعيـدة، في الوقـت الـذي تـدرك فيـه كافـة القيـادات أن المعركـة الكـبرى ستُحسـم في عـمَّان، وبقـي الحكيـم ومَـن معـه في ضيافـة المحافـظ. كانـوا مُعتَقَلـين فيـما يخـصُّ التَّحـرُّك، لكـن كان معهـم سـلاحهم، ويسـتقبلون زوَّارهـم، ويتلقَّـون الطعـام مـن منـازل الأنصـار والعشـائر الصديقـة.

زارهـم كل شـيوخ العشـائر؛ وكان أبـرز الزائريـن الشـيخ محمـد أبـو تايـة، الـذي لم يكونـوا قـد اتصلـوا بـه مـن قبـل؛ لوجـود عشـيرته الكبـيرة شرقـيَّ الطريـق الـدولي في الصحـراء المُمتـدَّة حتـى العـراق.

في التاسـع مـن أيلـول/ سـبتمبر عرفـوا مـن إذاعـة الثـورة أنـه قـد تقـرَّر الدعـوة إلى الإضراب العـام حتـى إقامـة حكـم ديمقراطـيٍّ في الأردن! كان معنـى ذلـك ضرورة الإسراع بالوصـول إلى عـمَّان قبـل صـدام محتـومٍ، وهـم في عُزلَـةٍ في مَعـان، ألحُّـوا عـلى

مديـر الشرطـة أن يُسَـهِّل لهـم ذلـك قَبـلَ موعـد الإضراب في السـابع عـشر مـن أيلـول/ سـبتمبر.

رتَّـب لهـم مديـر الشرطـة موكبًـا مسـلَّحًا، انتقـى للموكـب ضُبَّاطًـا وجنـودًا مـن الباديـة؛ ليضمـن حمايتهـم خـلال الطريـق الـدولي الطويـل المهجـور والمقطـوع إلى عـمَّان...

الفصل الثالث

مستشفى الأشرفية

عدنا من الجنوب، نشعر بمرارة الهزيمة، غير أننا كنا مضطرين لهذه العودة، طبقًا لأوامر القيادة. كانوا يعرفون أن المعركة الكبرى والحاسمة ستكون في عمّان، وكانت هذه ذات أجواء هادئة، لكنني كنت أشعر أنه الهدوء الذي يسبق العاصفة؛ فقد كانت الأجواء العامة متوتِّرة جدًّا؛ كان الناس يسيرون في الشوارع -إن كانوا مضطرين- ومعظمهم مسلَّحٌ، يحملون أسلحةً متنوِّعة، مُتراوِحَة الأحجام، ومتباينة الأشكال، على الأقل كان غالبيتهم مسلحين بالأسلحة الشخصيَّة الخفيفة، وكنت واحدًا من هؤلاء؛ سلاحي الشخصي كان عبارة عن مسدس صغير الحجم، من عيار 9 مللي... كانت التعليمات التي صدرت لنا من القيادة تنصُّ على أن تكون تحركاتنا بالشوارع محدودة، وألَّا نتحرَّك منفردين، رغم أن الشوارع كانت شبه فارغة، وتنتشر بها التمركزات الأمنية التابعة للجيش، وللشرطة، وللفدائيين أيضًا، وكان بعمَّان حوالي 13 فصيلًا فدائيًّا كبيرًا، أكبرها كان فصيل حركة فتح بالطبع.

مساء يوم 17 من سبتمبر أعلَنَت الحكومةُ استقالَتَها، وتمَّ تعيين حكومة عسكرية، وأُعلِنَت حالة الطوارئ اعتبارًا من فجر يوم 18 سبتمبر، كُنَّا حتى هذه

اللحظة لم نسمع شيئًا عن الإضراب الذي دعا إليه فصيل "صوت العاصفة" منذ أسبوع.

كنَّا ثلاثتنا في مقرِّ الاتحاد: أنا، والدكتور توفيق رئيس البعثة، وفؤاد نيازي.

سألني الدكتور توفيق:

- ماذا تنوي أن تفعل؟

- سأذهب إلى الأشرفية توًّا؛ لأقابل الحكيم، وأعرف ما هي الأوضاع والتعليمات من قيادة فتح...

كنَّا -حتى ذلك الوقت، أنا ومحجوب- تابِعَيْن لقوة الخدمات الطبية في الجنوب، التي كان الحكيم يترأسها، وكان الحكيم على علم بنشاطاتنا في مستشفى الأشرفية، والدور الذي كُنَّا نقوم به هناك.

قال الدكتور توفيق:

- سأذهب معك إلى المستشفى.

- لكنَّني سأذهب إلى القيادة أوَّلًا لمعرفة الأخبار، ثم أذهب للمستشفى.

قرَّر فؤاد أن يأتي معنا أيضًا؛ فقد كان يرافقني دائمًا دون أن أطلب. سبقاني إلى المستشفى، على أنْ أتَّصِلَ بهما هناك.

في القيادة وجدت الحكيم جالسًا في غرفة مُظلِمَة؛ حيث كان الإظلام تامًّا، والجَوُّ متوترًا، كانت عمَّان قد أصبحت خالِيَةً من أيَّة حركة بعد إعلان الأحكام العُرفيَّة، وتعيين حاكم عسكري؛ إذ كان الجميع يتوقَّعون الهجوم على الفدائيين لتصفيتهم، ولم نكن -أنا والحكيم- في حالة نفسية طيِّبة. رفض الذهاب معي إلى المستشفى عندما عرضت عليه ذلك، قال إنه سينتظر تعليمات القيادة، وقد ذكرت له أن المنطقي أن نكون في المستشفى، الذي هو في منطقة تُسَيطِرُ عليها فتح، خاصَّةً وأنني والدكتور توفيق -رسميًّا- على قُوَّة المستشفى بتعليمات وزير الصِّحَّة من قبل، ولكنه أكَّد على تفضيله الانتظار؛ حتى تكون كُلُّ تَحرُّكاته من خلال القيادة؛ فهو على قُوَّة "قوَّات العاصفة" (بناءً على طلبه؛ حتى يتخلَّص من بيروقراطية الخدمات الطبية). بعد ذلك أتته موافقة القيادة على ذهابه إلى الأشرفية، خاصَّةً أن المستشفى تقع في القطاع الموالي للفدائيين في منطقة الأشرفيَّة.

الأشرفية: أيّام الدم والغضب

لم يجد الدكتور توفيق وفؤاد -عندما وصلا إلى المستشفى- سوى الطبيب المناوب موسى الحسيني، والسيدة ماري رئيسة التمريض، كان الجميع قد تسرَّبوا إلى منازلهم؛ خوفًا ممَّا قد يحدث في الفجر.

كانت السيدة ماري قد وصلت إلى المستشفى مساءً، بعد إعلان الحكومة العسكرية والأحكام العرفية، كان حضورها ليلًا إلى المستشفى دليلًا على الالتزام بالواجب المهني، رغم التوقُّعات التي كانت تنذر بوقوع أحداث جِسام، إلا أنها -رغم ما أبدته من هذه الشجاعة في البداية- لم تتحمَّل الأوضاعَ المُريعَةَ التي حدثت بعد ذلك، واختفت مثل كثيرين!

في هذه الليلة أراد الدكتور توفيق وفؤاد مُغادَرَةَ المستشفى والعودة في الصباح، لكنني قرَّرتُ المبيتَ هناك، مُتوقِّعًا أن الصَّباح عندما يأتي رُبَّما لن يُسمَح وقتها بوصول أحدٍ إلى أي مكان؛ فبقي الجميع في المستشفى...

يقع مستشفى الأشرفية في أعلى جبل الأشرفية، وكان يُسمَّى مجمع المستشفيات؛ لأنه مكوَّنٌ من عدَّة مستشفيات؛ كل مستشفى منها في مبنى خاص، يَبعُدُ بعضها عن البعض نحو مائتي أو ثلاثمائة متر، وكان مبنى الأمراض الباطنية هو أعلى المباني رغم أنَّه يتكوَّن من طابِقَين فقط؛ لأن الأرض في مناطق الجبال تتكوَّن من مرتفعات ومنخفضات. ويقع مبنى الأطفال في الجهة الجنوبية، على يمين الداخل من بوابة المجمَّع. أمَّا المبنى الجراحي فكان في الجهة الشمالية، مُنَخفِضًا عن سطح الأرض ومستوى الشارع. وبالإضافة إلى هذه المباني الثلاثة يوجد مبانٍ أخرى للتخصُّصات المختلفة؛ مثل: مبنى النساء والتوليد، ومبنى العلاج الطبيعي، ومبنى الأطفال المُعاقين -الذي يقع في الجهة المقابلة للمبنى الجراحي- ومبانٍ أخرى لتخصُّصاتٍ مختلفة...

كانت هناك قوَّات كثيرة متمركزة حول المستشفى، أشهرها وحدة الصواريخ التابعة للثورة الفلسطينية، في منطقة "الحاووز" (خزان المياه الرئيسي) الذي يزوِّد المنطقة كلها بالمياه، وهو قريبٌ جدًّا من المستشفى. ومنطقة الأشرفية التي يقع بها المستشفى يقطنها الكثير من الفلسطينيين الموالين للثورة، وكثير -أيضًا- من فقراء الأردنيين الذين انضمُّوا -بلا تردُّد- إلى الثوَّار، أو مَن كانوا يُسمُّونهم "ضد

السـلطة"؛ ولهـذا كان وضـع المستشـفى غريبًـا؛ إذ يتبـع الحكومـة الأردنيـة، ويعمـل فيـه أطبـاء أردنيـون، ومرضـاه -في الغالـب- مـن الفلسـطينيين، والفقـراء الأردنيـين، والفدائيـين...

كانـت عـمَّان -ليلـة السـابع عـشر مـن أيلـول- مَحـطَّ أنظـار العـالم كلـه؛ الـكل يتابـع مـا يحـدث فيهـا، ولا أبالِـغُ إذا وافَقْـتُ محمـد حسـنين هيـكل في رأيـه الـذي ذكـره حينهـا، مـن أن "كُلَّ الأنظـار تتَّجـه إلى عـمان، وبالأخـصِّ إلى الأشرفيَّـة؛ لأنهـا بـؤرة الأحـداث"، حتـى الرئيـس الأمريـكي نفسـه انتقـل فيـما بعـد إلى البحـر المتوسـط -في قيـادة الأسـطول السـادس- ليكـون قريبًـا مـن الأحـداث.

وكان الفلسـطينيون يـرون بـأن هنـاك محاولـة مـن السـلطة الأردنيـة لتصفيـة الوجـود الفـدائي الفلسـطيني، خاصَّـةً بعـد أن تمـادَت بعـض فصائـل الفدائيِّـين، وباتـت ترفـع شـعارات الاسـتيلاء عـلى السُّـلطَة، وكان مـن الطبيعـي أن تسـعى الدولـة لِبَسـطِ نفوذهـا، والحفـاظ عـلى هَيبَتهـا.

في هـذه الليلـة العصيبـة كنَّـا في بـؤرة الحـدث، داخـل مستشـفى الأشرفيـة، نتابـع الأخبـار مـن الإذاعـات العربيـة والأجنبيـة التـي كانـت كلهـا تتابـع أخبـارَ الأردن في انتظـار مـا سـيحدث... الجميـع يُتابـع.

كانـت بعـض التنظيـمات الأخـرى قـد انضمَّـت لفتـح في منطقـة الأشرفيـة، التـي كان يتواجـد بهـا أيضًـا معسـكر بَـدوٍ كبـير، اسـمه "معسـكر الوحـدات"، وهـو يضـمُّ عنـاصر قويَّـة مـن البـدو الموالـين للملـك عـلى طـول الخـطِّ... دون أيِّ تَحفُّظـات!

اليوم الأوَّل- الخميس- 1970/9/17

في الرابعـة صباحًـا مـن فجـر الخميـس بـدأ سَريـان الأحـكام العرفيـة ومنـع التجـوال، وانفتحـت بَوَّابَـةُ الجحيـم مـن قذائـف المدفعيـة الثقيلـة والدبابات، كانـت كل القذائـف تـأتي مـن الجنـوب، حيـث معسـكر البـدو المجـاور لمخيَّـم الوحـدات، ووحـدات أخـرى. كانـت القذائـف تمـرُّ بمبنـى المستشـفى الجراحـي، أمَّـا المبـاني الأخـرى فكانـت تنـال نصيبهـا مـن القصـف بحسـب ارتفاعهـا عـن الأرض؛ فالأعـلى يُصـابُ أَوَّلًا، وكان أَوَّل مـا

سُوِّي بـالأرض: مبنـى الأمـراض الباطنيـة المواجـه لبوَّابـة مجمـع المستشـفيات، وكان قـد أُخـلِيَ مـن المـرضى في اليـوم السـابق.

لم يسـتطع -أو لم يحـاول- أن ينضـمَّ إلينـا نحـن الأربعـة -أنـا، والدكتـور توفيـق، وفـؤاد، ومـوسى- سـوى اثنـين فقـط مـن أطبّـاء المستشـفى، الذيـن يبلـغ عددهـم نحـو خمسـين أو سـتِّين طبيبًـا. وحـضر بعـض الأطبّـاء الفلسـطينيين بتكليـفٍ مـن القيـادة؛ بنـاءً عـلى طلبنـا (لم يَبـقَ في نهايـة اليـوم العـاشر سـوى سـتَّة أَطبّـاء!). ولم يكـن عـدد العاملـين المتواجديـن -في ذلـك اليـوم- يبلـغ العشريـن، ممَّـن اسـتطاعوا الوصـول إلى المستشـفى، أو مـا تبقَّـى منـه: المبنـى الجراحـي.

لم يكـن النـوم سـهلًا في هـذه الليلـة؛ فقـد بـدأ الجرحـى والمصابـون يتوافـدون مـن بعـد الفجـر، وبـدأت السـيدة مـاري -رئيسـة قسـم التمريـض- تقـوم بدورهـا المعتـاد الـذي تقـوم بـه في أيَّـام مـا قبـل الأزمـة: يـأتي المُصـابُ؛ فتأخـذه إلى الغرفـة الموجـودة عـلى يمـين المدخـل، يُسـجِّل اسـمه، وتُؤخَـذُ مُتعلِّقاتـه وتوضـع في خزانـة المستشـفى باسـمه، ويتلقَّـى الإسـعافات الأوَّليَّـة، وتُحـدَّد الأدويـة، ومـا يلـزم لإعـداد الملـف الخـاص بـه، وكان الحكيـم في مقـر القيـادة يتابـع الأخبـار. حتـى هـدأ القصـف قليـلًا بعـد الظُّهـر.

حـضر الحكيـم يحمـل معـه الأخبـار، والتعليـمات، وقـد اعتُـبِر المستشـفى هـو المستشـفى الميـداني للفدائيـين تقريبًـا، طبقًـا لِـما أُبلِـغ مـن تعليـماتٍ، وكان ذلـك منطقيًّـا؛ حيـث إنـه المستشـفى الوحيـد المُجهَّـز، وهـو متواجِـدٌ في القطـاع الـذي يسـيطر عليـه الفدائيُّـون، كـما كان بـه -رسـميًّا- اثنـان مـن الجرَّاحـين: د. توفيـق، وأنـا.

بـدا مُجمَّـع المستشـفيات في الأشرفيـة كأنـه نُقـل في لمـح البـصر إلى مـكانٍ آخـرَ، بَعيـدٍ: الصَّمـت في كل المبـاني -إلَّا المبنـى الجراحـي- قِطَـع الزجـاج المتناثـرة حولـه؛ تشـير إلى نصيبـه مـن القذائـف التـي انهالـت عـلى منطقـة الأشرفيـة بأَسْرِهـا، والحـزن الـذي خيَّـم عليـه...

في ذلـك الوقـت كانـت التليفونـات مـا زالـت تعمـل، ألـحَّ كلُّ الموجوديـن عـلى الاتصـال بقيـادة الجيـش وقيـادة الفدائيـين؛ لطلـب تَجنُّـب قصـف المستشـفى، وتـمَّ الاتصـال بمكتـب وزيـر الدفـاع في حكومـة وصفـي التَّـل، وأُبلِـغَ بـأن المستشـفى يُقصَـف، رغـم أن المستشـفيات مُتَّفَـقٌ عـلى عـدم قصفهـا في وقـت الحـروب بحسـب

القانـون الـدولي الإنسـاني، وجـاء الـرَّدُّ صادِمًـا؛ قيـل لنـا: "ومالـه... هـوَّ انتـو بتعالجـوا مـين يعنـي... مـا انتـو بتعالجـوا المخرِّبـين"! في الغالـب كان صاحـب هـذا الـردِّ الوقـح واحِـدًا مـن الموظَّفـين الصِّغـار في الـوزارة.

اتصلنـا بقيـادة الجيـش بعـد ذلـك، وكان الرَّدُّ مُشـابهًا؛ حينهـا فهمنا أننا مسـتهدفون، وأن القصـف لم يكـن عـلى سـبيل الخطـأ؛ زاد هـذا مـن شـعور الجميـع بالإحبـاط واليـأس، وكان أقصى مـا تصوَّرتـه -قبـل أن نتأكَّـد مـن الأمـر- أنـه مـن غـير المعقـول أن تُسـتَهدَفَ المستشـفيات، وأنـه بالتأكيـد حـدث خطـأ مـا جعلهـم يغفلـون عـن إدراج المجمـع مـع الأماكـن التـي يُحظَـرُ قَصفُهـا، وهـذه جريمـة في حـدِّ ذاتهـا!

أُجـري اتصـال آخـر بقيـادة الفدائيـين، قالـوا لنـا: "هـل مـن المعقـول أن نـضرب المستشـفى ونحـن نعـرف أن شـبابنا يُعالَجـون فيـه؟!"...

عنـد هـذا الحـد وجدنـا أنفسـنا مضطرِّيـن لمراجعـة موقفنـا سريعًـا داخـل المستشـفى، وأخذنـا نتشـاور فيـما يمكـن لنـا أن نفعلـه لمعالجـة الموقـف.

كانـت الغرفـة الأولى بالمستشـفى الجراحـي -الـذي قـاوَمَ الانهيـار- تقـع عـلى يمـين المدخـل، وهـي أوَّل غرفـة إلى يسـار الداخـل للمستشـفى مـن الخـارج، كانـت الغرفـة مـن قبـل -طـوال الشـهور الماضيـة- تعـجُّ بضجيـج الزائريـن والوافديـن للسـؤال، سـقَطَت مـن عـلى بابهـا لافتـة "الاسـتعلامات"، وأُغلِـقَ بابُـه، دون إحـكام. سـألني الحكيـم عـن ثلَّاجـة المـوتى (التـي لم تكـن تَسَـعُ أكـثرَ مـن عَـشرِ جُثَـثٍ، وكانـت ممتلئـة بالمـوتى مـن الأسـاس)، فأخبرتـه أنهـا عـلى بُعـد ثلاثمائـة مـتر مـن المبنـى، إلى الشـمال، والوصـول إليهـا محفـوف بالخطـر؛ حيـث سـيضطر الذاهـب إلى هنـاك إلى المسـير في العـراء، معرِّضًـا نفسـه للرصـاص الطائـش والقذائـف التـي تنفجـر في كل مـكان، ونَقـلُ الجُثَّـة الواحـدة يحتـاج إلى نقَّالَـةٍ وشـابَّيْن لِحَملِهـا. توصَّلنـا إلى قـرار بالاسـتغناء عـن ثلاجـة المـوتى الأصليـة، واسـتبدالها بقاعـة أخـرى داخـل المستشـفى؛ لنضـع بهـا جثـث القتـل، عـلى أن تكـون بعيـدة عـن الجرحـى وأهليهـم وذويهـم، ووقَـع اختيارنـا عـلى غرفـة الاسـتعلامات، لتتحـوَّل -مؤقتًـا- إلى مخـزن للجُثَـث!

سـاعاتٍ وكانـت الغرفـة ممتلئـة بقِطَـع القُطـنِ، والملابـس الغارقـة في الدمـاء، تَتجمَّـع في الزاويـة الغربيَّـة مـن الغرفـة، وعـلى الأرض تتمـدَّد جثـث القتـلى مصفوفـةً بجـوار بعضهـا، بأشـكالٍ وأوضـاعٍ مختلفـة، قبـلَ أن يـدبَّ فيهـا التخشُّـب الرِّمِّـي...

غرفـة التسـجيل (التاليـة لغرفـة الاسـتعلامات) صـارت إلى نفـس الصـورة خـلال السـاعات القليلـة التاليـة؛ امتـلأت الأرض، ولم يَعُـد هنـاك مـكان لِجُثَـثٍ جديـدَة في نهايـة اليـوم. الفـارق بـين الغرفتـين أن كل جُثَّـة موجـودة في الغرفـة الأولى كانـت تحمـل شريطًـا لاصقًـا أبيـض، أُلصـق عـلى الجبهـة، وكُتِـب عليـه الاسـم، أمَّـا الغرفـة الثانيـة فبعـض الجُثَـث فقـط كُتـب عليهـا، والبعـض الآخـر تُـرِكَ بـلا اسـم؛ فلـم يَعُـد هنـاك وقـتٌ لكتابـة الأسـماء والبيانـات أو البحـث عـن هُويَّتـه مـن ناحيـة، ومـن ناحيـة أخـرى كانـت جثـثُ بعـض القتـلى قـد نُقِلَـت إلينـا بواسـطة أشـخاص لا يعرفـون هوياتهـم!

خلـف الحاجـز الخشـبي الـذي يصـل بـين قسـم التسـجيل والاسـتعلامات وقاعـة الانتظـار وبـين غـرف العمليـات- كان المَمـرُّ الطويـل هـو الآخـر يمتلـئ بالمصابـين والجرحـى، وبعـض المدنيـين الذيـن جـاؤوا مـع المصابـين ولم يَتمكَّنـوا مـن العـودة. لم يَعُـد هنـاك ذلـك الرجـل الجالـس خلـف البـاب يمنـع الدخـول إلَّا لمـن معـه تصريـح؛ ربَّمـا لم يحـضر أصـلًا -في هـذا اليـوم- مـن منزلـه، وربَّمـا اختـار لـه مكانًـا آمنًـا في الداخـل.

الحـمَّام -عـلى اليمـين- تتراكـم فيـه القـاذورات، والقاعـة رقـم 2 -عـلى اليسـار- مـا تـزال تضـمُّ بعـض الجرحـى الذيـن أصيبـوا قبـل القصـف؛ في صدامـاتٍ سـابقة.

الصالـة أمـام قسـم العمليـات مُكتظَّـة بالنـاس، البعـض جالـس، والبعـض يتحـرَّك خطـوات حـول نفسـه في حـيرة، الأنـين والصِّيـاح يتجمـع في نـداءٍ عـلى الطبيـب، والوجـوه مُرهَقَـة، والتسـاؤل يمـلأ العيـون.

عـلى اليسـار صُفَّـت الحـالات التـي تنتظـر إجـراء عمليـات جراحيـة عاجلـة، الجميـع عـلى الأرض، والإضـاءة ضعيفـة، والدمـاء تنـزف عـلى الفُـرُش والبطاطين.

- يا دكتور... يا دكتور.
- حاضر... حاضر.
- يا دكتور أنا دَمِّي اتصفَّى.
- أعطي له 500 سم محلول ملح بسرعة يا أخت، واربطي الجرح برباط ضاغط.

الجميع مُنحَنٍ على الأرض، والجميع يتصايحون...

- أين زجاجة الكحول؟
- فرَغَت.
- كيف أُطَهِّر مكان الإبرة؟
- غير مُهم... استعملي الماء.

...

- يا دكتور... يا دكتور.
- نعم...
- استرني... عريانة، والرجال حولي...
- حاضر. أعطوني ملاءة...

...

- انقلوها إلى غرفة للنساء.
- مطلوبة للعملية!
- أمامها ساعات قبل أن يأتي دورها...
- ساعات! دمي نزف كله!
- لا تخافي يا أخت... لا تخافي.
- دعني بلا غطاء حتى لا تنسوني.
- حاضر...

***

رغم قسوة الوضع البالغة، إلَّا أن الحال في قسم العمليات كان أفضل إلى حدٍّ ما؛ لأن الطبيب يُركِّز مع مريض واحد. القذائف حطَّمَت زجاج القسم، والجرَّاحون لا يزالون قادرين على العمل الذي بدأ منذ الفجر، والمُمرِّضات يصغين للأطبَّاء بأُذُنٍ، وللقصف بأذن أخرى. وبين كل عملية وأخرى كان الجَرَّاحون والمُخدِّرون (لم

يكـن هنـاك أيُّ طبيـب تخديـر؛ فلـم يحـضر أحـدٌ منهـم للمستشـفى، أو لم يسـتطيعوا الوصـول؛ لـذا فإننـي أقصـد عنـد الإشـارة إلى المُخدِّريـن: مسـاعدي أطبـاء التخديـر!)- ومسـاعدوهم يُغـيِّرون ملابسـهم بملابـس أخـرى معقَّمـة. حـذَّرت رئيسـة العمليـات مـن أن الملابـس المعقَّمـة لـن تكفـي العمـلَ ليلـةً أخـرى، ملاحظـة لم يناقشـها أحـد؛ كان البعـض يتوقَّـع أن القتـال سـيتوقَّف، والبعـض يتوقـع مجـيء الأطبـاء الآخريـن مـن منازلهـم، وهـم سـيواجهون المشـكلة.

كان بالمستشـفى -عـصر الخميـس- أربعـة جرَّاحـين وطبيـب للأمـراض الباطنيـة، انضـمَّ إليهـم مـن المستشـفى الباطنـي، وبقيَّـةُ الأطبـاء تَسـلَّلوا عائديـن إلى منازلهـم، ولم يكـن هنـاك سـوى طاوِلَتَـيْ جراحـة، أمَّـا أقسـام العمليـات في المستشـفيات الأخـرى ضمـن مجمـع المستشـفيات فقـد أخرجتهـا قذائـف المدفعيـة مـن الحسـاب منـذ السـاعات الأولى مـن الصبـاح.

وعندمـا تمكَّـن طبيبـان آخـران مـن الوصـول إلى المستشـفى -مـن خارجهـا- ونظـرًا للزيـادة غـير العاديـة في أعـداد المصابـين، الذيـن يتدفَّقـون عـلى المستشـفى؛ اسـتقرَّ رأينـا عـلى أن نتبـع فلسـفة الاختيـار -أو عمـل الـ Triage- التـي تُتَّبَع في حالـة الكـوارث الطبيـة، وبسـبب الظـروف التـي نعـاني منهـا قمنـا بإجـراء تعديـل عـلى هـذه الخطَّـة لتناسـب الأوضـاع التي نعيشـها بسـبب الزيـادة في عـدد الجرحـى وقِلَّـة عـدد العاملين، واتفقنـا عـلى أن يكـون محجـوب مسـؤولًا عـن تنظيـم العمـل في هـذا الجـزء، وتركنـا لـه أمـر الجرحـى ذوي الإصابـات البالغـة؛ ليقـرِّر أولويَّـة دخولهـا لغرفـة العمليـات. كان لا بُـدَّ مـن حـصر كل الحـالات، ثـم اختيـار الحـالات التـي يمكـن أن تعيـش إذا مـا أُجريـت لهـا جراحـة عاجلـة، واتَّفـق عـلى أن تكـون الأولويـة للأطفـال، ويليهـم الشـباب والشـابات، أمَّـا العجائـز فكانـوا يُتركـون لمصائرهـم، خصوصًـا إذا كان المُصـابُ إصابتـه شـديدة؛ لأن الوقـت الـذي سـتُجرَى فيـه عمليـة لـه -ويسـتغرق هـذا وقتًـا طويـلًا- يمكـن أن يُنقَـذَ فيـه عـددٌ مـن الشُّـبَّان مـن المـوت!

كان القـرار في هـذه الحـالات صعبًـا للغايـة؛ إذ يحمـل في طيَّتـه هـذا الحُكـمُ بالمـوت عـلى البعـض، وإعطـاء الفرصـة للبعـض الآخـر، نعـم، هـي فرصـة مشـكوك فيهـا، لكنهـا تبقـى في النهايـة فرصـة، عـلى عكـس تعسـاء الحـظ الذيـن سـقطوا مـن الاختيـار، ولم

يُمنحوا -حتَّى- هـذه الفرصـة، وقسـوة هـذا الاختيـار أنـه كان يتمُّ بالتقديـر الشـخصي، ودون الاسـتعانة حتـى بالفحوصـات اللازمـة؛ لعـدم توفُّرهـا.

لم يكـن في الإمـكان اتبـاع القواعـد الطبيـة المعتـادة في عمليـة الــ Triage علميًّـا، ولكـن في الظـروف التـي كُنَّـا بهـا كان لا بُـدَّ معهـا أن يتـمَّ تعديـل الكثـير مـن قواعـد طـب الكـوارث Disaster Plan، والإصابـات تتـوالى بأعـداد كبـيرة، والأطبـاء وأعضـاء هيئـة التمريـض عددهـم محـدود، وكذلـك الأَسِرَّة، وبعـد سـاعات مـن بـدء القتـال كانـت المشـكلة هـي توفـير فِـراشٍ عـلى الأرض للمُصـابِ القـادم.

ظَـلَّ قـرار الاختيـار هـذا سرًّا بـين الأطبَّـاء، واقتنـع الجميـع بـأن محجـوب هـو الشـخص الوحيـد القـادر عـلى تنفيـذه. لم يكـن في الإمـكان إعلانـه؛ فـكلُّ مُصـابٍ -أيًّـا كانـت إصابتـه- يتمسَّـك بالحيـاة.

وهكــذا كان المصابــون جميعًــا يصيحــون وينــادون، عندمــا يُفتــح بــاب غرفــة العمليـات عـن طبيـب.

- يا دكتور... أنا هنا من الصباح!
- يا دكتور دمي نزف.
- يا دكتور.. دخيلك الله.

وتمتـدُّ الأيـدي المُرهَقَـة المُصابَـة، تُمسِـكُ بأطـراف أَردِيَـةِ الأطبَّـاء والممرِّضـين والمُمرِّضـات، وتشـدُّها في يـأس، لـكي تلفـتَ الانتبـاه لهـا.

وتتقـدَّم الشـابَّات المتطوِّعـات للتمريـض؛ في محاولـة فاشـلة للتهدئـة، وينتهـي الأمـر إلى الأقـراص أو الحقـن المُهدِّئـة!

استمرَّ القصف طوال الليل، واستمرَّ إحضار الجرحى بأعدادٍ غير مألوفة.

الغريـب أنـه في ظـل هـذا الفـزع الرهيـب كنـا قـد لاحظنـا أمـرًا أثـار اندهاشـنا؛ فقـد لاحظنـا أن معظـم مَـن يحـضر إلى المستشـفى -جَرحـى أو متوفـين- يحملـون مبالـغ ماليَّـةً ضخمـة في جيوبهـم (كانـت مُتعلِّقـات المريـض الأول غـير عاديـة؛ فقـد وجدنـا في جيبـه 4500 دينـارٍ أردنيٍّ، ومشـغولات ذهبيـة تسـاوي ضِعـفَ هـذا المبلـغ)، ولمَّـا سـألت أحـد المصابـين عـن تفسـير ذلـك، قـال لي إنـه مـع القصـف العنيـف عـلى منازلهـم، وتهدُّمهـا؛ فإنهـم يضطـرون إلى الهـروب، دون أن يتمكَّنـوا مـن حمـل شيء مـن

متاعهـم، سـوى النقـود، ومـا خـفّ حملـه وغـلا ثمنـه، كالذهـب أو المجوهـرات، وأن البعـض منهـم كان الحـظ يحالفـه فيصـل إلى المستشـفى عـلى قيـد الحيـاة، وكثيريـن كانـوا يلقـون مصرعهـم في الطريـق... فُزِعـت عندمـا اكتشـفت ذات ليلـة أن بعـض أهـالي الجرحـى المرافقـين لهـم بالمستشـفى يتسـلَّلون إلى غرفـة حفـظ المـوتى ويقومـون بسرقـة متعلِّقاتهـم!

لم تَسـتَطِع السَّـيِّدة مـاري -مـع أقدميَّتهـا وخبراتهـا السـابقة- أن تتـواءم مـع الأوضاع والفـوضى السـائدة، وهـي المُدرَّبَـة عـلى النظـام الإنجليـزي في العمـل! وبـدأ بعـض أفراد فريـق التمريـض الـذي يعمـل معهـا، مـن مُمرِّضـات متطوِّعـات، ينهـرن تحـت وطـأة هـذا الضغـط الهائـل، كانـت أولاهـن: سـعدية، وهـي ممرِّضـة مصريـة تتميَّـز بالكفـاءة العاليـة، ورغـم أنهـا ليسـت جميلـةً فقـد كانـت شـديدةَ الرِّقَّـة، ولديهـا مـن الحنـان والمشـاعر الإنسـانية مـا يفـوق حجمهـا الصغـير. كانـت قصـيرةً ورفيعـة، وسُـمْرَتُها تُذكِّـر ببنـات الصعيـد في مـصر، كانـت إذا وجـدت مريضًـا يتألَّـم -بعـد أن تسـاعده- تجلـس إلى جانبـه تبـكي. سـقَطَت سـعدية في حالـة إغـماء عَصبـيٍّ، لكنهـا لم يُتَـحْ لهـا تَـرَفُ الغيبوبـة. احتضنتهـا السـيدة مـاري، وهـي تربِّـت عليهـا وتقـول لهـا: "يـا بنتـي يـا حبيبتـي.. اهـدئي"، فـتردُّ سـعدية بكلـمات يقطعهـا النشـيج: "أنـا والله مـش خايفـة.. أنـا هاقـوم اشـتغل حـالًا... أهـه"! ثـم تـصرخ، ويعاودهـا التَّشـنُّج: "أنـا مـش خايفـة، والله أنـا كويِّسـة"! وتضمُّهـا السـيدة مـاري إليهـا، فيهتـز جسـمها هـي الأخـرى مـع اهتـزاز جسـد سـعدية، وتنهمـر دمـوع السـيدة مـاري مُبلِّلـةً كلماتهـا: "يـا بنتـي يـا حبيبتـي"...

في غضـون ذلـك سـمع مـن بالطابـق الأرضي بالمستشـفى صراخًـا شـديدا يـأتي مـن جهـة الطابـق الأول، الـذي كانـت المستشـفى قـد أخلتـه؛ لأن الجميـع كان يتوقَّـع أن هـذا الطابـق سـوف يكـون مُعرَّضًـا للقصـف؛ لكونـه يعلـو مـن سـطح الأرض، مبقيـةً عـلى بعـض المـرضى بـه، بنـاء عـلى طلبهـم، بعـد أن حذرتهـم إدارة المستشـفى كثـيراً مـن مَغبَّـة بقائهـم في أماكنهـم، غـير أنهـم تمسـكوا بالبقـاء. كان الصِّيـاح لامـرأةٍ عجـوز، عندمـا وصلنـا إليهـا وجدناهـا في غرفـةٍ وحدَهـا، تحـاول فَـكَّ جبائـر سـاقها المكسـورة منـذ زمـن؛ لتزحـف عـلى الأرض بعيـدًا عـن حطـام النوافـذ، وهديـر الرصـاص. نقلوهـا إلى الممـر فـوق سريرهـا وهـي تولـول وتصيـح، وتشـير إلى الغرفـة المجـاورة. هنـاك، كان السـقف قـد انفتحـت فيـه طاقـة كبـيرة، وامتـلأت الغرفـة بالـركام والغبـار، والتـوت قوائـم السريـر مـن أثـر الانفجـار، ولحُسـنِ الحـظِّ، لم يكـن هنـاك أحـد مـن المصابـين.

تتابعـت الأحـداث بسرعـة كبـيرة، فبعـد دقائـق قليلـة انقطـع التيـار الكهربـائي فجـأة، وسـاد الظـلام لثـوانٍ، ارتفـع خلالهـا صـوت السـيدة مـاري تبحـث عـن كبريـت، ثـم عـن المصابيـح الغازيـة المخزونـة منـذ زمـن، وانتابتهـا حالـةٌ عصبيَّـةٌ مـن الصيـاح والشـكوى. أسرع "الجمـل" -ممـرِّض غرفـة العمليـات، ومسـاعد التخديـر الأكـثر كفـاءة، هـادئ الطِّبـاع- إلى إشـعال المصابيـح بسرعـة، وإدخالهـا إلى الصالـة، وهـدأت السـت مـاري، وتناوَلَـت أقـراص "الڤاليـوم" المهدِّئـة التـي وزَّعهـا أحـدُ الأطبَّـاء.

مـع إظـلام القاعـات التـام اشـتدَّ صيـاح الأطفـال والمصابـين، وتذكَّـروا آلامهـم في هـذا الظـلام الدامـس الـذي يُشـعُّ بالأنـين، وأخـذ الأطبـاء والممرضـات يهدِّئونهم:

- - مالك يا حلوة؟
- - بدِّي "أسلَب" (أشرب).
- - حاضر...

وأتى لها بزجاجة ماء، ولكنها استمرَّت في البكاء.

- - بدِّي "أَسلَب".
- - اشربي...
- - لا.. بدِّي "أسلب" بـ "التِّيلة" (الكيلة- القدح أو الكأس).

وبحث الطبيب حتى وجد كأسًا لإقناع فريال بالشرب منها حتى وافقت.

***

الليـل هـو صديـق الثُّـوَّار -كـما كان يقـول محجـوب دائمًـا-؛ فالثُّـوَّار يتحرَّكـون ليـلًا، أمَّـا النظاميـون فيتحركـون نهـارًا، مـع أوَّل ضـوء...

وعنـد تقـدُّم الليـل كان الجـو قـد خـلا مـن أصـوات القصـف العنيـف، ولم تَبـقَ إلَّا أصـوات الرشَّـاشـات المتوسِّـطة والثقيلـة، التـي لا خطـرَ منها. كنَّـا نسـتطيع أن نرى بعض الطلقـات وهـي آتيـة؛ حيـث إنهـم كانـوا يحشـون الرشَّـاشـات برصاصـاتٍ مُلوَّنـة (عـادةً مـا تكـون الرصاصـة الخامسـة ملوَّنـة، بعـد كل أربـعٍ عاديَّـة، ولمـا سـألت عـن سـبب اسـتخدام رصاصـات ملونـة، قيـل لي إن ذلـك للمُسـاعدة في تحديـد مـكان الهـدف،

وتوضيحه لبقية المهاجمين)... كانت الساحة الخارجية بين المستشفيات مُظلِمَةً، غير أنها مع الطلقات الملوَّنة تلك بدت كأنها ملاهي الأطفال بأضوائها الساطعة.

في غمرة الأحداث فوجئنا بدخول جماعة كبيرة من المقاتلين التابعين للحركات الفدائية، جاؤوا للاطمئنان على رفاقهم؛ فنسي الجميع آلامهم، وتحلَّقوا حولهم يسألون...

- كيف الحال؟
- الوضع جيِّد جدًّا.
- والوحدات؟ (يقصدون "مخيَّم الوحدات للَّاجئين").
- صامدة، أَعطَبَت كلَّ الدَّبَّابات.
- والحسين؟ (منطقة أخرى ينشط بها الفدائيون)
- تمام...
- والمعنويَّات؟
- في السَّما.
- الله يعطيكم العافية.
- بِدُّكم شي؟
- - تموين، وما في ضرورة للمسلَّحين بهذه الكثرة.
- كلهم ماشيين، جاؤوا يطَّمّنوا على إخوانهم ويرحلوا.
- ديروا بالكم على حالكم.

في القاعات تَعطَّل مرور الدكتور توفيق، الذي كان يحاول حصرَ المحتاجين إلى جراحات سريعة؛ بسبب تزاحم الموجودين على المقاتلين، واستمرَّت الأخبار والحكايات، رغم الجراح...

- دمَّرنا سبع دبابات في الوحدات...
- سِتّ في الحسين...

- يا سلام على حميدو! جري ورا الدبَّابة...
- أَسَد، عمل نفس الشِّي في الحسين!

مع هذه الجملة الأخيرة بدأ الشَّكُّ يتسرَّب إلى قلبي؛ فقد كنتُ أعرف "حميدو" هذا جيِّدًا، كان فدائيًّا شجاعًا، تجلَّت شجاعته في قتاله ضد العدو الصهيوني، وهو يمتلك قناعاتٍ راسخة لا تتزحزح، من بينها "أنه لا يجوز قتال عربي مثلي"، وقد علمت بالفعل -فيما بعد- أنه كان قد طلب نقله إلى مجموعات المساندة أثناء الأحداث الدامية؛ لتقديم الخدمات للأهالي والنساء والأطفال، وقد أبدى نشاطًا كبيرًا في نقل أجولة الطَّحين إلى النساء المحتمين بالمسجد؛ لعجنه وخبزه وتوزيعه...

تناسى الجرحى آلامهم، وانتعشت الحالة النفسية إلى حدٍّ ما، ودبَّ النشاط في العدد القليل من الأطبَّاء والمُمرِّضات العاملات، وعادت البسمة تكسو بعض الوجوه، بعد يومٍ مُرهِقٍ كساه الخَوفُ من أن ينهزم الثُّوَّار.

وانكبَّ الجميع -بعد انصراف المقاتلين- على أجهزة الراديو يتسمَّعون الأخبار، وعندما يعثر أحدٌ على إذاعة "صوت العاصفة"؛ يرفع الصوت إلى أقصى درجة ليسمع الجميع...

مرَّ يوم الخميس وليلته كأطول يوم في حياتي، بدون مبالغة.

وحانت ساعة أذان فجر الجمعة، لكن الشيخ الذي اعتاد أن يصعد مئذنة جامع "أبو درويش" لم يصل؛ فالقذائف تنهمر في الطريق!

اليوم الثاني- الجمعة- 1970/9/18

حانَت ساعة أذان فجر الجمعة، لكنَّ الشيخ الذي اعتاد أن يصعد مئذنة جامع "أبو درويش" لم يصل؛ فالقذائف تنهمر في الطريق. حلَّ القَصفُ محلَّ الدعوة للصلاة. والمئذنة العالية -التي تطلُّ من فوق جبل الأشرفية على مدينة عمَّان كلها- زادت نوافذها بعد أن أصابتها مدفعية الدبابات. تشوَّهت المئذنة؛ لأن النوافذ الأصلية مستطيلة، في حين النوافذ التي أحدثتها القذائف مستديرة؛ لكنها تشهد على الجريمة النَّكراء.

لم يكـن المُصابـون قـد خلـدوا للنَّـوم عندمـا توقَّـف القصـف، بـدأ الجرَّاحـون والأطبَّـاء، والفتيـات المتطوِّعـات يتحرَّكـون في سرعـة؛ ليعـدُّوا مكانًـا في الممـرِّ الطويـل لاسـتقبال المصابـين المُتوقَّـع وصولهـم. والبعـض كان يرفـع جُثَـثَ الذيـن غادرونـا -في سـاعات الليـل- إلى القاعـة الكبـيرة التـي حوَّلناهـا لتصبـح مسـتودعًا للجثـث.

اقـترب القصـف مـن منطقـة المستشـفى، ثـم صـار فوقـه، ثـم غطَّـاه، متجـاوزًا إلى مـا وراءه. كان تمشـيطًا بالمدفعيـة الثقيلـة، اعتـادت الأذنُ صوتَـه، مُختَلِطًـا بصـوت تكسـير الزُّجـاج وصيـاح الأطفـال والنسـاء. كان خليطًـا مفزعًـا يغطِّـي عـلى أصـوات ونـداء مَـن ينـادي مـن المصابـين. وعندمـا يبتعـد القصـف، تبـدأ الإصابـات تتوافـد!

أنـا أيضًـا كان قـد كان مـرَّ عـليَّ وقـت طويـل دون نـوم، لا أتذكـر المُـدَّة، لكننـي أذكر نومتـي الأولى في ظـل هـذه الأوضـاع، انتحيـت جانبًـا في زاويـة بعيـدة خلـف المبنـى، وأسـلمت نفسـي لسـلطان النـوم، بملابسـي، دون فـرش عـلى الأرض، أو غطـاء فوقـي، توسَّـدتُ حـذائي، ونمـت، فقـط... هكـذا! أفقـت عـلى دويٍّ شـديد أصـمَّ أذني، كانـت قـد سـقطت قذيفـة خلـف المبنـى مباشرة، عـلى بعـد أمتـار قليلـة مـن المـكان الـذي كنـت أنـام بـه، لم أعـرف المـدة التـي نمتُهـا، لكـن مـؤشرات جسـمي الحيويـة أنبأتنـي -حينهـا- أننـي نلـت قسـطًا معقـولًا مـن الراحـة.

بعـد ذلـك، عندمـا كنـت أحتـاج إلى النـوم بشـدَّة كنـت أبحـث عـن مـكان مناسـب، كانـت التجربـة قـد علَّمَتنـا -مـع تعليـمات الحكيـم محجـوب- ألَّا ننـام في مـكانٍ لا يحميـه جـداران متعاقبـان عـلى الأقـل؛ حتـى إذا مـا أصيـب الجـدار الأول انتبـه النائـم قبـل أن يتهـدَّم الثـاني فـوق رأسـه! كنَّـا نختـار النـوم بالطابـق الأول أحيانًـا، رغـم مـا بـه مـن مخاطـر شـديدة، إلا أن الظـروف المُهيِّئـة للنـوم بالأعـلى -مـن توافُـر أسرَّة عـلى الأقـل- كانـت أفضـل، وكُنَّـا نغامـر بهـذا، لكـنَّ السـؤال البديهـي هنـا: ألم يَكُـن وجودنـا بالمـكان -أساسًـا- مُغامَـرَةً كـبرى؟

مـرَّ الوقـت، وحـلَّ موعـد صـلاة الظُّهـر، واليـوم يـوم جمعـة، لكنهـا كانـت جمعـةً بـلا صـلاة!

ربَّمـا لأول مـرَّةٍ في تاريـخ عـمَّان لم يُـؤذَّن لصـلاة الجمعـة، ولم يجتمـع أحـدٌ، ولم يصـلِّ أحـد؛ إلَّا بالقلوب!

وفي وقت الأذان فتح البعضُ أجهزةَ الرَّاديو لعلَّهم يسمعون أذانًا من بعيد، لكن بدلًا منه سمعوا إنذار المشير حابس المجالي -الحاكم العسكري العام، والقائد العام للقوات المسلحة الأردنية- يُطالِبُ الفدائيين بتسليم أنفسهم، مُحذِّرًا مَن لم يُسلِّم نفسه حتى الساعة الرابعة عصر اليوم، بأنه سيخضع للمحاكمة بتهمة العصيان، وتُهَمٍ أخرى كثيرة...

البعض وَجَمَ، والبعض الآخر ضحك، وتناثرت الأقوال:

- يتكلَّم من مركز قُوَّة!
- سأقول لهم خرجت ولم أَجِدْ الجَيش في عمَّان...

كنت أشعر أن هذا الإنذار لا معنى له، ولم أفهم سَبَبَه؛ فَمِن غير المُتصوَّر أن يذهب فدائيٌّ ويقول "أنا مُخرِّب، وأريد تسليمَ نفسي"... واضِحٌ أن هذا الإنذار يُطبِّق القواعد الدولية بإعطاء فرصة التسليم، أو ما سوف يحدث من مذبحة مُتوقَّعة...

هدأ القصف في الثانية...

بدأ البحث عن حلول للمشاكل المُتراكِمَة: الماء، والطعام، وجُثَث الشهداء، والدم، والبلازما، والنوم، والنظافة... وفوق كل ذلك: توتُّر الأعصاب، الذي بلغ مداه.

الوحدات يتصاعد منها الدخان منذ الصباح، والدَّبَّابات وصلت إلى "النظيف" أمامنا، وأخذت تقصف المستشفى من الغرب. القصف الآن من الجنوب ومن الغرب، وهذا معناه استحالة الوصول إلى مبنى المُولِّدات الكهربائية والمستودع. لا بُدَّ من الوصول لحلٍّ.

في الرابعة انتهت المهلة، وسَخِرت "صوت العاصفة" من المشير، وتَحدَّثته أن يعلن عن عدد المستسلمين. تناقل المصابون النُّكتَةَ التي بثَّتها إذاعة "صوت العاصفة" عن تجَّار القُماش الأبيض الراغبين في فتح متاجرهم؛ لمواجهة طلب المستسلمين المتزايِد. وبدأ قصف مُتبادَلٌ على تَجمُّع آليات في "القويسمة"، ومعه بدأ المصابون يتحاورون حتى تحت القصف:

- مِنَّا...
- لا.. مش مِنَّا.

- لا.. مِنَّا...

- دوشكا.

- دبَّابات...

- لا.. قذائف هاون.

- بعيد عَنَّا...

ويتحوَّل النقاش إلى فرحة:

- مش مِنَّا أبدًا.. مش مِنَّا اللي يساوم على ثورتنا...

...

جلسنا -أنا والحكيم والدكتور توفيق- نتناقش ونراجع موقفنا في حال مجيء الجيش إلى المستشفى نفسه، واتفقنا على أن المستشفى -في النهاية- كيانٌ مُحايِدٌ، يقدِّم الخدمة الطبية للجميع، ولا -ولم ولن- يحارب، وأكَّدنا على أن جميع العناصر المسلَّحة يجب أن تبتعد عن المكان؛ حتى لا يكون مكانًا للصِّراع.

من الممرِّ جاءت إحدى المتطوِّعات تُبلِغُ الدكتور توفيق: "المقاتل ده استشهد". ذهب إليه الدكتور توفيق. ما كان يجب أن يموت! الآن لدينا كَمِّيَّة من الدم. لديه مُجرَّد كسر في عَظمَتَي السَّاق، ونزيف. وذهب عبد الله حسنين... وترك وراءه أرملة، وثلاثة أطفال، وأمًّا عجوزًا!

***

عندما توقَّف القصف في منطقة المستشفى -مع الغروب- بدأ الكثير من العاملين في الخروج، وتوقَّفت كل الأعمال؛ البعض خرج -ومنهم الممرِّضات- إلى منازلهم القريبة للاطمئنان، والبعض خرج في محاولة للوصول إلى الأحياء الأخرى لمعرفة الأخبار، والبعض خرج بلا هدف؛ غير أن يشعر بأنَّه ما يزال حيًّا وقادرًا على أن يتحرَّك من السجن الذي يسمَّى المستشفى الجراحي.

في الداخل ارتفع صوت الست ماري، الذي بُحَّ من كثرة الصياح، ارتفع في هستيريَّةٍ وهي تحاور أحد الموظفين. جاء يشكو من قِلَّة الطعام، ومن أنه لم يتناول أي شيء طوال النهار.

ألقـت المفاتيـح الكثـيرة التـي لم يَعُـد لهـا ضرورة، وأعلنـت أنهـا لم تَعُـد قـادرةً عـلى تحمُّـل مـا يحـدث، وأنهـا لا تـدري مـاذا تفعـل، وأنهـا تعيسـة الحـظ؛ فلـم يكـن متبقِّيًـا لهـا في مُـدَّة الخدمـة الرسـمية في المستشـفى سـوى أيَّـام... ظلَّـت تصيـح في صـوت مبحـوح. في تلـك اللحظـة انهـارت أعصـاب سـعدية مـرَّةً أخـرى؛ مـات شـابٌّ بـين يديهـا وهـو يتشـبَّث بهـا، كأنهـا الحيـاة التـي فارَقَتـه...

أخـذت سـعدية تبـكي بحُرقَـةٍ، وأسرعـت إليهـا السِّـت مـاري، واحتضنتهـا بـين ذراعيهـا. أخـذت سـعدية تصيـح مجـدَّدًا: "أنـا مـش خايفـة... أنـا مـش خايفـة"، كأنهـا تخـشى أن يَظُـنَّ الآخـرون أنهـا تبـكي خوفًـا.

راح طبيـب الأمـراض الباطنيـة يـوزِّع أقـراص "الليبريـوم" و"الڤاليـوم" المهدِّئـة، وبـدأت المتطوِّعـات في توزيـع وجبـة العشـاء عـلى المُصابـين والعاملـين، مـن الطعـام الـذي اسـتطاع الشـباب إحضـاره للمستشـفى.

مـع هبـوط الليـل عـاد الذيـن خرجـوا للفُرجَـة بالأخبـار. المُمرِّضـة سـلوى عـادت بهدايـا تذكاريـة: بقايـا قذائـف هـاون! أخـذت تُوزِّعهـا عـلى الأطبَّـاء وهـي تضحـك كعادتهـا. تبـادَلَ الجرحـى مـن المقاتلـين هـذه البقايـا، وتناقشـوا حـول أعيرتهـا، والمسـافة التـي أُطلِقَـت منهـا. تَهافَـتَ المدنيُّـون عليهـا؛ ليضعوهـا في منازلهـم للذكـرى بعـد أن ينتهـي القتـال! وعـاد أحـد الأطبـاء بغـلافِ قذيفـةٍ كبـيرة الحجـم، وقـال إنـه سـيضعها في منزلـه كمزهريَّـة. أنعَشَـت الأخبـارُ الـرُّوحَ المعنويَّـة، وأدَّى وصـول كميـة مـن الميـاه إلى موجـة مـن النشـاط. ولأول مـرة تُغسَـلُ أرضيَّـة قسـم العمليـات التـي تراكَمَـت عليهـا الدمـاء. وانتعشـت فـرق العَمليَّـات، وقامـت للعمـل. في هـذه الليلـة أُشعِلَـت مصابيـح الغـاز مُقدَّمًـا؛ خوفًـا مـن انقطـاع التيـار فجـأة. كان العاملـون قـد أَلِفـوا المشـاكل التـي تواجههـا، كـما اعتـادت آذانهـم نـداءات الجرحـى، ولم يعـودوا يجيبـون إلَّا بعـد إلحـاح.

***

المعمـول بـه في طـب الكـوارث "Disaster Plan" أن يقـوم المسـؤول بتوزيـع القـوة الموجـودة للعمـل عـلى فترتـين -أو أكـثر- حسـب عـدد العاملـين، والحصـول عـلى قَـدرٍ مـن الراحـة بينهـما، لكـن القـوة الموجـودة -بأكملهـا- لم تكـن تكفـي، حتـى بعـد أن جـاء عـددٌ مـن المُتطوِّعـات التَّابِعـات لفتـح بنـاءً عـلى طلبنـا؛ فالمُمرِّضـات الموجـودات -في الأصـل- تناقَـصَ عَدَدُهـنَّ إلى أربـعٍ عنـد منتصـف النهـار... لا نعـرف كيـف! فلـم

يكـن هنـاك انضبـاط، حتـى السـت مـاري نفسـها اختفـت، بعـد أن أصابهـا انهيـارٌ عَصبـيٌّ؛ نتيجـة عـدم تنظيـم العمـل. وبعـد اختفائهـا كان علـيَّ أنـا والحكيـم تنظيـم العمـل بـين الجميـع. وقـد كان تنظيـمًا عشـوائيًّا!

اليوم الثالث- السبت- 1970/9/19

حـلَّ اليـوم الثالـث -كالعـادة- مـع القصـف والتمشـيط، لكـنَّ الحيـاة داخـل مستشـفى الأشرفيـة كانـت قـد اسـتقرَّت عـلى فوضاهـا! تناقصـت الواجِبـات بالنسـبة للأطبَّـاء (بسـبب الحصـار وعـدم القـدرة عـلى إحضـار جرحـى جُـدُد)، ولكنهـا مـا زالـت أكـبرَ مـن طاقاتهـم بسـبب نقـص إمكانـات العمـل؛ فالمسـتودعات ضُرِبَـت، والصيدليَّـة بعيـدة، وبنـك الـدم مُتوقِّـف؛ لعـدم وجـود متطوِّعـين.

خليَّـة إدارة الأزمـة التـي شـكَّلناها لإدارة شـؤون المستشـفى في ظـلٍّ هـذه الأحـداث -بقيـادة محجـوب- توصَّلـت إلى قـرارٍ بتوزيـع الأدويـة بالجُملـة للمـرضى، وتوزيـع الأكل عـلى الجميـع! احتـجَّ بعـض الأَطبَّـاء عـلى الفكـرة مـن بـاب أنَّ الأكلَ مخصَّـصٌ للمـرضى. قلنـا: "مـش مهـم! هـو مـين يقـدر يفـرز المريـض مـن السـليم في وسـط هـذه الفـوضى"!

كان عـدد المتواجديـن داخـل المبنـى قـد وصـل حـوالي ألـف وخمسـمائة فـرد، بعضهـم أقـارب أو جـيران للمصابـين، وبعضهـم مصـابٌ بانهيـار عصبـي، والغالبيـة كانـت مـن المـرضى والجرحـى.

قـام الحكيـم بعمـل لم أكـن أتوقَّعـه -بوصفـي طبيبًـا- وهـو تسـليم جرعـات مـن المضـادَّات الحيويَّـة لـكل المـرضى، سـواء مَـن يحتاجهـا أو مـن لم يكـن بحاجـة إليهـا! وبعـد توزيـع المضـادَّات الحيويـة وزَّع المُهدِّئـات والمُسـكِّنات عـلى المـرضى جميعًـا أيضًـا، أيًّـا كانـت حالاتهـم. كنـت مندهشًـا: هـل لدينـا مـا يكفـي.. وهـل هـذا هـو القـرار السـليم؟! في الأحـوال العاديـة، سـتكون الإجابـة القاطعـة هـي: "لا"! ولكـن عندمـا يتقلَّـص عَـدَدُ أفـراد التمريـض ليصـل إلى هـذا العـدد المحـدود جـدًّا، وتتضاعـف أعـدادُ المـرضى بهـذا الشـكل الجنـوني؛ فليـس أمامـكَ إلا أن تقـوم بهـا الإجـراء: توزيـع العـلاج بالجُملَـة؛ فالبديـل سـيكون عـدم قدرتـك عـلى إعطـاء أي مريـض أيَّ جرعـة

مـن علاجـه الموصـوف لـه؛ لأنـك تفتقـر إلى الأعـداد المطلوبـة مـن الممرِّضـين الذيـن يعملـون عـلى رعايـة الجرحـى والمـرضى، والذيـن أجريـت لهـم العمليـات الجراحيـة، وإعطائهـم جرعـات الأدويـة المـوصى بهـا، أو حتـى مدِّهـم بالطعـام. واكتشـفت -فيـما بعـد- أن قـرار الحكيـم كان صائِبًـا إلى حـدٍّ بعيـد؛ فقـد كان هـذا القـرار هـو المُمكِـن في هـذا الوقـت، ولكـن المشـكلة أنـه يلتهـم الأدويـة بسرعـة، وقـد طلبنـا مزيـدًا مـن الأدويـة ومـن الأبْسِـطَة، وكُلّ مـا يمكـن إحضـاره مـن طعـام؛ لأن مـا في المستشـفى نَفَـدَ مُعظَمُـه في اليـوم الأول.

حاصَرَنـا الـصراخ والعويـل كلَّـما مررنـا بـين حشـود المـرضى: في الممـرِّ، أو بـين القاعـات... بينـما كان هنـاك آخـرون لا يقـوون عـلى الـصراخ أو النـداء عـلى ممرِّضـةٍ لمسـاعَدَتِه؛ هـذا المريـض -عـادَةً- تكـون حالتـه أخطـر، فنحـن في حـالات الطـوارئ -أو مـا نُسـمِّيه طِبِّيًّـا "الكـوارث الطبيـة"- يتـمُّ ملاحظـة المـرضى كلَّ ثـلاث أو أربـع سـاعاتٍ، وفي بعـض الأحيـان كلَّ سـاعة، حسـبَ مَلـفِّ المريـض؛ لذلـك طلبـتُ مـن الحكيـم متابعـة مَـن لا يشـكو قبـل مَـن يشـكو، وقـد كلَّـف المُمرِّضـات والممرِّضـين بالعنايـة بمـن لا يـصرخ؛ لأنـه قـد يكـون غـير قـادر عـلى الـصراخ.

كان بعـض ذوي المصابـين يعاونـون فريـق التمريـض؛ فمنهـم مَـن ينـاول جرعـة مـاء، أو سـاندوتيش، أو كيـس بطاطـس... إلـخ، ومنهـم مـن يحـاول إيجـاد غطـاءٍ لواحـد مـن المـرضى، أو ينبِّـه الممرضـة أو الطبيـب إلى مُصـابٍ يحتـاج إلى شيء... وكان ضروريًـا ترتيـب أماكـن لرقـاد الجرحـى والمـرضى عـلى الأرض، مـع توزيـع الأغطيـة اللازمـة لهـم، ومُراعـاة تَـركِ مَمـرَّات محـدودة تسـمح بمـرور الأطبـاء والممرِضـات للانتقـال مـن مـكان لآخـر لعمـل الـلازم.

اعتـادت الآذانُ أصـواتَ القصـف، وأخـذت الألسـنة تتسـلَّى بتصنيفهـا، وتحديـد مصادرهـا. والعيـونُ أَلِفَـت بُقَـعَ الدِّمـاء عـلى الأرض، والمـوتى المنتفخـين، والأشـلاء المتناثـرة؛ تَلـوُّثٌ سـمعيٌّ وبـصريٌّ. الأنـوف -وحدهـا- لم تألَـفْ سَريـانَ رائحـة المـوت في طرقـات المستشـفى المزدحمـة.

أصبـح الاقـتراب مـن بـاب المستشـفى مُغامَـرَةً محفوفـة بالمخاطـر، ليـس فقـط بسـبب الرَّصـاص والشَّـظايا، لكـن أيضًـا بسـبب الروائـح النَّتِنَـة المُنبَعِثَـة مـن القاعـات الممتلئـة بجُثَـث الشُّـهداء. في قسـم العمليـات كفُّـوا عـن تعقيـم الملابـس؛ لعـدم توافُـر

أدوات التعقيم والغسيل، وبعدها توقَّفوا عن غسيل الأيدي؛ لعدم توافر الماء، لكنهم -برغم ذلك- يعملون في فترات ما بين القصف المباشر على المنطقة.

المتطوِّعات يعملن ليل نهار، ويتحمَّلن حتى انفلات أعصاب المصابين وبعض الأطباء والممرِّضين والممرضات الذين لم يرضوا عن فقدان مظاهر تحكُّمِهم في حياة المستشفى.

في ظل هذه الأجواء المشحونة جاءت عجوز تسألنا عمَّا يمكن أن تقدِّمه لنا، قالت إنها جَمَعَت خمسةً وتسعين قرشًا من الجيران، وأنها أتت باثنتين وعشرين بيضة، كانت فَرِحَةً جدًّا بما تفعل. طلب منها الحكيم أن تشتري بالنقود شايًا وسُكَّرًا، وتصنعه في منزلها، وتأتي به عند الغروب. أمَّا البيض فقد تقرَّر توزيعه على الأطفال.

بعد قليل وصلت سيَّارة الهلال الأحمر الفلسطيني عند باب المستشفى، اندفع عددٌ من العاملين ليحملوا ما أتت به من أدوية وأدوات وأغطية.

سألوا عن الأخبار:

- من أين الأدوية؟
- من المركز الطبي.
- في الدَّوَّار الأوَّل! (المقصود هو الدَّوَّار الأول في جبل عَمَّان، وهو مستودع الأدوية الرئيسي للهلال الأحمر الفلسطيني والخدمات الطبية لفتح).
- ...
- جئتم من هناك؟
- طبعًا...
- يعني لسَّه مسيطرين.

طار الخبر إلى قاعات المصابين، تنهَّد البعض في راحة، وتقلَّب البعض الآخر مُطالِبًا بشربة ماء...

في العاشرة صباحًا اشتدَّ القصفُ فجأةً. سقطت قذيفة مباشرة على سيارة الهلال الأحمر الفلسطيني، فدمَّرَت المُحرِّكَ، والزُّجاج والدَّواليب، ما عدا أحد الدواليب الخلفية. أسرع بعض المُتطوِّعين إلى السيارة، فأفرغوها من كل شيء.

وجدوا زجاجة عطر، فعادوا وهم يضحكون، وينثرونها على كل من يقابلهم. قال أحدهم للقادمين بالسيارة: "الحمد لله على سلامتكم". وقال آخر: "ضعوا السيارة أمام الباب مباشرة؛ لتمنع دخول الشظايا إلى حدٍّ ما".

تجاوَزَ القَصفُ منطقةَ المستشفى إلى ما وراؤها. قسم الأشعة ضُرِب، والأرض امتلأت بالحُفَر، ودُخانٌ يتصاعد من آخر منطقةٍ داخل مجمع المستشفيات.

عادت موجة القصف في الثانية ظهرًا. كان عدد المصابين قد تضاعف، وقاعات الموتى ازدحمت حتى لم يصبح بها مكان لجديد.

المصابون في القاعة الثانية يصرخون جميعًا، ويطلبون نقلهم إلى الممرِّ؛ بعد أن حطَّمَت الشظايا زُجاجَ قاعتهم، واصطدمت بالجدران فوق رؤوسهم. حوَّلت المُتطوِّعات المُصابين -واحدًا بعد الآخر- إلى قاعاتٍ أخرى، لكن على فُرُشٍ فوق الأرض.

***

الخوف، وفُقدان الأحبَّة، وفُقدانُ الأمل في الحياة- زَرَعت اليأس المطلقَ في نفوس القابعين في بيوتهم، وتحت أنقاضها، مع استمرار القتال، وزيادة العُنف.

وَقَر في نفسي -دون أن أصرِّح لأحد وقتها بما يعتمل داخلي من أفكار- أن المعركة محسومةٌ لصالح السُّلطة، وتذكَّرت ما وقع لنا في سنة 1967، التي تطوَّعت فيها للحرب مع القُوَّات المسلحة المصرية؛ مُنينا بهزيمة مُنكَّرَة حينها، بدأتُ أقارن -بالرَّغم مِنِّي-: في النكسة لم نُحارِب، وهنا القتال وحشيٌّ؛ لكنَّ النتيجة كانت واحِدَة!

امتلأ المستشفى بِمَن يسألون عن مصابين يعرفونهم أو يمُتُّون لهم بِصِلَة. وبين هؤلاء اندسَّت وجوهٌ مشؤومَةٌ تتلصَّص وتتسمَّع، حتى على المصابين. ازدحمت القاعات بالزُّوَّار، وانتعشت حالة الماء والطعام إلى حدٍّ ما، وأتت العجوز بالشاي في أوعية كبيرة، ونشطت -على الفور- المُتطوِّعات في توزيعها، بعد أن جمعن أكبر عدد ممكن من الأكواب. ارتفعت المعنويات مع مجيء الأهل والناس والشاي. وتجمَّع حول كُلِّ مصاب جمعٌ من النسوة والرجال يسألون ويحكون ويلعنون، وبين كُلِّ هؤلاء كانت وجوه حائرة تسأل عن أبنائها، وتُلِحُّ في أن ترى قاعات جُثَث

الشُّهداء، وعندما فُتِحَت أبواب قاعات جثث الموتي، لم يجرؤ أحدٌ على الدخول، وأُخلي المَمَرُّ أمامها من الناس فورًا؛ فقد كانت رائحة تحلُّل هذه الجثث قد بدأت مُبكِّرًا؛ فمعظم الموتي كانوا مُصابين بجروح مُلوَّثة، وكان المكان كامِلَ العَدَد، والجثث تغطِّي أرضيَّة الغرفة بالكامل. كُنَّا قد حَصرنا الأعداد، فوجدناها في نهاية اليوم الأول 196 جُثَّة، بعضها حديث... وكان الأمل يحدونا لدفن هذه الجثث بعد تَوقُّف القتال... لكن متى؟ لا تبدو في الأفق نهاية لهذا القتال، وخوفًا من احتلال الجثث مَزيدًا من الغُرَف -المُكدَّسَة أصلًا بالمرضي- قرَّرنا أن نضع الجُثَث فوق بعضها، في دورين أو ثلاثة؛ لتوفير الأماكن... ويتضاءل الأمل في الدفن.

اليوم الرابع- الأحد- 1970/9/20

مرَّ اليوم رتيبًا، بين أصوات قذائف كهزيم الرَّعد، ومحاولاتنا الشاقَّة لإنقاذ من يمكن إنقاذه من الجرحى. كان الظَّلام قد بدأ يخيِّم عندنا حمل إلينا أحدُهُم نبأ قصف مستشفى الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصَّة، واشتعال النيران به! وسط ذهول كبير أصابنا جميعًا، وألجم ألسنتنا؛ فقد كان كثيرٌ من هؤلاء الأطفال مُصابين بالشَّلَل، ولا يقدرون على الحركة دون مساعدة بالأساس، (لم يكن معهم من الطاقم الطبي سوى أخصائية العلاج الطبيعي، صديقة الدكتور توفق، فقط!) فما بالك بالوضع في ظِلِّ هذه الظروف الرهيبة! لم يَدُمْ ذهولنا كثيرًا؛ إذ تحرَّكنا جميعًا بسرعة، ألقينا نظرة من مدخل مستشفانا على مستشى الأطفال المنكوب، فوجدناها قد قُصِفَت قصفًا مباشرًا، شاهدنا منظر النيران وزخَّات الرصاص المُلوَّنة تنهال عليها.

لوهلة دار في أذهان الجميع نفس السؤال: مَن الذي يستطيع أن يتخطى هذا الجحيمَ؛ ليحاول إنقاذ هؤلاء الأطفال البؤساء؟! ودون شعورٍ منِّي كنت أتمتم لنفسي "أَلَا يستطيع أحدٌ الذهابَ لإنقاذ هذه الأرواح البريئة؟"، ويبدو أن حالة الذهول التي أصابتني وقتها جعلتني لا أسيطر على مستوى صوتي، ففوجِئت بمن يهمس في أذني: "لن يتحرك أحدٌ إلَّا إذا بدأ الحركةَ طبيبٌ"! كان قد سمع همستي التي قصدت أن أختصَّ بها نفسي، في حديث داخلي، طفا على السطح دون وعي منِّي. تذكَّرت الاختبارات التي كان الحكيم يُلقي بي فيها أثناء وجودنا

بالجنوب؛ أجبتُ الرجُلَ مباشرة بأنني سوف أكون هذا الطَّبيبَ! كان فؤاد قريبًا منَّا، وأنصت لهذا الحديث، قال: "وأنا أيضًا" (كان فؤاد نيازي من أقرب الزملاء إلى قلبي، وكان مثالًا للوطنية والتفاني)... انطلقنا نعدو -دون اتِّفاقٍ- في نفس اللحظة باتجاه مستشفى الأطفال، كنَّا نجري في مسارات متعرجِّة، ذات شكل زجزاجيٍّ؛ على أمل تجنُّب الإصابة بطلقات المهاجمين.

رغم قِصَر المسافة بين المستشفيَيْن، التي لا تُجاوِزُ الأمتارَ المعدودة، ورغم أننا قطعناها فعليًّا في ثوانٍ معدودة، إلَّا أنني شعرت أنها استغرقت منَّا دهرًا، وأنا الآن -حينما أتذكر هذه الواقعة المأسوية- أحمد الله أنه لم يَدُر بذهن أحدٍ منَّا -أنا وفؤاد- أثناء ركضنا -أو قبلها- إمكانية إصابتنا بقذيفة، لم نكن لنستطيع تفاديها بالأكيد، وربما فتَّ هذا التفكير في عضُدنا. وصلنا مبنى المستشفى غير مُصَدِّقَيْن أننا لم نُصَب بسوءٍ! عندما وصلنا إلى عنبر الأطفال المعاقين كان المنظر قاتلًا: أطفال يصرخون ويبكون، تَشتَعِلُ في بعضهم النِّيرانُ، خصوصًا في أطرافهم السُّفليَّة، بعضهم يحاول الزَّحفَ هربًا في كل اتجاه يستطيعون الوصول إليه، والبعض الآخر لا حراك به؛ لأنه لا يقدر على الحركة بالأساس، رغم لسع النيران الشديد...

قمنا بإطفاء ما اشتعل من ملابسهم، ثمَّ التقط كُلُّ واحدٍ طِفلَيْن... في الحقيقة لم نَبذل جهدًا في هذا، يكفي أن تنحني لتجد الطِّفلَ قد تعلَّق برقبتك! كانت العودة بنفس الطريقة، إلَّا أنَّ رِدَّة فعل الواقفين على البوَّابة كانت مُفاجِئَة: تصفيقٌ مُدَوٍّ، وهتافٌ، وبكاء... كما لو كانوا في استقبال أبطال. كنتُ -حقيقةً- في حالة ذُعرٍ وخوف في الذهاب والعودة، لكنَّني كنتُ مُتماسِكًا... كان كل ما استطعنا إنقاذه في رحلتنا الأولى تلك هو أربعة أطفال فقط، وقد تركنا خلفنا كثيرين غيرهم، صحيحٌ أننا أطفأنا الحرائق التي اشتعلت بملابسهم، لكن كثيرين منهم كانوا بحاجة لإسعافات أولية، ولم يَعُد المكان آمنًا أساسًا. وبنفس الطريقة التي انطلقنا بها أنا وفؤاد، تكرَّرت الرحلة، لكن هذه المرَّة كان العَدْوُ جماعيًّا؛ إذ انطلق جميع الموجودين -بما فيهم محجوب- وهم يُهلِّلون "الله أكبر"، مندفعين باتجاه مستشفى الأطفال، وعدنا بجميع الأطفال، حتى لَوازمهم وأدويتهم...

***

كانت هـذه الواقعـة محفِّزًا لنـا ليسـتمرَّ اهتمامنـا قليـلًا بتأمـين مستشـفانا، -ولـو بشـكل نسـبي-. لاحـظ فـؤاد وجـود اسـطوانات أكسـجين في العنـبر؛ فحذَّرنـا مـن أن سـقوط أيَّـة قذيفـة عـلى هـذه الاسـطوانات سـيؤدِّي لكـوارث بالمنطقـة كُلِّهـا؛ فبدأنـا بنقـل الاسـطوانات إلى مـكانٍ آمِـنٍ نسـبيًّا، بعيـدًا عـن المبـاني. لا زلـت أذكـر أننـا أثنـاء حملنـا لإحـدى الاسـطوانات أنـا وفـؤاد بعيـدًا أن مَـرَّت مـن فوقنـا قذيفـة ضخمـة، تجاوزتنـا، وانغرسـت في الأسـفلت غـير بعيـدٍ منَّـا، دون أن تنفجـر، ولمَّـا سـألتُ فـؤاد بعـد ذلـك عـن السر في عـدم انفجارهـا؛ أخـبرني -وكان مسـتوى معلوماتـه العسـكرية أفضـل منـي- أن هـذه القذيفـة منزوعـة الـرأس المنفجـر، ولم أفهـم الأمـر في حينـه، لكـن -فيـما بعـد- تَبـيَّن لنـا أنَّ بعـض ضُبَّـاط الجيـش الأردني -خاصَّـةً مـن الفلسـطينيين- وبمـا أنهـم كانـوا مجبريـن عـلى تنفيـذ التعليـمات؛ فكانـوا يقومـون بالقصـف المطلـوب منهـم، لكنَّهـم كانـوا يزيلـون الـرأس المتفجِّـر مـن القذائـف قبـل اسـتخدامها؛ عـلى اعتبـار أنهـا سـوف تسـقط فـوق رؤوس أهلهـم، وعرفنـا أن بعـض الضُّبَّـاط الأردنيِّـين كانـوا يفعلـون ذلـك أيضًـا.

***

غمـرني شـعور التقديـر الـذي أحاطنـي بـه -وفـؤاد- الجميـعُ، وخاصَّـةً المجموعـة الأردنيـة التـي كانـت تُعـادي الفلسـطينيين ومَـن يُسـانِدُهم (كان مـن بـين العاملـين معنـا في المستشـفى بعـض هـؤلاء، وإن كانـوا لم يعـبِّروا عـن مشـاعرهم؛ نظـرًا للظـرف القـاسي)، وكان "الجَمَـل" -رئيـس مسـاعدي التخديـر- أحـد هـؤلاء! كان يقـف أمـام بـاب المستشـفى سـاعة إنقـاذ الأطفـال، وعندمـا رجعنـا وجدتـه يبـكي ويحتضننـي، قائـلًا: "أنـا أُحبُّـكَ يـا رجـل... أعـترف لـكَ أننـي لم أُحِبَّـكَ مـن قَبـلُ، ولكنَّـك اليـومَ كـدتَ أن تفقـد حياتَـكَ لإنقـاذ أطفـالٍ لا تعـرف جِنسـيَّاتِهم"! ثـم ذكَّـرني بموقـفٍ آخـر، عندمـا أَسَرَ الشَّـبابُ ضابِطًـا أُردنيًّـا مُصابًـا، وكان بعـضُ المُتحمِّسـين مـن الشـباب يريـدون قتله؛ فوقَفـتُ يومَهـا وأعلنـتُ بصـوتٍ عـالٍ: "إذا أراد أحـدٌ المَسـاسَ بهـذا الرجـل فليقتلنـي أوَّلًا..."! فتراجَـعَ الجميـعُ، وقُمـتُ بعـلاج الرَّجُـل، وأَمَّنـتُ خُروجَـه من بوَّابة المستشـفى، وكان "الجمـل" شـاهِدًا عـلى هـذا الموقـفِ أيضًـا... ضَمَمتُـه قائـلًا: "إننـي لم أكرهـكَ في أيِّ يـومٍ... أنـا أُقَـدِّر انفعـالات النَّـاس في هـذه الأوقـات العصيبـة...".

كانـت هـذه الأحـداث تأخـذ منَّـا جهـدًا كبـيرًا، لكـنَّ التَّوتُّـرَ العصبـيَّ الـذي نشـعر بـه كان أكـثرَ مِـمَّا نحتَمِلُـه...

***

امتـلأ الجامـع الكبـير القريـب مـن المستشـفى بالنسـاء والأطفـال وبعـض الرجـال، كذلـك مستشـفى العيـون، التـي لم يحـدث لهـا تدمـيرٌ كبـير، وخرَجَـت الرسـائل مـن المستشـفى الجراحـيِّ إلى المكانـين -عـلى عَجَـلٍ- تطلـب مزيـدًا مـن التمويـن والمـاء، والمتطوِّعـين؛ لنقـل جُثَـثِ الشُّـهَداء إلى خـارج المستشـفى، بعـد أن فشـلت محاولـة نَقلِهِـم في سيَّارَة شَـحنٍ؛ فلـم تكـن السـيارة تَتَّسِـعُ إلَّا لِعـدَدٍ محـدود مـن الجُثـث، كـما أنهـا لم تَجِـد مكانًـا لدفنهـم!

فجـأةً، تجمَّـد جميـع مَـن في المستشـفى... مـرَّت -بسرعـة- أمـام المستشـفى آليَّتـان مدرَّعتـان للجيـش الأردني، وتَهامَـس البَعـضُ: "وصلـوا!".

كنَّـا نتوقَّـع دخولهـم مـن البوابـة بـين لحظـة وأخـرى، وسـادَت لحظـات صَمـتٍ، وكتمنـا جميعًـا أنفاسـنا، ثـم -بنفـس المفاجـأة- انفجـرت مَوجَـةٌ عنيفـةٌ مـن القذائـف والطلقـات، لم يَكُـن ممكنًـا تمييزهـا، حـلَّ السـكوت المطبـق بعـد ربـع سـاعة، مضـت دقائـق ينتظـر فيهـا الجميـعُ دخـولَ الجنـود...

تقدَّموا نحو الأبواب قليلًا، لكن بحذر.

بعد لحظاتٍ عَلا صَوتٌ من آخر المَمَرِّ في فرح: "أَسَرْناها... أَسَرْناها"!

احتضـن الجميـعُ بعضهـم البعـض عندمـا عرفـوا أن كمينًـا للثُّـوَّار قـد قـضى عـلى المجموعـة المُسـلَّحة في المدرَّعـة الأولى، وأَسَرَ الثانيـة، وعـاد بهـا إلى "الوحـدات".

هنَّأ الجميع أنفسهم، حتى الأردنيون الموجودون معنا... هلَّلوا وفرحوا!

***

بالعـودة إلى مشـكلة تكـدس الجثـث بالقاعـات التـي خصَّصناهـا لهـا، أعدنـا النَّظـر في الأمـر، واتفقنـا عـلى أن ننقلهـم -عـلى الأقـل- خـارجَ المستشـفى، في آخـر الليـل، قبـل الفجـر، وبعـد مناقشـة البدائـل اتَّفقنـا عـلى نقلهـم إلى الحـرش الموجـود بجـوار البوابـة الرئيسـية لمجمـع المستشـفيات.

يقع هـذا الحـرش بـين المستشـفى والطريـق العـام، بعـد انتصاف الليـل بقليـل بـدأ التنفيـذ بالفعـل، كانـت الأعـداد كبـيرة، حـضر عـدد مـن المقاتلـين، وبـدؤوا يحملـون الجُثَـثَ عـلى نَقَّـالاتٍ مـن القاعـات ويضعونهـا تحـت الأشـجار. اسـتوقفوا القادمـين إلى المستشـفى -لأي غـرضٍ- وطلبـوا منهـم المُشـاركة في نقـل الجثـث، البعـض منهـم كان يسـاعد، والبعـض كان يحـاول، فتهزمـه الرائحـة.

الفَتَيـاتُ المتطوِّعـات ضَرَبـن مَثـلًا رائعًـا جعـل الجميـع يشـعر بالخجـل، بـدأ الأمـر باثنتـين منهـما، حملتـا جُثَّـةً فـوق نقَّالـة، وسـارتا بهـا، مُترنِّحَتَـيْن، تحـت وطـأة ثِقَـل الجَسَـد، وتأثـير الرائحـة المُنبَعِثَـة منـه. كانـت بطولـةً مـن المُتطوِّعـات أن يمضـين في هـذا العمـل القـاسي...

تـمَّ نقـل جميـع الجُثـث إلى الحـرش قبـل طلـوع الفجـر، كان الجميـع قـد بـذل جهـودًا مضنيـة في ذلـك، وكان العمـل داخـل المستشـفى يجـري عـلى قـدم وسـاق في نفـس الوقـت...

اليوم الخامس- الاثنين21-/9/1970

بـدأ اليـوم الخامـس بدايـةً عاصِفـةً؛ إذ لم تكـد تمـضي دقائـق عـلى الـشروق حتـى أخَـذَت المدفعيَّـةُ في القصـف -بتركيـزٍ غـير معهـودٍ- لسـاحة المستشـفى، ومنطقـة الحـرش التـي تبعـد عـن سـور المستشـفى نحـو عـشرة أمتـارٍ فقـط. اسـتعملوا جميـع أنـواع الأسـلحة الثقيلـة، حتـى "الهـاوزر"، وقـد كان القصـف مُفيـدًا في شيء واحِـدٍ؛ فقـد تَفَحَّمَـت الجُثَـثُ، واختفـت معهـا الروائـح الكريهـة!

كان الأمـر غامضًـا ومُحـيِّرًا، لكـنَّ أحـد المقاتلـين المصابـين شرحـه لنـا، فقـد رُصِدَت الجُثَـث بالمناظـير المُكـبِّرة مـن البُعـد، وظَـنَّ الجيـش أن هـؤلاء الراقديـن بملابـس الفدائيـين يُجهِّـزون كمينًـا في المنطقـة؛ ولهـذا قُصِـفَ الموقـع بهـذا التركيـز الشـديد وبهـذه الوحشـية!

فيـما بعـدُ، وبعـدَ نهايـة الأزمـة، كانـت الأشرفيَّـةُ مَقـرًّا للقيـادة الفلسـطينية، وللفدائيـين- أصَرَّ محجـوب عـلى بنـاء نصـب تـذكاريٍّ بسـيط عنـد مدخـل المستشـفى

وسط الحرش، وكتب عليه: "مقبرة الشهداء"، أُزيلَت طبعًا مع تجديدات المستشفى فيما بعد.

هدأ القصف في غضون ساعَتَيْن تقريبًا، بعد أن بعثرت القذائف جُثث الشهداء التي نجت من الحريق الذي شبَّ بها، فألقت بجثتين إلى وسط ساحة المستشفى، وبثلاثة أخرى إلى الطريق العام، بينما اختفت البقية تحت أكوامٍ من التراب والحجارة وأغصان الأشجار، أمَّا الباقون فلم يَعُد في الإمكان لَمُّ أشلائهم.

على أية حال، كانت الفائدة الوحيدة للقصف هي إحراق الجثث والقضاء على الروائح التي بلغت بالجميع درجةً شنيعةً من عدم القدرة على الاحتمال، حتى مع استعمال الكمامات، ورغم هذا فقد خيَّم الحزن، وألقت الهزيمةُ بظلالها على الجوِّ؛ فزادته كآبة...

***

تَداخَلَت الأوقات، واتَّصل الليلُ بالنهار، ولم يَعُدْ مُمكِنًا تمييزُ الأيَّام بتواريخها. أخذ الناس يُحدِّدون الأيَّامَ بحوادثها، والساعات بِشدَّة القصف!

في الصباح أذاعت إذاعة عمَّان أن سيارات الصليب الأحمر ستصل إلى منطقة مستشفى الأشرفية في الفترة من الحادية عشرة إلى الواحدة ظهرًا. انتَعَشَت الآمالُ في إمكانية أن يتوقَّف إطلاق النار، لكن المشاعر العامة لم تكن تتصوَّر ذلك.

أسرَّ فؤاد لي بأنه ينوي الذهاب إلى مقرٍّ بعثة الاتحاد؛ ليحصل على أقراص دواء له نَسِيَه هناك، نصحته ألَّا يفعل؛ فالمسافة بين المستشفى والمقر بعيدةٌ جدًّا، ولا يمكن استخدام سيارة لنقله لخطورة الأمر، لكن فؤاد اختفى فجأة، وعرفت أنه نفَّذ ما قاله لي، شككت في أن مكروهًا قد وقع له، أو أنه وصل ولم يستطع العودة؛ لأنه لو استطاع لعاد؛ فأنا أعرف فؤاد جَيِّدًا: لا يهرب من ميدانٍ، ولا من أداء واجب.

استبشر الناس خيرًا من زيارة الصليب الأحمر الدولي، ومضى الوقت -كالمعتاد- يشهد مزيدًا من الجرحى ومن الشهداء، ويشهد مزيدًا من الجوع والعطش، ونقص الأدوية، وتعفُّن الجروح. كانت رائحة الهواء في المستشفى كريهةً بشكل لا يُحتمل، تَعَوَّد الجميع هذه الرائحة إلى حَدٍّ ما، كانوا يضعون الكمامات الجراحية

على أنوفهم، لم أكن أستعملها إلّا في غرفة العمليات؛ لأنني أعرف أنها لا تمنع الرائحة عن أنفي، وكمية القاذورات تفوق أيَّ تَصوُّرٍ، وإن كانت الروائح قد قلَّت نسبيًّا بعد التَّخلُّص من الجثث، إلا أن مخزون الروائح الكريهة المنبعثة من القاعات كان يكفي لتنغيص حياة البشر في مدينة بأكملها.

من المعروف أن بعثات الصليب الأحمر في أي مكان بالعالم، أثناء تأدية مهامِّها تكون محمية بالمواثيق الدولية المتعارف عليها، لكن الجنون الذي أصاب كل شيء حولنا أثناء أحداث أيلول الأسود جعل كل شيء قابِلًا للحدوث، حتى أكثر الأشياء بعدًا عن تصوُّر الأذهان السليمة، كان قابلًا للتحقُّق، وهو ما حدث بالفعل في مسألة عمل الصليب الأحمر؛ فقد شاعت في الأيام السَّابِقَة فكرة استخدام سيارات الإسعاف للتنقُّل الآمن من قِبل مسؤولين أردنيين، وفلسطينيين أيضًا، كانوا يتحركون في سيارات إسعاف تابعة للسلطة الأردنية، أو الهلال الأحمر الفلسطيني؛ ظنًّا منهم أنها ستكون بمأمن من هجوم المقاتلين أثناء تنقُّلاتها على الأرض، لكن هذا الأمر أصبح معروفًا في صفوف المقاتلين من الجانبين بعد برهة قصيرة من البدء في العمل به؛ فكانت النتيجة المؤسفة أنْ أصبحت تلك السيارات أهدافًا ذات أولويَّة لدى الجانبين!

أخيرًا وصلتنا بَعثَةُ الصليب الأحمر وصلوا بعد الظهر بأربع سيَّاراتٍ فَقط، وكُنَّا نَظُنُّ أنهم سيأتون بعددٍ أكبر من السيارات، كان على رأس المجموعة رجلٌ كبيرُ السِّنِّ، كان مُمتَقِعَ الوجه، تحمل عيناه ذهولًا كبيرًا. لم يستطع دخول المستشفى بسبب الروائح المنتشرة، وكان معه أربعة من الأجانب، كانوا جميعًا في حالة كبيرة من الهلع.

ولمَّا سألناه عمَّا أحضر معه، اكتشفنا أنه لم يُحضِرْ ما نحن في أمسِّ الحاجة إليه: الدم، والماء، والطعام والدواء! وذكر لنا أنهم تحرَّكوا بإحدى عشرة سيارة، لكنهم فقدوا سبعًا منها في الطريق، قال إن عمره سِتَّةٌ وسبعون عامًا، وأنه يشغل منصب نائب مدير الصليب الأحمر الدولي... قال إنه لم يتخيَّل مثل هذا الجنون، خاصَّةً وأن السيارات كلها تحمل شعار الصليب الأحمر، لكن إطلاق النار كان مستمرًّا طوال الطريق. اختُطِفَت بعضُ السيارات، ولم يُعرف مَن الذي اختطفها: الجيش أم الفدائيون؟ فالكُلُّ يَظُنُّ أنَّ استخدام هذه السيارات سوف يحميه من

عمليات القنص والقصف... "وها أنتم ترون ما حدث لنا"! وأضاف بأسى شديد: "إن سيارات الإسعاف والصليب الأحمر صارت الهدفَ الأوَّلَ الآن... إن هذا شيءٌ مأساويٌّ لم أره من قبل"! كان أفراد الفريق الذي حضر معه في حالة ذهول، يسدُّون أنوفهم من شِدَّة وطأة الرائحة، وينظرون حولهم في تعجُّب وتقزُّز، ويكادون يبكون من هول ما يرون.

وقف الرجل -ومَن معه- عند مدخل المستشفى، والتفَّ حوله الجميع من أطباء وممرِّضات ومواطنين. الكل ينتظر الأمل! كان القصف مستمرًّا -في هذا الوقت- فأصاب إحدى سيارات الصليب الأحمر، وكانت سيارة المسؤول الكبير. أُعطِبَت السيَّارة؛ فعرضنا عليه أن نُدبِّرَ له سيارة أخرى عن طريق الفدائيين، لكنه رفض، وقال إنه سيكتفي بما تبقَّى من السيارات، وسينقل فيها الجرحى إلى المستشفيات المُجهَّزة، ولمَّا سأَلناه عن هذه المستشفيات، قال إنها مستشفيات القوات المسلحة، فقُلنا له: "هل من ضماناتٍ لحماية الفدائيين؟" قال: "لا توجد عندي أيَّة ضمانات في هذه الحرب المجنونة... أنا أعمل في الصليب الأحمر منذ أكثر من خمسين عامًا، وحضرت حروبًا أهلية في جميع أنحاء العالم، ولم أَرَ مثل هذه الحرب في بشاعتها، وقسوتها، وضَراوَتها، ولا أخلاقيَّاتها..."، وطلب منَّا أن ننقل إلى السيارات التي تبقَّت معه النساءَ والأَطفالَ أوَّلًا، الذين هم في حاجة إلى رعاية كبيرة وعاجلة. وبدأنا نَصُفُّ المرضى في السيارات...

انتهى القصف أثناء وجودهم معنا، وبدأ التمشيط بالرشَّاشات بعدها كالعادة. اندفع الجميع إلى داخل المَمرِّ، وابتعدوا عن الباب، وفجأةً -أمام القاعة رقم 2، على بعد عشرة أمتار من الباب- اخترقت رصاصَةٌ ذراعَ سائق سيَّارة مسؤول البعثة، الذي كان مُختبِئًا خلف ما ظَنَّ أنَّه ساتِرٌ، وكان ساتره هذا عبارة عن سُلَّمٍ حلزونيٍّ من المعدن، في مدخل الطابق الأرضي، يصل إلى الطابق العلوي! عَبَرَت الرَّصاصَةُ التي أصابته جميع الموجودين قبل أن تصل إليه! حملوه فورًا إلى قاعة الاستقبال، وأرقدوه على الأرض، وقبل أن يغادر رجال الصليب الاحمر سألونا عَمَّا نريد، قلنا لهم إننا نحتاج كل شيء: الدم، والبلازما، والماء، والغذاء، والدواء. ونَقلَ أكبر عدد من المصابين:

- يكفي الذين خرجوا!

- إذن؛ خذوا مُصابَكم مَعكم على الأَقلِّ.
- ألا يُمكِنُ أن تفعلوا له شيئًا هُنا؟
- طبعًا لا.. أنتَ ترى؛ لا توجد كهرباء، ولا ماء، ولا دماء ننقلها له لو احتاج.
- حسنًا سآخذه...

في الرابعة عصرًا أخذ واحِدٌ من الفدائيين سيَّارة الصليب الأحمر -بعد إصلاحها- وذهب إلى الدَّوَّار الأول بجبل عمَّان، وملأها بالأدوية والخبز من الهلال الأحمر الفلسطيني هناك، وعاد بها بعد الغروب.

***

بدَأَت الأفكار السوداوية تحتلُّ مساحةً كبيرة من تفكيري، فَكَّرت في أن الخلاص الحقيقي ممَّا نحن فيه هو الموت: النهاية المحتومة؛ سيحلُّ الموتُ كُلَّ مشاكلنا، لن تبقى شكاوى الزُّملاء من الجوع، أو العطش، أو قِلَّة النَّوم، أو الروائح الكريهة- موجودة! ولكن: هل نحن مَن يَختارُ موعد الوفاة، أو مكانها، أو حتى موعد الإصابة؟!

قارَبَ اليأس أن يتملَّكني، والشَّكُّ كان يتنازعني، شككت في كل شيء، وفي كل شخصٍ أيضًا، عندما انحنيت على سائق الصليب الأحمر لأتفحَّص إصابته كنت أسعى لتأكيد واحد من هذه الشكوك التي ساورتني؛ فقد كنت أحاول التأكُّد من المدى الذي أُطلِقَت منه الرصاصة التي أصابته، راودتني فكرة أن أحدًا ما من المحيطين بنا هو الذي أطلق مسدسه عليه، لكن الفحص أكَّد لي أنه أصيب من مسافة بعيدة!

ولم أكن وحدي في هذا؛ فقد كان اليأس تمكَّن من الجميع. الوحيد الذي لم يستطع اليأس أن ينال منه هو الحكيم! كانت روحه -كما عهدتها دومًا في كل الأحوال- متوهِّجة بالأمل، يتجاهل الإحباط، ويدفع مَن حوله لبذل أقصى جهد لديهم، حتى في ظل هذه الظروف الرهيبة.

***

في العـادة يمـرُّ الأطبَّـاءُ عـلى مرضاهـم في جـدول زمنـي حسـبما تقتضيـه أحـوال المـرضى، ونظـرًا لمـا كنـا فيـه مـن أوضـاع خطـيرة فقـد كنَّـا نكتفـي بالمـرور الصباحـي الـذي كان د. توفيـق يحـرص عليـه، في شـكل جماعـي، كـما تعـوَّد عـلى ذلـك في انجلـترا، وبعـد ذلـك كان المـرور بحسـب الاحتيـاج لـكل حالـة عـلى حـدة، نقـوم بعمـل مـا يمكننـا لهـم، حسـب الإمكانـات المتاحـة، المدهـش في المسـألة أن الأطبـاء أثنـاء تنقلهـم بـين المـرضى الراقديـن عـلى الأرض كانـوا يتحرَّكـون وهـم جاثـون عـلى رُكَبِهـم؛ لأن الرصاصـات والشـظايا تدخـل مـن الشـبابيك دون اسـتئذان! رفضـت هـذا بشـدَّة، كنـت أمرُّ بـين المـرضى وأنـا واقـف، وأنحنـي فقـط لفحـص المريـض وأرى جرحـه. كان الدكتور توفيـق -الـذي يُكِـنُّ لي مَحبَّـةً خاصَّـة- يطلـب منِّـي أن أجثـو عـلى ركبتـي وأنـا أمـرُّ عـلى المـرضى، رفضـت؛ فقـد كنـتُ عـلى يقـينٍ مـن أن المـوت قـادِمٌ لا محالـة، لـذا؛ فَلْأَمُـتْ وأنـا مرفـوع الهامَـة.

كـرَّر الدكتـور توفيـق طلبـه عِـدَّة مـرَّاتٍ، وكنـت عـلى موقفـي، لم تكن هذه شـجاعةً؛ ولكنـي كنـت أكـثرَ الموجوديـن يأسًـا مـن أن ننجـو مـن هـذه الحـرب المجنونـة، ومـرَّةً لاحَظـتُ أنَّ عينيـه مغرورقتـان بالدمـوع، فَمِلـتُ عليـه أسـأله عـن السـبب. قـال: "انـت عـارف أنـا باحبَّـك قـد إيـه يـا يـسري. ولـو جاتلـك رصاصـة في راسـك مفيـش حـد يقـدر يعمـل لـك حاجـة. وحتـى لـو كنـت في مستشـفى مُجهَّـز، صعـب عـليَّ أن أعمـل لـك عمليـة؛ لأنـك أخويـا الصغـير"، احتضنـت الرجـل، وقلـت لـه: "سـأفعل مـا تريـد، وسـأمرُّ عـلى المـرضى؛ وأنـا جـاثٍ عـلى ركبتـيَّ"!

***

كانـت الترتيبـات مـع محجـوب أن يتـمَّ توزيـع مـا نحصـل عليـه مـن غـذاء طبقًـا لنظـام يتَّبـع ترتيبـاتٍ معيَّنـة، قَضَـت تلـك الترتيبـات بوَضْـعِ الأطبَّـاء في آخـر صـفٍّ الأولويَّـة، رغـم المجهـود غـير العـادي الـذي يقومـون بـه، وقـد انعكـس ذلـك سـلبًا عليهـم؛ فأنـا -مثـلًا- فقـدتُ خـلال هـذه الفـترة مـن اثنـي عـشر إلى خمسـة عـشر كيلـو جرامًـا مـن وزني، ولم أكُـن أكـثرَ العاملـين حركـةً ونشـاطًا! هـذه الترتيبـات (أن نكـون -كأطبـاء- آخـر الَّذيـن يُـوزَّع عليهـم الغـذاء) كان مـن بـين أهدافهـا أن نـضرب المثـل بأنفسـنا للآخريـن، وأن نقطـع الطريـق أمـام أي شـكوى مـن قِلَّـة الغـذاء مـن أحـد المـرضى، أو ذويهـم، بخـلاف أننـا -كأطبَّـاء- لم يكـن الغـذاء هـو المشـكلة الأساسـية لنـا.

وإنما كان المياه، أو السوائل بشكل عام؛ فالإنسان يحتاج السوائل أكثر من الغذاء، وبدونها يتعرَّض لمشاكل صحية ضخمة قد تؤدِّي للوفاة. كُنَّا نستعيض عن الماء بمحلول الملح المُخفَّف، أو الجلوكوز المُخفَّف، وكلاهما كان من الأشياء القليلة التي كانت متوفِّرةً لدينا بالمستشفى. صرت بعد ذلك أكره طعم الاثنين!... ورغم هذا، ورغم أنه لم يحدث أن قُمنا بِعَمَلِ فحوصٍ شامِلةٍ لنا -نحن؛ الأطباء الذين شاركوا في هذه الملحمة- بعد انتهاء الأزمة، إلَّا أنني أجزم -رغم كل ما مَرَرنا به- أنه لم يُصَبْ أيٌّ منَّا بأمراض خطيرة بسبب ذلك، حسب معلوماتي، وهو ما أعتبره من ضمن المعجزات الكثيرة التي عشناها تلك الأيام، والتي كان أهمها أننا ظللنا أحياء بعد كل ما حدث!

إطلاق الرصاص والقصف لا يتوقف، والحرائق تشتعل، والقتلى يزداد عددهم كلَّ ساعة وانقطع التَّيَّار الكهربائيُّ، والمُولِّدُ لا يُمكِنُ إصلاحُه الآن، وانقطعت المياه عن المستشفى، ولا توجد أدوية -فقد استُهْلِكَت كُلُّها- ولا يوجد طعام، وإذا تَحصَّلنا على بعض الطعام فالأولويَّة للمرضى حسب النظام الذي وضعه الحكيم، وحتى المرضى كانت يُطَبَّق معهم مبدأ الأولويَّات، فإذا تحصَّلنا على بعض البسكويت -مثلًا- أو أيَّة أغذية فالأولويَّة للأطفال، ثم النِّساء، ثم كبار السِّنِّ، ثم المرضى الشباب، ثم العاملين؛ أوَّلًا: المُمرِّضات والمُتطوِّعات، ثم الشباب من المُمرِّضين والمُتطوِّعين، ويأتي الأطبَّاءُ في آخر القائمة. كان ذلك يُفَعَّلُ في حالة الحصول على كَمِّيَّات كبيرةٍ من الطعام، مثلما حدث في أحد الأيَّام عندما تَحصَّل أحدُ الشَّباب على جوالٍ من الطَّحين، فأخذه إلى المسجد، حيث قامت النساء بِعَجْنِه وخَبْزِه، وأُرسِلَت لنا كَمِّيَّةٌ من الخبز كافية للجميع. كان "حميدو" أكثرهم إمدادًا لنا بالخبز...

كنَّا عاجزين عن تفعيل العمل في غرفة العمليات بعد أن قُصِفَت، فكُنَّا نُجري عمليَّاتٍ محدودةً في إطار الإمكانات، وقد اضطُررتُ في إحدى المرَّات للتَّقدُّم للتبرُّع بالدَّم لأحد المرضى من الشباب؛ لعدم توافُرِ دَمٍ بالمستشفى، وعدم وجود متطوِّعين -إلَّا فيما ندر-؛ حيث يتخيَّل الأردنيُّون والفلسطينيُّون أن المُتبَرِّع بِدَمه يَضعُفُ، وقد يموت، أو تصيبه أمراضٌ خطيرة، وكما قال الحكيم؛ تَقَدُّم طبيبٍ للتبرُّع يُقنِعُ الخائفين بعدم وجود خطورة، وفعلًا؛ كان لذلك نتيجة جيِّدة؛ فقد تقدَّم شبابٌ من المرافقين للمرضى بالتبرُّع، وإعفائي مِمَّا كنتُ جاهزًا له بالفعل...

تناقص -تدريجيًا- حضور المقاتلين في الليل، ليطمئنونا، ويمدُّونا بالأخبار، وما يوفِّرونه من مؤونة، وكان هذا علامةً على اقتراب الجيش من منطقة المستشفى. كُنَّا نتوقَّع في أي وقت ساعةَ الصِّفر لاجتياح المستشفى...

اليوم السادس- الثلاثاء- 1970/9/22

إذا كان الطعام يمكن الصَّبرُ عليه، وإذا كان الماء يُستَعاضُ عنه بالجلوكوز ومحلول الملح؛

فكيف السبيل إلى الاستغناء عن الدواء؟! لا سبيل للاستعاضة عن الدواء إلَّا بالدَّواء! ومع افتقاد معونة الفدائيين لم يكن أمامنا من سبيل للحصول على الدواء الذي نحتاج كمياتٍ ضخمةً منه، خاصَّة بعد تطبيق نظام محجوب بإعطاء الدواء للجميع.

تناقشنا كثيرًا -بأسًى- حول موضوع الدواء، واحتياج المرضى له، وعدم توافُرِه في المستشفى، بينما كانت الصيدليات المنتشرة في شوارع عمَّان، والتي أغلقت أبوابها بسبب الحالة العجيبة التي تعيشها المدينة- تمتلئ بأصنافه المختلفة، ولو كانت مفتوحةً لكُنَّا قد اشترينا كلَّ الدواء الموجود فيها، وقد فوجئنا بمحجوب يتَّخِذُ قرارًا أعلن تحمُّله مسؤوليَّته الكاملة عنه أمام القيادة...

كان قرارًا غير مُتوقَّع، وغير مسبوق، قال للشباب: "اذهبوا إلى أيَّة صيدلية تجدونها في الشارع، اكسروا أبوابها، واقتَحِموها، وحمِّلوا جميع الأدوية الموجودة بها -دون تمييز-، واكتبوا لصاحب الصيدلية بأن شباب المقاومة من فَتْح هم مَن قاموا بذلك، وأن القيادة الفلسطينية سوف تُعوِّض صاحب الصيدلية -بعد الأزمة- عن كُلِّ ما أُخِذ من الصيدلية لعلاج المصابين وإنقاذ مَن يموتون، وإذا مَرَرتُم بأكثر من صيدليَّةٍ افعلو نفس الأمر؛ لاحتياجنا لأكبر كمية من الدواء"! وأثار البعض لغطًا حول هذا القرار: هل يندرج هذا تحت بند السرقة؟ وكان الرد من الآخرين: وهل نترك الفدائيين والمدنيين الجرحى والمصابين يموتون بسبب نقص الأدوية، وهي مخزونة في الصيدليات المُغلَقَة بسبب قتال مجنونٍ يدور في الشوراع؟!

واتُّفـق عـلى أن إنقـاذ حيـاة المُعرَّضـين للمـوت أهـم بكثـير مـن أي شيء؛ خاصـة وأن أصحـاب الصيدليـات سـيعوَّضون عـن كل مـا سـيؤخذ منهـم، ولهـذا؛ ففكـرة السرقـة لا تنطبـق عـلى هـذه الحالـة.

***

تظـلُّ مشـكلة عـدم النـوم -أو قِلَّـة الفـترات المتاحـة لـه- الشـاغِلَ الأكـبر لنـا، وكُنَّـا نعتـبر أن المستشـفى بأكملـه لا يصلـح للنـوم بسـبب أوضاعـه. خرجـت يومًـا بحـذرٍ مـن بـاب المستشـفى الجراحـي؛ لأسـتطلع الموقـف حـولي في مـرَّة مـن مـرَّات تَوَقُّـف القصـف؛ لعـلِّي أجـد مكانًـا أسـتطيع النـوم فيـه بعيـدًا عـن المستشـفي الجراحـي... اسـتطعت الوصـولَ إلى المستشـفى الباطنـي الواقـع عـلى يسـار المستشـفى الجراحـي، كان قـد قُصِـفَ، وتهدَّمـت معظـم مبانيـه، كان خاليًـا مـن البـشر، وجـدتُ -في مواجهـة المدخـل- جـزءًا مـن المبنـى لم يتهـدَّم بعـدُ، دلفـتُ لأتقصَّى الوضـع، فوجـدت "ترولِّـلي" عليـه شـظايا زجـاج، وبعـض الطـوب، ورمـل كثـير، وعليـه مُـلاءاتٌ، وغِطـاءٌ مِطَّاطِـيٌّ فقُمـت بإزالـة الطـوب والأتربـة مـن عـلى سـطحه، ودفعـت بـه باتجـاه زاويـة خلـف جداريـن شـبه متماسِـكَين، يقعـان باتجـاه القصـف الـذي كان يـأي وقتهـا مـن نهايـة جبـل "النظيـف"، وأخـذت مُـلاءةً بيضـاء نظيفـة واسـتعملتها كغطـاء، تمـدَّدتُ عـلى الترولِّـلي مثـل حَجَـرٍ، دارت الدوائـر في رأسي -الـذي كان يطـنُّ- بطيـف الأهـل والأحباب، لثـوانٍ، لم أشـعر بعدهـا بـشيء!

لم أشـعر بالجـدار الأول، عندمـا انهـار، لكننـي شـعرت ببدايـة تسـاقُط الطـوب والرمـل عـلى المُـلاءة،

غطَّتنـي الأتربـة، وقفـزتُ أعـدو إلى المستشـفى الجراحـي. كنـتُ سـعيدًا جـدًّا لأننـي نِلـتُ قسـطًا مـن النـوم. لا أعـرف كَـمْ نِمـتُ، لكنَّنـي شـعرت بالراحـة، وتخلَّصـتُ مـن التوتُّـر والشَّـدِّ العصبـي إلى حَـدٍّ كبـير، وعـدت مـن نومـي في خرائِـبَ المستشـفى الباطنـي لأجـد كثـيرًا مـن العمـل ينتظـرني.

كان كثـير مـن الأطبـاء وطاقـم التمريـض -الذيـن يعملـون في المستشـفى مـن قبـل القصـف- قـد جـاؤوا لحضـور الـدوام، وعندمـا اكتشـفوا أن الاوضـاع بَشِـعَةٌ؛ تَسـلَّلوا عائديـن إلى بيوتهـم، أو إلى أماكِـنَ ظَنُّـوا أنهـا آمنـة... وهـل كان في عـمَّان مـكانٌ آمِـن؟!

***

إن كانـت آثـار الحـرب -في عمومهـا- مُدمِّرةً للمبـاني، والمنشـآت، فـإن آثـار تدميرهـا للـروح الإنسـانية لا تقـل ضراوةً ولا عنفًـا!

وبالفعـل، تسـبَّب الـصِّراع الدَّائِـرُ بشراسـةٍ بالغـة بـين السـلطة الأردنيـة والفدائيـين الفلسـطينيِّين إلى نشـوء فجـوة واسـعة، وشـعورٍ بالكراهيـة بـين الأردنيين والفلسـطينيين، وحتـى بـين الأردنيـين الأصليِّـين والأردنيـين الذيـن كانـوا من أصـلٍ فلسـطينيٍّ، وهـم كُثُرٌ، ويُشـكِّلون نسـبة كبـيرة مـن الشـعب الأردني، ولم أكـن قبـل هـذا الوضـع الـذي صرنـا إليـه أسـتطيع التمييـز بينهـم، خاصـة وأن الكثيريـن مِمَّـن يحملـون الهُوِّيـة الأردنيـة هـم في الأصـل فلسـطينيون نزحـوا مـن الضِّفَّـة الغربيـة ومـن مـدن فلسـطينية عديـدة، سـواء بعـد احتـلال إسرائيـل لفلسـطين سـنة 1948، أو بعـد احتلالهـا الضفـة الغربيـة في حـرب 1967.

اعتـدت الصعـود إلى الطابـق العلـوي بالمستشـفى لمتابعـة وضـع بعـض المـرضى الذيـن أبـوا النـزول لأسـفل، وفي إحـدى زيـاراتي المتكـرِّرة تلـك، كان الظـلام يعـمُّ المـكان، التقطـت أذني صـوت بـكاء ونحيـب، وعندمـا اقتربـت مـن البقعـة التـي يصجـر منهـا الصـوت وجـدت سـميرة، الممرِّضـة الأردنيـة مـن أصـل فلسـطينيٍّ، وهـي معروفـة بكفاءتهـا العاليـة، وأدبهـا، وهدوئهـا- فسـألتها عـن سـبب البـكاء، فأبلَغَتنـي أنهـا فَسَـخَت خطبتهـا اليـومَ مـن خطيبهـا، الشـابِّ الأردني الـذي تُحبُّـه، كان يعمـل بالجيـش الأردني، وكان قـد أتى لزيارتهـا اليـوم مرتديًـا ملابـس مَدنيَّـة، فأبلغتـه بقرارهـا... سـألتُها إذا كانـت مـا تـزال تُحبُّـه، قالـت: "نعـم! ولكنـي لا أسـتطيع النَّـومَ مـع رجـل كان يقصـف بيـوت أهـلي ويقتلهـم"! فسـألتها: "وهـل فَعَـل؟" أجابتنـي قائلـة إنهـا لا تعلـم، ولكـن الصـورة انطبعـت في خيالهـا هكـذا! شـعرت بـالأسى للوضـع الـذي وصلنـا إليـه...

***

كان الطَّعـام قـد أصبـح نـادِرًا بالفعـل، وأكـثر نـدرة منـه: الخبـز! ورغـم أننـي في حيـاتي العاديـة لا أتنـاول الخبـز إلَّا نـادِرًا، وأسـتبدله بـالأرز أو المكرونـة؛ إلَّا أننـي أصبحـتُ أشـتاق إليـه بشـدَّة! لم أعـد أتذكَّـر آخـر مـرَّة اسـتطعنا الحصـول فيهـا عـلى قطعـة خبـز.

عندمـا كان الطَّعـام يتوفَّـر ونحـن في الجنـوب، كنـت احيانًـا لا أشـعر برغبـة في تنـاول الطعـام، حينهـا كان محجـوب يحثُّنـي عـلى الأكل، وهـو يُشـير إليَّ بإصبعـه، ويقـول: "كُلْ في أي وقـت تجـد أن هنـاك طعامًـا أمامـك... وكُلْ بِسُرعَـة"!.

- لماذا؟
- أَصلَك مش عارف حتلاقي أكل تاني إمتى... وكُلْ بسرعة كمان...
- ليه؟
- لأنَّك جايِز ما تقدرش تكمِّل الأكل!

وكأنها كانـت نبـوءة، وقـد تحقَّقـت بالفعـل، تذكَّـرت هـذه الكلـمات عندمـا عـزَّ الأكل؛ ولم نَعُـد نجـد الخبـز، بـل وأصبحنـا نشـتهيه!

تذكَّـرت هـذا، بينـما كنـت أمـرُّ مُسرعًـا في الممـرِّ، أتحـاشى أن تَعلَـقَ القـاذوراتُ المتناثـرة عـلى الأرض في كل مـكان حـولي، وبالرغـم مـن حـرصي عنـد المـرور في طرقـات المستشـفى بـين أكـوام الجرحـى اصطـدم حـذائي بـشيء صَلـبٍ فقذفـه أمامـي، ولمَّـا دقَّقـت النَّظـر اكتشـفتُ أنـه قِطعَـةُ خُبـزٍ يابِسَـة في حجـم الكـف، فَرِحـتُ بهـا جـدًّا، رغـم مـا كان يَعْلَـق بهـا مـن أشـياء لم أُجهِـد نفـسي لتمييزهـا؛ بـل جَهـدتُ كثـيراً في إزالتهـا، حتـى صـارت قطعـة الخبـز أقـربَ إلى وصـف "نظيفـة"!

واندفعـت إلى زمـلائي أبشِّرهـم بمـا وجـدت، فعمَّـت حالَـةٌ مـن الشـغف. قسـمتها قطعًـا؛ كل قطعـة بحجـم حبـة الحلـوى، ووزَّعتهـا عـلى الزمـلاء، وكانـت فرحة المشـاركة في الوليمـة عارِمَـةً؛ فقـد كان الجميـع يشـتهي الخبـز منـذ فـترة بَـدَت كشـهور، مـع أنهـا كانـت مجـرَّد أيـامٍ قليلـة...

***

أُصيـب أحـد المـرضى بغرغرينـا في قدمـه؛ فـكان لا بُـدَّ مـن بـتر سـاقه. تبادلنـا الـرأي أنـا والدكتـور توفيـق، كنـا نخـشى مـن أننـا إذا أجرينـا تلـك العمليـة في غرفـة العلميات؛ فسـوف تتلـوَّث الغرفـة تمامًـا، ويُمثِّـل هـذا خطـرًا عـلى أي مريـض تُجـرَى له عمليـة فيها فيـما بعـد، واتفقنـا عـلى أن يُنقـل المصـاب إلى غرفـة جانبيَّـة في الطـرف الشـمالي بآخـر المستشـفى، وأن تجـرى عـلى "ترولِّـلي" (في ذلـك الوقـت -في السـبعينيات ومـا قبلهـا- كان المتعـارف عليـه طبِّيًّـا أن الغرغرينـا ميكـروبٌ عنيـف يقـضي عـلى المريـض، وأنـه

يهاجـم كلَّ الأنسـجة، فيـما بعـد، ومـع التَّقـدُّم العلمـي، اكتُشِـف أنـه الميكـروب يُهاجـم الأنسـجة الميِّتـة فقـط). أيقظنـا "الجمـل" مسـاعد التخديـر، ونقلنـا جهـاز التخديـر إلى الغرفـة الأخـيرة في أقـصى شـمال المستشـفى، ووضعنـا المريـض عـلى "الترولـلي"، كانـت الإضـاءة بمصبـاح غـازي، بعـد أن قُصـف موتـور الكهربـاء، وكان الشـباب مـا يزالـون يحاولـون إصلاحـه. في هـذه الظـروف غـير العاديـة -وغـير الطبيعيـة- أُجريـت العمليـة، بـدون تعقيـمٍ، وتحـت أسـوأ الظـروف، وبُـتِرَت سـاق الرجـل في النهايـة، تذكَّـرتُ سـاعتها نصيحـةَ كبـيرٍ أسـاتذة الجراحـة لنـا ونحـن أطبـاء صغـار، وكان بعـض الأطبـاء يشـكون مـن عـدم توافُـر بعـض التجهيـزات اللازمـة لإجـراء العمليـات الجراحيـة؛ فكانـت نصيحتـه لنـا -كجرَّاحـين صغـار-: "لا تَقُـم بأيَّـة عمليـة جراحيـة إلا إذا توافَـرَت كُلُّ التجهيـزات، وكان المـكان مُناسِـبًا، مـع توافُـر المسـاعدين المناسـبين، والتخديـر الجَيِّـد، والإضـاءة الجَيِّـدة..."! عندمـا تذكَّـرت هـذا الـكلام ابتسـمتُ وأنـا أتخيَّـل الرَّجُـلَ وهـو يشـاهد مـا نفعلـه!

***

يتوافـد إلى المستشـفى الفدائيـون بسـيارات مختلفـة؛ لإحضـار الجرحـى الذيـن أُسعفوا أوليًّـا في المخيَّـمات أو المراكـز الطبيـة التابعـة للثـورة الفلسـطينية، المنتـشرة في أرجـاء عـمَّان، كانـوا يُحضـرون الجرحـى المحتاجـين لعمليـات جراحيـة، ولم يكـن هـؤلاء المقاتلـين يجـدون الفرصـة لِلفَـرْزِ؛ فـلا يسـتطيعون التفرقـة بـين الجريح، والمغمـى عليه، والمتـوفى، وفي الفـترة الأخـيرة كانـت أكـثر وسـائل النقـل فاعِليَّـةً بالنسـبة لهـــم (أكـبر عـدد، وأسـهل وسـيلة؛ حيـث لا يتـمُّ قَصفُهـا) هـي سـيارات القمامـة ذات القَـلَّاب! كان الوصـول للمستشـفى قـد أصبـح مغامـرة كـبرى، غـير مأمونـة العواقـب، وقـد جرَّبـوا كافَّـة أشـكال وأنـواع المركبـات قبـل ذلـك: سـيارات عاديـة، سـيارات الإسـعاف، آليـات عسـكرية... كلهـا كانـت تتعـرض للقصـف، وتُهاجَـم بـضراوَةٍ؛ مـمَّا يـؤدِّي إلى مقتـل الجرحـى، ومعهـم الأشـخاص الذيـن ينقلونهـم، في الغالـب!

اسـتقرَّ الـرأي أخـيرًا عـلى اسـتخدام سـيارات القمامـة تلـك للوصـول إلى المستشـفى: جرحـى أو حتـى أصحَّـاء، يقفـزون داخـل هـذه القلابـات؛ مُتصوِّرين أنهم في المستشـفى سـيجدون الراحـة والرعايـة، أو الأمـان، لم يكونـوا يتصـوَّرون الجحيـم الـذي نعيـش فيـه!

كانت هذه السيارات عندما تتوقَّف أمام باب المستشفى تقف في الشارع، الذي هو أعلى من باب الدخول للقسم الجراحي؛ فكانت السيَّارات تقف ومُؤخِّرَتُها مُواجِهةً للبوَّابة التي هي أقل ارتفاعًا بحوالي سِتِّ درجاتِ سُلَّم، ولمَّا كانت هذه القلَّابات نفسها معرَّضة لمخاطر القصف العشوائي؛ فكانت دائمًا في عَجَلَةٍ من أمرها؛ لهذا السبب، ولكي تسرع لِنَقلِ دفعة أخرى من الجرحى؛ لذلك كان السائق يفتح باب القلَّاب ويُلقي بالجميع: جَرحى أو قتلى، مرضى أو أصحَّاء مرافقين للجرحى! بعدها، كان علينا أن نفرِزَ هذا الكَمَّ الهائل من الأجساد البشرية!

اليوم السابع- الأربعاء- 1970/9/23

عندما نمعن التفكير فيما جرى أثناء -وقبل- تلك الأحداث المشؤومة، ونحلِّل مواقف الأطراف المختلفة؛ ستتكشَّف لنا عدَّة أمور مهمَّة، منها أن العاهل الأردني الراحل الملك حسين -اختلفنا أو اتفقنا على طبيعة شخصيته، ومواقفه من القضايا العربية عمومًا، والقضية الفلسطينية على وجه التحديد- كان يتمتع بذكاء حاد، وحنكة سياسية كبيرة؛ لقد ترك الرجل الحبل على الغارب للحركات الفلسطينية في الأراضي الأردنية، فكانوا يتحركون على حريتهم، ووصل النزق ببعض الحركات اليسارية منها -كما سبق وأن أشرت- إلى أنهم كانوا يتطلَّعون لعزل الملك نفسه، وتمكين اليسار من الحكم؛ لكي ينجح في تحرير فلسطين! كانت قوة بعض الحركات قد استفحلت، لدرجة أنها كانت قوة مناوئة للقوات الرسمية الأردنية: جيشًا وشرطة، كانوا يقيمون حواجز التفتيش العسكرية داخل عمَّان نفسها، وكأنهم أصحاب سلطة مطلقة بالبلاد، وبعاصمتها! كان رأي النلك حسين هو أن يُتركوا ليفعلوا ما يشاؤون -تحت عينيه، وبمراقبته اللصيقة- عالِمًا أن نزق هذه الفصائل، وفوضويتها سيؤدِّي بها إلى التَّهلُكة، وحدها، دون تدخُّل، وقد كانت بعض أخطائهم كارثية بالفعل؛ فبالعودة إلى مسألة قبول مصر باتفاقية "روجرز" الأمريكية لوقف إطلاق النار بين الجانبين: المصري والإسرائيلي، كان ردُّ فعل بعض تلك الفصائل عنيفًا، للدرجة التي أطلقوا فيها حمارًا في شوارع عمَّان، علَّقوا برقبته صورة الزعيم جمال عبد الناصر -كما ذكرت آنِفًا-، وأتصوَّر أن الملك حسين

لم ينزعج من هذا الفعل، بل على العكس؛ لقد استغلَّ الرجلُ الموقِفَ استغلالًا كبيرًا؛ إذ اشتكى -وهو يعتذر لعبد الناصر بشكل دبلوماسي- من عدم قدرته على السيطرة بشكل مطلق على حركة هؤلاء في شوارع بلاده، متسائلًا إن كان أحدٌ من رؤساء أو ملوك الدول يقبل بمثل هذا الموقف في بلاده، وكان ردُّ عبد الناصر أنه لا يقبل بالتأكيد مثل هذه الأمور، حتى وإن كان مناصِرًا للحركات الفدائية على طول الخطِّ...

كان هذا مدخلًا مُهمًّا لتوضيح موقفنا في مجمع الأشرفية للمستشفيات، بعد مرور كل هذه الأيام على وجودنا في قلب هذا الجحيم؛ كان البعض قد بدأ يتساءل عن موقف عبد الناصر ممَّا يحدث في المنطقة، لقد مرَّت أيام وليالٍ دون أن نسمع أنه أعلن عن موقفه؛ لم نألف مثل هذا الموقف من شخصية مثله!

كانت أنظار الجميع (حتى مَن يكرهون عبد الناصر) تتَّجِه إلى القاهرة طوال الأيام السابقة... بل كان البعض يتصوَّر أن خطابًا واحِدًا من عبد الناصر كان يُمكنه أن ينهي الحرب الدائرة هنا. غير أنه في نهاية هذه الأيام السِّتَّة، التي لم نَرَ أو نسمع أيَّ خبر من أيَّة عاصمة عربية، سوى بعض مُناشدات عربية مُعتادَة لجميع الأطراف بضبط النفس (مع زيارة -غير فعَّالة- لبعض القادة العرب، على رأسهم جعفر النُّميري رئيس السودان وقتها، لم تأتِ بأي نتيجة تُذكر)، أقول: كان بيان عبد الناصر الذي دعا فيه إلى مؤتمر قمَّة عربي يُعقد بالقاهرة قد صدر قبل يومين فقط!

بدأ الأمل في تَوقُّف الجحيم الدائر في عَمَّان يتصاعد. كانت الحكومة الأردنية قد أعلَنَت عن جائزة قَدرُها 25 ألف دينار أردني لمن يأتي بياسر عرفات حيًّا أو مَيِّتًا، وما بين ألف إلى خمسة آلاف لآخرين، كان من ضمنهم د. موسى الحسيني، الذي كان يعمل معنا في الأشرفيَّة! كانت تلك المبالغ ضخمةً في هذه الأوقات، والغريب أن الدعوة للقِمَّة كانت تضمُّ من بين المدعوِّين: القادة العرب، والملك حسين، وياسر عرفات!

دارت حوارات كثيرة بين جميع المتواجدين في المستشفى؛ مَن يفهم جيدًا في السياسة، ومن لا يفقه شيئًا في دهاليزها... الكل يدلي برأيه، ويحدونا جميعًا الأمل!

كانـت الأوضـاع السياسـية -قبـل العسـكرية- متوتِّـرَة أيضًـا، وقـد تحـرَّك الجيـش السـوري إلى الحـدود الشـمالية لـلأردن، وفي المقابل تحـرَّك الجيش الإسرائيـلي إلى الحدود الغربيـة لـلأردن؛ للإعـلان عـن جاهزيتـه لمواجهـة مُحتَمَلة مـع الجيش السـوري. الجيش العراقـي كذلـك تحـرَّك إلى غـرب الأردن، قـرب منطقـة الزَّرقـا. والأسـطول الأمريـكي السـادس وُضِـع في حالـة اسـتعداد قصـوى، حتـى إن شـائعةً سَرَت في ذلـك التوقيـت، أفـادت بـأن الرئيـس الأمريـكي انتقـل بمقـرِّ قيادتـه إلى مكتـبٍ مُخصَّـصٍ لـه عـلى مـتن الأسـطول، الـذي كان يتمركـز في البحـر الأبيـض المتوسـط، قبالـة سـوريا... أمَّـا في داخـل الأردن نفسـها فمـن الواضـح أن الملـك حسـين كان ينـوي تطهـيرَ الأردن ممَّـن سـمَّاهم "المُخرِّبـين"، وكان الفدائيُّـون قـد اختـاروا عـمَّان لتكـون سـاحة معركتهـم الرئيسـيَّة؛ وبالتـالي كان الاتجـاه الرسـمي الأردني يعـرف أنـه إن تمكَّنـت القـوات الأردنيـة مـن إخـراج هـؤلاء "المخربـين" مـن عـمَّان؛ فإنهـم بذلـك سـيكونون قـد ربحـوا أكـثر مـن ثلاثـة أربـاع المعركـة. وقـد أدرَكَـت المُقاوَمَـةُ هـذا المُخطَّـط مُبكِّـرًا؛ فركَّـزَت معظـمَ قُوَّاتهـا في عـمَّان، وهـذا أدَّى إلى صعوبـة الموقـف أمـام الجيـش، الـذي اسـتطاع -بالكاد- إحـكامَ سـيطرته عـلى الأماكـن التـي كان مُتواجِـدًا بهـا أصـلًا، حتـى مستشـفى الأشرفيَّـة -عندمـا حـاول اقتحامهـا- تَـمَّ أسر المهاجمـين. بخـلاف ذلـك فـإن الضغـوط الأدبيـة التـي كانـت ملقـاة عـلى عاتـق الجيـش الأردني كبـيرةً للغايـة، بعـد أن اضطـرَّ لقصـف تجمُّعـاتٍ لفدائيِّـين داخـل المناطـق الفقـيرة في المدينـة، وكانـت النتيجـة تَهـدُّم منـازل كثـيرة للفلسـطينيين، وهـم غالبيـة سـكان الأردن في المناطـق الفقـيرة، وإصابـة ومـصرع عـدد كبـير مـن المدنيـين العـزَّل.

***

زاد اللغـط بـين الأردنيـين والفلسـطينيين مـن العاملين الذيـن تبقوا معنا المستشـفى، حـول انتماءاتنـا كفريـق طبِّـيٍّ، كان كل فريـق يحـاول -عـلى مـا يبـدو- أن يثبـت للفريـق الآخـر أن هـؤلاء الأطبـاء الذيـن قدمـوا المسـاعدة، وبذلـوا أرواحهـم في سـبيل إنقـاذ مَـن يتمكَّنـون مـن إنقـاذه "إنمـا يفعلـون ذلـك لأنهـم ينـاصرون قضيتنـا"! كنـتُ أتجنَّـب الخـوض في مثـل هـذه الحـوارات؛ فهـي لا تصـل إلى نتيجـة، وكنـت أعدُّهـا مضيعـةً للوقـت. ثـم زادت حـدَّة مُشـادَّة كلاميـة نشـبت بـين مجموعـة منهـم أمـام

غرفة العمليات؛ فخرج د. توفيق من غرفة العمليات، وصرخ في أطراف الجدل الدائر قائلًا: "ليس هذا مكانَ جدالٍ، ولكن إذا كنتم تصرُّون على معرفة الموقف الرسمي لنا كمجموعة عمل، فنحن نعمل تحت مظلَّة اتحاد الأطباء العرب؛ من أجل الفلسطينيين والفدائيين، لكنَّنا في النهاية نُقدِّم الخدمة للجميع، ومَن لا يعجبه هذا الموقف ويريد الانسحاب فلينسحب الآن"... وكان تعليق رؤوف على هذا الموقف بأنه "شجاع"، و"أكثر من كافٍ من شخصيَّةٍ مُحافِظة كتوفيق"، الذي كان -رغم أنه أكبر الأطباء المتواجدين سِنًّا وعِلمًا يتجنَّب الحديث في السياسة، أو المشاركة في أيِّ عمل يَشتَمُّ منه رائحة السياسة، وكان هو الجَرَّاح الأول -والوحيد من الاستشاريين- المتواجد في المستشفى وسط الأخطار.

كُنَّا منذ اليوم الخامس نعاني نقصًا شديدًا في المياه والأغذية، وها هو اليوم السابع على وشك الانتهاء، والأوضاع تذهب إلى الأسوأ. قام محجوب -الذي كان قد أصبح (دون اتفاقٍ) المُنسِّقَ الرئيسي- للعمل، حتى د. توفيق -الذي لم يرتبط بمحجوب من قبل- وافق ضِمنيًّا على أن محجوب هو الرئيس، بدون طلب منه- بوضع تغيير طفيف في الأولويَّات؛ نظرًا لتدهور الحالة الصحية لبعض العاملين، خاصَّةً في المواقع الحَسَّاسة.

تقرَّر أن تكون الأولوية في الأغذية والشراب للأطفال، ثم المصابين بالكسور، ثم العاملين في قسم العمليات، وإن لم كانوا يرفضون أن يتمتعوا بميزاتٍ خاصَّة. وبحسب هذا النظام ظلَّ بعض المُتطوِّعين والمتطوِّعات بلا شراب أو طعام يومًا وبعض يوم، وعندما اشتدَّ العطش أخذ بعض المصابين يسبُّ ويشتم بصوت عالٍ؛ وهو غير مقتنع بأن المتطوِّعة أو الممرِّضة التي تشرف عليه لا تتحصَّل على ماء مثله.

***

لم تختلف أحداث اليوم عن اليوم السابق في شيء (بخلاف أن عدد الجرحى الجدد الوافدين على المستشفى قد قَلَّ) إلَّا بوصول حميدو، كان حميدو من مُقاتلي الجنوب، كان يأتي إلى المستشفى -بين حين وآخر- يُحضر لنا بعض المؤونة من أدوية أو أغذية أو مياه، وهو مُقاتِلٌ شَرِس، ضَحوكٌ، يميل إلى السِّمنة، وعلاقته بالجميع طِّيبةٌ جدًّا، كما كان في غاية الشجاعة، اعتاد على اقتحام وادي عربة في عمليات عسكريَّة نوعيَّة، قتل فيها من الإسرائيليين أعدادًا كبيرة، وهي العمليات

التـي كان يَتحـدَّث عنهـا كثـيراً، بفخـر، ذاكـرًا كافَّـة الأماكـن التـي شـارك في مُهاجَمتهـا بدقَّـة؛ فقـد كان يمتلـك ذاكـرة حديديـة. لم يكـن مُتعلِّمًا، لكنـه كان يحـضر الأوراق، ويقـول: "ممكـن يحتاجهـا الشـباب"! وكان سَـمْعُه ثقيـلًا مـن كـثرة تعرُّضـه لـدويِّ القذائـف. كان يعـارض قِتـالَ الجيـش الأردني؛ فطلـب أن يشـارك في عمليـات الإغاثـة، ومسـاعدة المحجوزيـن بالمستشـفى، وفي الجامـع القريـب. لم يَسـتطِع أحـدٌ أن يتهمـه بالجُـبن. وكان بنيانـه قويًّـا يسـاعده عـلى حمـل الأشـياء الثقيلـة.

كانـت علاقتـي بحميـدو مُميَّـزة، عندمـا كُنَّـا في الجنـوب، كان يشـكو دائمًـا مـن تسـلُّخ فخذيـه وإصابتـه بالتينيـا، وكان يلجـأ إليَّ، فأسـأله: "متـى كان آخـر حـمَّام لـك؟"، فيضحـك ضحكتـه الطفوليـة، ويقـول: "لا أذكـر، لكـن أكيـد مـن أكـثر مـن خمسـة عـشر يومًـا يـا حكيـم"! كنـت أعطيـه بعـض الدِّهانـات التـي يمكـن أن تسـاعده، وكنـت -باسـتمرار- أتأكَّـد مـن أنـه يسـتعملها. وقـد أتى -مـرَّةً- يشـكو لي مـن ألم بقدميـه، وأنـه يشـعر بنـارٍ بـين أصابعهـا. طلبـتُ منـه أن يخلـع الحـذاء "البـوت"، فضحـك، وقـال: "مـا أقـدر أخلـع البـوت يـا حكيـم".

- ليه يا حميدو؟
- حيُغْمَـى عليـك يـا حكيـم مـن ريحـة رجـلي. آخـر مـرَّة قلعـت البـوت كان الـشراب لازِق في الجلـد...

هكذا كان حميدو...

فوجئـت بدخولـه إلى المستشـفى مصابًـا، محمـولًا عـلى نقَّالـة؛ يحمله بعض الشـباب الذيـن يحبُّونـه، كان مصابًـا برصاصـة في العمـود الفقـري، وأدركـت -عـلى الفـور- بعـد الكشـف السريـع أن النخـاع الشـوكي قـد انقطـع، وأنـه أُصيـبَ بِشَـلَلٍ نصفـيٍّ. قـال: "عـلى فكـرة... مـا في وجـع في فخـادي يـا حكيـم، ولا في رجـلي... بـس ضهـري بيوجعنـي. كنـت شـايل شـوال طحـين للنـاس الغلابـة الـلي في الجامـع عشـان يعملـوا خبـز، وأجيـب لكـم شـوية في المستشـفى. والله مـا عملـت شر يـا حكيـم! والله باعمـل خـير... ليـش ربِّنـا أصابنـي؟!".

افتعلتُ ابتسامةً خفيفة، وقلت له: "إن شالله خير يا حميدو"...

قال: "على فكرة يا حكيم.. أنا كل مرَّة كنت باشتكي لك من تَسلُّخات فخادي.. ما انا حاسِس بالألم ها الحين"!

لم يكن لحميدو أن يشعر بقَدَمَيْه، أو بفخذيه، أو ساقيه بعد الآن؛ فقد أُصيب بشلل في نصفه السُّفلي. وذهبت بعيدًا... لأبكي: لماذا نفقد حميدو؟ لماذا نفقد هجماته الجريئة الشجاعة -في الغَوْر- وهو يهاجم العدو الإسرائيلي بشراسة.

بكيت على حميدو، وبكى الحكيم، وبكى الجميع.

كم من حميدو فقدنا في هذه الحرب المجنونة؟ ولمصلحة من؟

***

ورغم تطمينات الشباب لنا حول الموقف العسكري إلَّا أنَّه كان يُساوِرُنا شعورٌ بقرب اجتياح المستشفى، وكانت معظم محطَّات الراديو -الذي ازدادت قيمته- تذيع أخبار مؤتمر القمة الذي كان قد بدأ، من بينها: محطَّة القاهرة، وصوت العرب، وكانت محطَّة "صوت العاصفة" وأغانيها الوطنية ترفع من معنويات الجرحى، وفَجأةً اختفت "صوت العاصفة"، وتخيَّلنا أنَّ مَقرَّها قد قُصِفَ وقد أدَّى هذا إلى انخفاض معنويات المقاتلين والتفكير في الهزيمة الآتية، لكن المحطَّة عادت للعمل مجدَّدًا بعد قليل، جاء الصوت في البداية ضعيفًا، ثم تحسَّن في المساء.

كنَّا قد لاحظنا من قبل أن القصف كان يأتي من كُلِّ الجهات، ما عدا الشرق؛ حيث توجد منطقة صحراوية وجبلية مُقفِرة، يصعب فيها الرَّعي، كما يصعب مرور السيارات خلالها، لكننا لاحظنا في الأيَّام الأخيرة أن بعض القذائف بدأت تُطلق من الشَّرق، أوضح ذلك أن قوَّاتٍ أردنية ربَّما تكون قد وصلت إلى هذه المنطقة، وأنه ربَّما يُقتَحم المستشفى من هذه الناحية... لم نتوقف كثيرًا أمام هذه الأفكار؛ فقد كان الأمل يكبر داخلنا مع تواصُل الأخبار القادمة من القاهرة حول القمة العربية التي دعا إليها عبد الناصر، في أن تنجح في وقف القتال المجنون في شوارع عمَّان، وحول المستشفى... كان هناك سؤالٌ مُلِحٌّ يدور بأذهاننا جميعًا، ويُسبِّب لنا دهشةً كبيرة: كيف خرج "أبو عمَّار" من الأردن، وهو المطلوب حيًّا أو مَيِّتًا؟! وأين كان يتواجد أثناء الأزمة؟ اختلفت الأقاويل في هذا الأمر، فسمعنا من القريبين من دوائر صُنعِ القرار أن الرجل كان يقيم في منزل "أبو عاصم" في

اللويبدة، وقيل إنه كان يقضي الوقتَ مع "عاصم"، ويلعب معه ببنادق خشبية من لعب الأطفال... وقال آخرون إنه كان مختبئًا بمبنى السفارة المصرية. في الحقيقة كان هذا هو آمَنُ الأماكن لعرفات: منزل دبلوماسي، له حصانة، وهو مدير المخابرات بالسفارة المصرية؛ لذلك عندما دعاه عبد الناصر كان يعرف أنه سوف يحضر. ولكن كيف خرج من الأردن؟ ولماذا استجابت الأردن مبكِّرًا للمشاركة في القمة ولم تستنكر مشاركة عرفات؟ الأسئلة كثيرة...

بداية، لا أشُكُّ في أن الملك حسين كان يريد "أبو عمَّار" حيًّا؛ حيث إنه القائد الفلسطيني الوحيد الذي يمتلك سلطة تمكِّنه من توجيه الأوامر للفدائيين لوقف إطلاق النار، وأغلب الظن أنه سمح بأن يخرج عرفات سليمًا من الأردن، وتَسَلسُلُ الأحداث نفسه يؤكد ذلك؛ فقد كان الملك يشجِّع على الإسراع بعقد القمة؛ تَجَنُّبًا لمزيد من الدماء والتخريب، الذي كان يعرف أنه سوف يدفع ثمنه من شعبيَّته -التي كانت كبيرةً- وتدهورت أثناء الأزمة.

وقد تعدَّدَت الروايات الصادرة عن دوائر صنع القرار، فقيل إن النميري (مبعوث القمة إلى الأردن) قد اصطحبه معه أثناء عودته، وذكر لي حسن صبري الخولي (الممثل الشخصي لرئيس الجمهورية) -وقد حضر أيضًا إلى عمَّان في نفس الوقت- أنَّه هو الذي هَرَّبه معه، بإلباسه ملابس أخرى كانت لِصَفِّ ضابِطٍ يُشبِهُه من المرافقين له، وأنه ترك الرجل الأصلي في السفارة المصرية! (كان الرجل يُعالَجُ في لندن أثناء عملي كملحَقٍ طبِّيٍّ هناك، وكانت لنا جلسات طويلة)، ولم تكن رواية الخولي منطقية؛ فعمَّان في هذه الفترة كانت تَعمُّها الفوضى، ولم يكن ضُبَّاط الجوازات يبحثون في الصورة، والشَّبَه، وما إلى ذلك، خاصَّةً عندما يكون المسافر مُرافِقًا لشخصيَّةٍ كبيرة... على أية حال، شخصيًّا لم أستطع استساغة أيٍّ من هذه الروايات، وأتصوَّر أنَّ الرجل قد تمَّ تهريبه إلى سوريا -وهذه عملية سهلة لـ "أبو عاصم"- ومن هناك سافر وعاد بنفس الطريقة.

وبدأ اليوم، وانتهى، بعد أن مررنا بما اعتدنا عليه خلال الأيام السابقة من قصف عنيف، ودماء تنتشر حولنا في كل مكان، وجوع، ويأس مشوب بأمل يطل برأسه على وقع القرارت التي كنا ننتظرها من القمة العربية، لكنَّ آمالنا يبدو أنها ذهبت أدراجَ الرياح...

اليوم الثامن- الخميس- 1970/9/24

من الطبيعي أن يدعو عبد الناصر الزُّعماءَ العرب إلى القِمَّة في ظل هذه الأحداث القياسية، لكنَّنا تعوَّدنا على المُماطَلات السياسية من ساستنا، خصوصًا وقت الأزمات، وفي العادة كانت الأطراف المتصارعة في مثل هذه الأزمات تماطِلُ في قبول الدعوة للحوار؛ على أمل الوصول إلى مواقع تفاوضية أفضل، غير أن طرفي أزمتنا -وهما هنا: الملك حسين وياسر عرفات- لم يفعلا هذا، وأتصوَّر أن كِلا الطَّرَفَيْن كان يتلهَّف لانعقاد القمة، ووقف القتال:

- ياسر عرفات؛ لأنه يعرف أنه لن يكسب هذه المعركة، وأنه خسر الكثير من السلاح والعتاد، وكذلك فقد أفرادًا من أكفأ قوَّاته، وأنه يُريد أن يظهر أمامَ العالم بمظهر المُعتَدَى عليه، وأن السُّلطات الأردنية تريد طردهم من بلدهم: الأردن!

- الملك حسين؛ أثبت وجهة نظره، وهو متأكِّدٌ من أنه سيكسب المعركة، لكنَّ ثَمَنَها غالٍ جدًّا؛ فقد تدهورت شعبيَّته إلى حَدٍّ كبير، وسوف تتدهور أكثر.

كان الجميع يتناقشون بالمستشفى -في اليوم الثامن- حول مؤتمر القمة العربي بالقاهرة، مُتعلِّقين بالأمل في وقف إطلاق النار، ولكنَّ العسكريين منهم كان لهم رأيٌ آخر... كانوا يعلمون أن القرارات السياسية -إلى أن تصدر بالنصِّ على وقف إطلاق النار- سوف تزيد من وتيرة القتال؛ لأنها -في الغالب- ستقرُّ مبدأ أن يبقى كُلٌّ في موقعه، وقد كانت القيادات العسكرية من الجانبين تريد الحصول على مواقع أكثر؛ حتى تكون في صالحها وقتَ إيقاف القتال. ويبدو أن السيطرة على المستشفى الحكومي -الذي تَصادَف وجوده في منطقة الأشرفية، حيث معقل القيادة الفلسطينية- كانت مطلبًا مُلِحًّا للجيش الأردني؛ فكان الإصرار على السيطرة على هذا المشفى، بالرغم من عدم أهمِّيَّته العسكرية، خاصة بعد الهجوم الفاشل منذ أيَّامٍ، وأَسْر جنود المركبات العسكرية... كان هذا هو موقف القيادة العسكرية، أمَّا الجنود النظاميُّون فكان لهم موقفٌ أكثر تَشدُّدًا (خاصَّة البدو)؛ فكثيرون منهم مات لهم أقارب وزُملاء، وحسب تقاليدهم المتعارَف عليها فإن ذلك يوجب عليهم الأخذ بالثأر للقتيل حتى يستريح! كانت ملابس الجنود هي بدلة عسكرية عادية، يزيد عليها غطاءٌ أحمر للرأس "الشماخ"، ويُثبِّته "العقال"

مـن فوقـه، والبَـدَويُّ الـذي لـه ثـأر كان يلبـس الشـماخ عـلى رأسـه مقلوبًـا، عندهـا يُقـالُ عنـه "قالِـب الحَطَّـه"، ويتميَّـز في تصرُّفاتـه بالعنـف، كالنمـر المفـترس، حتـى يأخـذ بالثـأر، وذلـك بقتـل أحـد الفدائيـن بنفسـه!

ورغـم هـذه الهواجـس الي انتابـت العسـكريين من الجرحـى الموجودين بالمستشـفى، إلا أننـا لاحظنـا توقُّـفَ حركـة القصـف بالمدافـع الثقيلـة في محيـط المستشـفى، وزيـادة قصـف الأسـلحة الخفيفـة والمتوسـطة، كالرشَّاشـات، رغـم الأخبـار الـواردة إلينـا مـن الخـارج، التـي أكَّـدت أن هـذا الأمـر لم يكـن موجـودًا ببقيـة أنحـاء العاصمـة ذلـك اليـوم، وكان معنـى ذلـك اسـتمرارَ حصـار المستشـفى، بـل وزيادتـه، والحرمـان مـن الطعـام والـشراب والـدواء وأيَّـة مسـتلزمات طبيـة.

وبزيـادة الحصـار قَـلَّ عـدد الشـباب الذيـن كانـوا يحـضرون يوميًّـا للمسـاعدة في توفـير بعـض احتياجاتنـا، خاصَّـةً بسـكويت الأطفـال، ولكـنَّ العـدد القليـل مـن الشـباب الـذي حـضر طمأننـا عـلى الأوضـاع العسـكرية؛ فالجيـش لم يسـتطع التَّقـدُّم إلى شـارع المستشــفى، رغـم التركيـز في القصــف بالرشاشــات العاديــة. وتقلَّــص عــدد المــرضى والجرحـى الذيـن يحـضرون للمستشـفى بمسـاعدة الشـباب أكـثر؛ حيـث لم يعـد ممكنًـا تأمـين أيَّـة مَركبـة في منطقـة المستشـفى.

بعـض المرافقـين، والأشـخاص الذيـن جـاؤوا للمستشـفى متصوِّريـن أنهـا أكـثر أمانًـا، وبعـد أن عايَشـوا معانـاة الجميـع بداخلهـا أخـذوا في التـسرُّب مـن بيننـا، توجَّهـوا إلى أماكـن قـد تكـون أكـثر أمنًـا؛ خاصَّـةً بعـد سـماعهم لبعـض الأقاويـل عـن قُـرب اقتحـام المستشـفى مـن قِبَـل الجيـش.

وتوقُّـف النشـاط الجراحـي في غرفـة العمليـات، التـي تَهدَّمَـت عـلى مراحـل، مـع انعـدام الكهربـاء والميـاه والتعقيـم، واقتـصر العمـل عـلى العمليـات الصغـيرة الضرورية، دون تعقيـمٍ، وبمخـدِّرٍ موضعـيٍّ -إذا توفَّـر-، أو بـدون...

***

كانـت زيـاراتي للـدور العلـوي بمبنـى المستشـفى قـد صـارت مُتكـرِّرة، كنـت أسـتغلُّ المـكان لأخـذ سـاعة أو أكـثر مـن النـوم، وقـد اكتشـفت أننـي لسـت وحـدي الـذي يفعـل ذلـك، فحتـى بعـض الممرِّضـات -الأكـثر شـجاعة- كـنَّ يفعلـن نفـس الـشيء...

وحكايـة قِلَّـة النـوم، مـع عـدم الأكل، والمجهـود الكبـير -لمـن جَرَّبهـا- مؤلِمَـةٌ جـدًّا، وعندمـا تمـرُّ بمثـل هـذا تتمنَّـى النـوم بـأيِّ شـكلٍ، وتحـت أيِّ ظـروفٍ.

لكـن لم يكـن صعـودي للـدَّور العلـوي لهـذا السـبب فقـط، فقـد كانـوا يسـتدعونني أحيانًـا لمتابعـة حالـة مريـض ممَّـن بقـوا بالأعـلى، في هـذه الليلة أتـت إحـدى الممرِّضات لتقـول لي: "الطابـق الأعـلى بـه مصابـون لم يمـرَّ بهـم أي طبيـب منـذ يومـين! صعـدت معهـا إلى هنـاك، وقبـل أن أصـل تناهـى إليَّ صـوت "جهـاد"؛ شـاب فلسـطيني مـن المقاتلـين، كنـت قـد التقيتـه ذي إحـدى المهـمَّات التـي شـاركت بهـا قبـل الأحـداث، وكان شـابًّا يافعًـا، ضحـوكًا، وشـجاعًا جـدًّا، عندمـا نظـرت إليـه عـلى ضـوء الكشَّـاف الصغـير الـذي كانـت تحملـه الممرِّضـة، تعرَّفـتُ عليـه بصعوبـة؛ فقـد وجدتُـه مُصابًـا بحـروقٍ مُتعـدِّدة في وجهـه وذراعيـه وسـاقيه، كانـت جروحـه تلـك قـد أُصيـب بهـا قبل عـدَّة أيـام، وقـد أتى ضمـن مجموعـة أخـرى مـن الجرحـى وقتهـا، ولم تكـن جروحـه قاتلـة؛ فقـام الطاقـم الطبـي بوضعـه في هـذا المـكان، ولم يلتفـت إليـه أحـد بعدهـا عـلى مـدار الأيـام الماضيـة؛ لنُـدرَة وجـود أحـد منهـم بالطابـق العلـوي: المـكان مُظلِـم تمامًـا، والكهربـاء تـضيء فقـط الطابـقَ الأرضيَّ، والمـرضى -جميعًـا- في الممـرِّ، بعـد أن تَسـاقَطَ زُجـاجُ كُلِّ الغُـرَف، وقُصِفَـت غرفتـان قصفًـا مبـاشرًا! أدركـتُ أن سـبب صياحـه وبكائـه هـو تقيُّـح الحـروق، كانـت الرَّائحـة النَّتِنـة تمـلأ الممـرَّ، وفراشـه مُتَشـبِّعًا بالبول؛ لم تكـن هنـاك أي وسـيلة للمسـاعدة: لم يَكُـن مُتاحًـا إلَّا اللجـوء للمُهدِّئـات...

اسـتمر القصـف طـوال الليـل، وانقـضى الليـل في تغيـير ملابـس المقاتلـين والمصابـين إلى ملابـس مدنيـة؛ حيـث رأى الحكيـم أن وجـود مُقاتلـين بالـزِّيِّ العسـكري -حتـى لـو كانـوا جرحـى- بالمستشـفى، أو وجـود أسـلحة؛ سـيكون خطـرًا علينـا جميعًـا في حـال اقتحـام المستشـفى. تبقَّـى عـددٌ قليـل فقـط مـن الذيـن يرتـدون زيًّـا عسـكريًّا؛ حيـث كانـوا تحـت تأثـير المخـدِّر بعـد إجـراء عمليـات لهـم.

نقلنـا القادريـن منهـم عـلى الحركـة إلى منـازل قريبـة مـن المستشـفى، خاصَّـةً إلى مُخيَّـم "الوحـدات" القريـب، ونُقِـل الذيـن فارقـوا الحيـاة إلى مكانهـم تحـت الأشـجار، في باحـة المستشـفى، ولم تكـن العمليـة صعبـةً هـذه المـرَّة!

كانـت محطَّـة "صـوت العاصفـة" تذيـع أنبـاء المعـارك، والإذاعـات الحكوميـة تُذيـع أنبـاء اجتـماع القاهـرة، وبيانـات النمـيري الـذي أُرسِـلَ إلى عـمَّان مُمثِّـلًا لمؤتمـر القمـة،

الـذي كان أهـم قراراتـه المتوقَّعـة: وقـفٌ فـوريٌّ لإطـلاق النـار، مـن الجانبـين؛ لكـنَّ ذلـك لم يحـدث، بـل زادت وتـيرة النـيران مـن الجانبـين.

اسـتمر القصـف معظـم سـاعات الليـل، وفي الدقائـق التـي كان يتوقَّـف بهـا كان الشـباب ينتهـزون الفرصـة لإيصـال الجرحـى للمستشـفى، كان معظمهـم بحاجـة إلى جراحـات عاجلـة، وكانـت غرفـة العمليـات بهـا "ترابيزتـين" للعمليـات، يعمـل عـلى أحدهـا توفيـق، وأعمـل أنـا عـلى الأخـرى، وفي بعـض الحـالات كنـت أسـاعده إذا كانـت الحالـة تحتـاج لذلـك، أو يعمـل أحدنـا ويبقـى الآخـر في الخـارج لمتابعـة الحـالات الحرجـة.

في الخامسـة بـدأت موجـة عنيفـة مـن القصـف بالهـاوزر، والدبابـات، والهاونـات، والرشاشـات الثقيلـة، توقَّـف سَـيلُ المصابـين عـن الوصـول، وكـفَّ الجرَّاحـون والممرِّضون عـن العمـل، الأرض تهتـزُّ تحتهـم، والجـدران ترتـجُّ مـن حولهـم.

صمت البعض؛ إذ ألجمه الخوف، وتَصايَحَ البعضُ من وطأة الإحساس بالخوف.

أخـذ بعـض الأطبـاء ينتقـل -بسرعـة- بـين المـرضى ليطمئنوهـم، وانهـارت أعصـاب بعـض الممرِّضـات، فبـدأن يبكـين!

اليوم التاسع- الجمعة- 1970/9/25

كنـت متأكِّـدًا -عندمـا أفكـر بعقـلي- مـن أن الجيـش سـوف يُنهـي المعركـة لصالحـه، لكـن بـأي ثمـن؟ إن ثمـن هـذه التصفيـة كبـير جـدًّا، ويتحمَّلـه الشـعب كافـة؛ دون تمييـز بـين غنـي وفقـير، أو أردني وفلسـطيني. وكان ذلـك يبـدو واضحًـا لي منـذ اللحظـة الأولى؛ حيـث كان الجرحـى مـن الأردنيـين والفلسـطينيين، ومـن المسـلمين والمسـيحيين. وحتـى الشَّركـس والأرمـن -وهـم جاليـة كبـيرة في عـمَّان وليـس لهـم علاقـة بالسياسـة ولا بالعسـكرية- كان مـن بينهـم ضحايـا. كانـوا يأتـون إلينـا، وهـم يقولـون: "مالنـاش دعـوة بحاجـة، ليـه تِنْهَـدّ علينـا؟ ذنبنـا إيـه؟"!

عندمـا كنـت أطلـق العنـان لعواطفـي أَجِـد نفسـي مسرورًا عندمـا يعلـن الفدائيـون عـن أَسْرِ أربـع دبابـات هنـا، وخَمـسٍ هنـاك، وكان حـماس الشـباب الفدائيـين كبـيراً. كنـت أشـعر أن موقعنـا في النضـال يُحتِّـم علينـا أن نقـف إلى جـوار الفدائيـين، وحتـى

الدكتـور توفيـق -الرجـل الإداري الـذي يحـرص في عملـه عـلى الروتـين- الـذي وجـد نفسـه -مـع اشـتداد النقاشـات حـول الثُّـوَّار والنظـام- ينفعـل ويعلـن بوضـوح أننـا هنـا لمسـاعدة الفدائيـين والفلسـطينيين، ولكننـا نُقـدِّم الخدمـة الطبيـة للجميـع بـدون تفرقـة.

أصبحنـا نعيـش داخـل المستشـفى في فـوضى عارمـة: كان المـرضى الذيـن يلتمسـون العـلاج في المستشـفى مـن جميـع الجنسـيات، كان مـن بينهـم عدنـان، الطالـب بكليـة الطـب، الـذي كان يسـتعدُّ للسـفر. إصابتـه: كـسرٌ في عظمـة الفخـذ اليـسرى، وبسرعـة، يُعطـى مصـلًا مُضـادًّا للتيتانـوس، ومحلـول جلوكـوز... لا وقـت لأكـثر مـن ذلـك! جـاءت أُمُّـه معـه؛ فلتعتنـي بـه. ويصيـح الحكيـم: "لا تخرجـوا الأُمَّهـات والأَخَـوات، ودعوهـنَّ يَعتنـين بالجرحـى"... الحـالات تتـوالى، فشـل النظـام الـذي كان قـد طُبِّـق لمـدَّة سـاعة واحـدة فقـط؛ أن يـأتي المصـاب، فيسـجِّل اسـمه، ويخلـع ملابسـه كلهـا، ويُفحـص، ويُسـعف بشـكل أَوَّلِيٍّ، ثـم يُصنَّـف حتـى يمكـن معرفـة دوره في طابـور العمليـات الجراحيـة... انهـار النظـام، ولم يَعُـد مُمكِنًـا إلَّا أن يُكتـب الاسـم عـلى مشـمَّع لاصـق، ويُلصَـق فـوق الجبهـة... حتـى ذلـك لم يَعُـدْ مُمكِنًـا في كثـير مـن الحـالات.

أمسـك أبٌ بـرداء أحـد الأطبـاء صارخًـا: "افعـل لـه شـيئًا... إنـه يمـوت! وتحمَّـل الطبيـب نظـرات الاتهـام، ومـضى...

صَلَّـت "أمُّ ميخائيـل"، وهـي أرمينيـة في نحـو الخامسـة والأربعـين، مُصابَـة في الثـدي الأيـسر، وتعـاني مـن نزيـف؛ تُعالَـج فـورًا بغُـرَزٍ للجـرح، مـع المصـل والبيتاديـن كالمعتـاد...

- ابني.. أين ابني يا حكيم؟
- حاضر.. اطَّمِّني، فين هوَّ؟
- مش عارفة... مات!

وتصيح وتولول...

وصـل ميخائيـل مَحمـولًا عـلى نقَّالـة، ومعـه أبـوه؛ شـابٌّ في نحـو الخامسـة والعشريـن، طويـل وعريـض، ممتلـئ قُـوَّةً.

- أين ابني؟

- ما في شيء يا أُمّي.. ما في شيء...

لم يكـن ابنهـا هـو الـذي يـردُّ؛ بـل كان الطبيـب... أبعدوهـا بعيـدًا، إصابـات ميخائيل خطـيرة: طَلَـقٌ نـاريٌّ نافِـذٌ في الصَّـدر، وآخَـرُ في الجمجمـة، ونزيـفٌ داخـليٌّ بالمـخ، لكنـه مـا زال حيًّـا.

وصل محلول الجلوكوز كالمعتاد.

- أعطيه دَمّ يا حكيم؟

صَمَتَ الطبيب...

- يا حكيم .. نعطيه دم؟!

- لا!

الإجابة صَدَمَت المُمرِّضات. انتحى الحكيم بهنَّ جانبًا، وقال:

- لا فائدة.. خسارة الدم، نوفِّره لآخر!

الحالات تتوالى... عاد الطبيب ليُطِلّ على ميخائيل. لم يَمُت بَعدُ، ولكنه سيموت.

أمسك الأبُ برداء الطبيب صارخًا: "افعل له شيئًا.. إنه يموت"!

وتحمَّل الطبيب نظرات الاتهام، ومضى...

كانـت الأم تمـشي في الممـر بجـوار مُصابَـةٍ أخـرى، تهـذي عـن الـذي حـدث: "القذيفة حطَّمـت الجـدار عليهـم جميعًـا... ابنـي ليـس فدائيًّـا، ولا أحـد في الأسرة كلهـا، كنّـا نظـنُّ أن المسـألة بـين الفدائيـين والجيـش، أو بـين الأردنيـين والفلسـطينيين... شـارعنا كلـه أرض، لكنـه قُصِـفَ.. حتـى الكنيسـة قُصِفَـت"!

سألَت عن ابنها مرَّةً أخرى، ثم كفَّت عن السؤال.

مـات ميخائيـل بعـد دقائـق، ونُقـل إلى القاعـة الكبـيرة. لم تَبـكِ أُمُّـه، وبحـث أبـوه عـن طعـامٍ للإفطـار!

***

منـذ الخامسـة والمتطوِّعـات يحاولـن توزيـع إفطـار بسـيط: شـاي وخبـز وجبنـة صفـراء. كُـنَّ يُقـدِّرن عـدد الحاضريـن بثلاثمائـة، فـإذا بهـم أكثر مـن خمسـمائة مريض... بخـلاف الأقـارب والمرافقـين! مـاذا يفعلـن؟! التوزيـع نفسـه مشـكلة... واسـتمرَّت عملية توزيـع الإفطـار حتـى الحاديـة عـشرة.

التحـرُّك بـين المُصابـين يتطلَّـب القفـز، وطلبـات المصابـين لا بُـدَّ مـن تلبيتهـا، مـا أمكننـا، أكـثر مـن نصفهـم يحتـاج إلى مـن يُطعمـه... الذيـن لا يُسـمح لهـم بالطعـام يأكلـون، والذيـن يحتاجـون إليـه لا يسـتطيعون... الأَذرُعُ المـمـدودَةُ تشـدُّ الأرديـة؛ طلبًـا للعـون والمسـاعدة: شربـة مـاء، وعـاء للإخـراج، مسـند للركبـة المكسـورة، تعديـل للسـاق المجبـورة...

في أثنـاء القصـف أصلـح الفدائيـون مولِّـد الكهربـاء، ودبَّ النشـاط مـرَّة أخـرى في وحـدة تصويـر الأشـعة، وثلَّاجـة الـدم، وغرفـة العمليـات، وأصبحـت عمليـة تعطُّـل المُولِّـد وإصلاحـه -إن أمكَـنَ- مـع تشـغيل المولـد الاحتياطـي، وانقطـاع التيـار الكهربـائي عـن أجـزاء كثـيرة في المستشـفى- هـي الأخـرى عمليـة روتينيـة؛ مـن كـثرة حدوثهـا، وبـدأ الصبـح مـن جديـد؛ كلُّ مصـاب يذكِّـر بموعـد وصولـه، وبأنـه وصـل قبـل زميلـه، ولكـن الاختيـار ظـل يحـدث طبقًـا للقاعـدة؛ والمصابـون لا يعلمـون.

جـاءت دفعـات جديـدة مـن المصابـين، ومـع كل دفعـة يـزداد الضجيـج. الجميـع يطلـب إسـعافًا عاجِـلًا لمُصابِـه، والجميـع يصيـح، والقاعـات امتـلأت حتـى أبوابهـا، والمَمـرُّ لم يَعُـد صالحًـا لمـرور النقَّـالات.

كانـوا يأتـون بالمصابـين محمولـين عـلى الظهـور، أو فـوق نقَّـالات، في سيَّاراتٍ عادِيَّـة، أو سـيارات إسـعاف -إن توافَـرَت-. وإذا كان هـؤلاء المصابـون مَدنيِّـين فـإن الأهـالي يبقـون بجـوار مُصابيهـم، في أحيـان كثـيرة كانـت الأسرة كلهـا تـأتي مُصابَـةً: الأم، والأب، والأطفـال، ثـم نعـرف أنهـم تركـوا جُثَّـةً أو اثنتـين في الـدار التـي قصفتهـا قذائـف المدفعيـة الثقيلـة.

في نحـو الحاديـة عـشرة صباحًـا -وكُنَّـا مُتيقِّنـين مـن اجتيـاح الجيـش للمستشـفى- كان أكـثر مـا نخشـاه هـو بدايـة مرحلـة الاقتحـام الأول؛ حيـث أنـه -وبحسـب العقيـدة القتاليـة- سـوف يكـون عنيفًـا وغاشـمًا. قرَّرنـا أن يرتـدي جميـعُ المتطوعـين والمتطوِّعات ملابـس بيضـاء؛ حتـى لا يجـد الجيـش مـبرِّرًا لإطـلاق النـار داخـل المستشـفى بحجَّـة

وجود فدائيين، ولم يكن هناك سلاح في المستشفى ما عدا المسدس الصغير معي، كان إسبانيَّ الصُّنع، وكنتُ أعتزُّ به كثيرًا، فكَّرت في المكان الأمثل الذي يمكنني أن أخبِّئه به، وهداني تفكيري إلى "زير" فخَّار، موضوعٍ في الرُّكن في آخر المستشفى، وكان به حوالي شبر من المياه الراكدة التي لا تصلح للشرب، فأحضرتُ كيسًا من النايلون ووضعته في قاع الزير (وقد استمرَّ في موقعه حتى نهاية الأزمة، وكلَّفت فائزة فيما بعد بإحضاره لي، وما زلت أحتفظ به حتى الآن)...

غير أن توقُّعاتنا لم تصدق، ومضى نهار الجمعة الثانية في هذا الأتون المشتعل، واستمرَّ القصف أثناء الليل، في معظم ساعاته.

***

عمليَّة وقف إطلاق النار عملية تفاوُضيَّة صعبة للغاية، فيها الكثير من المُساوَمات، ولا أعرف إن كنتُ مُحِقًّا فيما خطر على بالي وقتها أم لا؛ انتابتني فكرةٌ أنَّ المتواجدين في القاهرة يعلمون بما يحدث، وأن القتال مستمرٌّ بعلمهم، وقد تمَّ الترتيب له قبل سفرهم لمصر! كانت القيادات الوسطى في الجيش والفدائيين مُتحمِّسة جدًّا للمواصلة؛ من أجل تدعيم مراكزهم التي يحتلُّونها على الأرض؛ لتحسين شروط التفاوض -كما ذكرت-، لكنَّ الأفراد المقاتلين -سواء كانوا جنودًا بالجيش الأردني، أو فدائيِّين- كانت دوافعهم في استمرار القتال مختلفة، ومتباينة: منهم المنصاعون للأوامر العسكرية، ومنهم المنساقون خلف شعورهم بالغضب، وسعيًا للأخذ بالثأر، وهي الفئة التي كانت تمثِّل عقبةً كبرى في سبيل تنفيذ قرار وقف إطلاق النار... من هنا كانت أفكاري تتجه لعدم التصديق بأن أي قرار سيصدر متضمِّنًا الأمر بوقف إطلاق النار سيكون قابلًا للتنفيذ على الأرض؛ فلم تكن حتى القيادات قادرة على إجبار قواتها على التنفيذ!

ومرَّ اليوم التاسع دون تغيير كبير في الأحداث عمَّا مرَّ قبله من أيام. كُنَّا نستمع للإذاعات ومناقشات القمَّة التي كانت تدور حول إقرار هُدنَةٍ غير محدودة، مع إخلاء الشوارع من كل المَظاهِرِ العسكريَّة، وأن يعود الفدائيُّون إلى قواعدهم، وأن يتولَّى الأمنَ في عمَّان ضبَّاطٌ وجنودٌ مصريُّون، مع مجموعةٍ من الضُّبَّاط والجنود التونسيين... وقد فوجِئتُ بعد انتهاء الأزمة عندما علمتُ أن القوات المصرية التي كانت مرشَّحة للقيام بهذه المهمة هي نفس مجموعة الطَّفيلة، يرأسهم لواءٌ

بالصَّاعِقة، وكان الرجل الثاني بها هو صديقي العزيز طارق شرف، وقد أقسم لي طارق أن كتيبته بجنودها وصف الضُّبَّاط -مع كتيبة اللواء سمير- كانوا قادرين على السيطرة على عمَّان بأكملها خلال يومين، لو أُعطوا الأمرَ (لم أعلِّق على كلامه "الخيالي"؛ لأنني تعوَّدتُ على عدم التقليل من قدراته!).

على أية حال، كان لعلاقتي الطيبة بهؤلاء الضُّبَّاط المصريين (مجموعة الطفيلة) فائدة كبيرة بعد ذلك...

بقية القرارت المُزمَعة التي استمعنا إليها من المحطات الإذاعية، والتي صدرت عن القمة بعد ذلك كانت تتعلَّق بمستقبل العمل الفدائي، وكيفية والحفاظ عليه، كما كُلِّفَت لجنةٌ من مؤتمر القمة بمتابعة تنفيذ تلك القرارات... إلخ.

لم يستجب أحدٌ بالطبع لدعوات التهدئة تلك في اليوم التاسع، بل بدأ الاستعداد لاقتحام مستشفى الأشرفية في اليوم التالي (العاشر من بداية الأزمة)، وكانت الكلمة التي اعتاد جميع الأطراف على سماعها من أفواه الجنود والفدائيين على حد سواء هي: "ما بارد على حدا "... كانوا يقصدون قياداتهم، وأنهم لن يُنفِّذوا أيَّةَ تعليماتٍ تصدر لهم من قياداتهم بوقف القتال؛ لأن لكُلٍّ منهم ثأرًا: لأخ، أو قريب، أو حتى صديق وزميل!

اليوم العاشر- السبت- 1970/9/26

من الشرق -كما توقَّعنا من قَبلُ- بدأ الهجوم على المستشفى، برغم وقف إطلاق النار المُعلَن!

بدأ اجتياح المستشفى في الصباح الباكر، بعرباتٍ مُدرَّعة، ومُجَنزَراتٍ تحمل رشَّاشات ثقيلةً، وُجِّهَت نحو مدخل المستشفى، وبدأت في إطلاق قذائفها إلى داخل المستشفى بطريقة عشوائية، فكانت القذائف الأولى من نصيب مواسير كبيرة على الحائط المواجه للمدخل، وكنتُ قريبًا من البوابة ومن المدخل الرئيسي للمستشفى الجراحي، ظننتُ أن بإمكاني التحدُّث مع أحد قادات القوة المهاجمة، كنت أنوي إطلاعهم على ما يدور داخل المستشفى، وعن أحوال المرضى داخلها، والتأكيد على عدم وجود مسلَّحين بها، ورفعت صوتي صائحًا

أطلـب الحديـث مـع القائـد... لكـنَّ الـرَّدَّ أتـاني بصـوت جهـوري خَشِـن: "إخـرَسْ... كُلُّكـم قوَّاديـن ومُخرِّبـين"! فلـم أتكلَّـم بعدهـا... عندمـا انطلقـت الرشَّاشـات أصـاب بعضُهـا مواسـيرَ الـصَّرف الصِّحِّـي، والمياه، بـدأت مواسـير الـصرف الصحـي تُخـرِجُ مـن باطنهـا قـاذورات المجاري المُكدَّسـة بهـا منـذ عـشرة أيـام، فكانـت تندفـع بشـدَّة فـوق رؤوس المـرضى وفُرُشـهم، والممـرَّات المليئـة بأجسـادٍ تغطِّيهـا الدمـاء والقيـح والأتربـة، وكل القـاذورات التـي تُغطِّـي وجوهًـا لم تصـل إليهـا ميـاه منـذ عـشرة أيـام. وبالرغـم مـن بشـاعة الموقـف الـذي تسـبَّب فيـه انفجـار مواسـير الـصرف الصحـي إلَّا أنَّ اندفـاع الميـاه مـن مواسـير الميـاه اسـترعت انتباهـي أكـثر، كان قـد مـرَّ علينـا أسـبوعٌ كامـلٌ كنَّـا نَشـتهي فيـه قطـرةَ مـاءٍ للـشُّرب، أو التَّعقيـم، أو غسـيل أنفسـنا وكُلِّ مـا حولنـا، لم نتخيَّـل -للحظـةٍ- أن المـاء بهـذا القُـربِ منَّـا! انفجـرت المواسـير، واندفعـت الميـاه كشـلَّالٍ... أصابتنـي حالـةٌ مـن الذهـول، وصِرتُ أصرخ: "مَيَّـه.. مَيَّـه.. ميَّـه..."، غـير مُبـالٍ بمـا يحـدث حـولي، ويبـدو أن حالتـي هـذه اسـترعت انتبـاه أحـد الضُّبَّـاط الذيـن كانـوا مـع الفـوج الأول مـن المقتحمـين للمستشـفى (كادوا أن يُغمـى عليهـم مـن الروائـح التـي يبـدو أننـا كنَّـا قـد أدمَنَّاهـا بحيـث أصبحـت لا تؤثِّـر فينـا بهـذا القـدر)؛ فتحـدَّث معـي هـذا الضابـط، أفهمتـه أننـا أطبَّـاء مصريُّـون، نعمـل تحـت مظلَّـة اتحـاد الأطبـاء العـرب، بالمشـاركة مـع الحكومـة الأردنيـة؛ لمسـاعدة الفلسـطينيين، وأن المستشـفى يقـع جغرافيًّـا في المنطقـة التـي يعيـش فيهـا الفلسـطينيُّون، لكنَّنـا نُعالِـج الجميـعَ... وفَهِمـتُ مـن كلام الضابـط أن قوَّاتـه آتيـةٌ مـن منطقـة بعيـدة، وأن مَهمَّتَهـم كانـت تتلخَّـص في تحريـر المستشـفى! فسـألته: "تحريرهـا مِـن مَـن؟ لا يوجـد بالمستشـفى سـوى مـرضى عاجزيـن عـن الحركـة (كان كل الجرحـى القادريـن عـلى الحركـة قـد تسرَّبـوا مـن المستشـفى في اليـوم السـابق) ونسـاء، وأطفـال، وطاقـم طبـي مـصري...".

تحـدَّث الرجـل معـي برفـقٍ غـير معهـودٍ في ضُبَّـاط الجيـش، وبعـد تفتيـشٍ سريـع للمستشـفى أمـر القائـدُ بخـروج الطاقـم الطبـي مـن أطبَّـاء وممرِّضـين إلى الخـارج؛ فخرجنـا جميعًـا، مـا عـدا محجـوب، الـذي كان يجـري الكشـف عـلى طفلـة صغـيرة؛ فلـم يتحـرَّك مـن موقعـه، فانتظـر الجُنـديُّ إلى أن انتهـى وأخرجـه، لينضـمَّ إلينـا في المـكان الـذي اسـتقرُّوا عـلى وضعنـا بـه خلـف غرفـة المـوتى والمشرحـة، وكان هنـاك تركيـز عـلى شـخصي مـن جانـب المُحقِّقـين عنـد سـؤالهم عـن أيِّ شـخصٍ أو أي اسـم يرغبـون في السـؤال عنـه، اسـتدعوني أكـثرَ مـن مَـرَّة لذلـك، وقـد تبـيَّن لي مـن أسـئلتهم

أنهـم لا يعلمـون شـيئًا عـن المنطقـة، أو عـن عـمَّان عمومًـا، وقـد فهمـت أنهـم في وضـع سـيِّئ؛ فلـم تكـن لديهـم خطـة واضحـة أو أوامـر فيـما سـيفعلونه بعـد اجتيـاح المستشـفى، كان أمامهـم طاقـم طبـي أجنبـيٌّ، مـع مـرضى أو جرحـى عاجزيـن عـن الحركـة، مـع نسـاء وأطفـال مـرضى وجرحـى... ودارت في أذهانهـم أسـئلة كثـيرة: هـل يمكـن اعتقـال هـؤلاء؟ ومَـن يُعالِجُهـم في هـذه الحالـة المزريـة بمـا عليهـم مـن قـذارة وجـروح متقيِّحـة؟... كان النهـار عـلى وشـك الانتهـاء، وأصبحنـا بعـد العـصر، عندمـا فوجئـت بحضـور فائـزة، صديقتـي مـن الجنـوب! كانـت ترتـدي ملابـس عسـكرية، وتحمـل عـلى كتفيهـا رُتبَـة نقيـب، وكان مـن الواضـح أنهـا اسْـتُدْعِيَت لأخـذ رأيهـا في الموقـف الـذي تواجِهُـه القيـادة، حاوَلَـت فائـزة منـذ البدايـة عمـلَ ترتيبـاتٍ خاصَّـةٍ لي، ولكننـي رفضـت أيَّـة ترتيبـاتٍ لا يشـارك فيهـا زمـلائي، وعلمـت مـن فائـزة أن القيـادة تُـصِرُّ عـلى إخـلاء المستشـفى بالكامـل؛ فـكان الاقـتراح بنقـل جميـع مـن بـه إلى مبنـى إحـدى المـدارس في "ناعـور"، وهـي بلـدة صغـيرة جنـوب عـمَّان، مُعظَـمُ سُـكَّانها مـن الأردنيـين الشركـس، وأن تُعتَـبَرَ هـذه المدرسـة شـبهَ مُعتَقَـلٍ للجميـع: مـرضى وجرحـى، نسـاءً وأطفـالًا، مـع الطاقـم الطبـي الـذي يقـوم بعلاجهـم -مؤقَّتًـا- حتـى يَتـمَّ إضافـة أطقـم أخـرى لدعمهـم في هـذا.

طلَبَـت فائـزة مـن طاقـم التمريـض نقـلَ كُلِّ احتياجاتهـم مـن تجهيـزاتٍ للمـكان الجديـد، بمـا فيهـا مـن عربـاتٍ للغيـار، وأسرَّةٍ مُخزَّنـة، واسـتمرَّ هـذا العمـل حتـى قـرب المغـرب، وأمـرت فائـزة باصطحـاب الأطبَّـاء والمتطوِّعـات في سـيارة واحـدة مـن سـيارات نقـل القـوات المسـلحة، وأصرَّت عـلى جلـوسي إلى جانبهـا بجـوار السـائق، فرفضـتُ في البدايـة، حتـى أشـار لي محجـوب وتوفيـق بالقبـول، وسـبق الرَّحيـلَ عَمليَّـةُ غيـارٍ عـلى جـروح المـرضى سريعًـا، بعـد الاسـتعانة ببعـض التجهيـزات التـي أحضرتهـا فائـزة مـن مستشـفيات الجيـش...

كانـت فائـزة ملتصقـةً بي أثنـاء تحرُّكنـا بالسـيارة إلى "ناعـور"، كان الجميـع يركبـون بالخلـف في صنـدوق السـيارة، وكانـت حالتهـم المعنويـة قـد أصبحـت أفضـل بكثـير؛ لأنهـم تأكَّـدوا مـن نجاتهـم مـن هـذه المذبحـة، وعنـد وصولنـا كُنَّـا في حالـة غـير عاديـة مـن الإرهـاق... كانـت تنتظـرني مفاجـأةٌ أخـرى في ناعـور؛ فقـد كان في اسـتقبالنا في تلـك المدرسـة التـي نقلونـا إليهـا أعضـاءُ جمعيَّـةٍ نسـائيَّةٍ للخَدمـات الاجتماعيـة بالبلـدة، والمفاجـأة كانـت في أن رئيسـة تلـك الجمعيـة هـي الآنسـة وجيهـة چانبيـك، التـي

كنت أعرفها من قبل، أثناء وجودها بالقاهرة، كانت شركسية، جميلة، لم تتجاوز الثلاثين من عمرها، أثناء وجودها بالقاهرة كانت تقيم في ضيافة أختي، التي لمَّحت لي -وقتها- بأنها عروس "لُقطَة" (أتصوَّر أنها قامت بالأمر نفسه مع وجيهة)، وحتى تدفعني أختي للتفكير في أمر الارتباط بها أخبرتني أنَّها أميرة من أَميرات الشَّركس في بلادها، وأن عائلتها كبيرة جدًّا في الأردن... لاحظت فعلًا أنها -رغم صِغَرِ سِنِّها بالنسبة لبقية أعضاء الجمعية- كانت تتمتَّع باحترام كبير بينهم، وكلمتها مسموعة... كان المساء قد حلَّ على ناعور، ولما سألتني وجيهة إذا كنتُ أريد أيَّ شيءٍ أبلَغتُها أنْ تُطَمْئِنَ أهلي عليَّ، ثم قلت لها: "إننا -رغم إدماننا للجوع- بحاجة إلى طعام، لكنَّنا لن نأكل شيئًا قبل أن يأكل المَرضى"! فأبلَغَتني أنه في اللحظة التي كنا نتحدث بها كان المرضى يتناولون طعامهم بالفعل، وقال إن هناك وجبة خاصَّة لي أنا وزملائي...

تذوَّقنا طعم الماء أخيرًا، دون جلوكوز، أو محلول ملحي...

كم كانت سعادة محجوب ود. توفيق بهذه العلاقة التي لم تَكُن في الحسبان، وطلب مني محجوب أن أسألها إن كانت تستطيع الحضور صباحًا لنبلغها باحتياجاتنا لاستكمال العمل مع المرضى؛ فلم تكتفِ بإبداء استعدادها بالفعل، لكنَّها -أيضًا- ألمَحَت لي بأنها تفكِّر في وسيلةٍ آمنة لتهريبي من هذا المُعتَقَل! فوجئت بحديثها، وقلت لها: "أشكرك بالطبع... لكن دعينا لا نستبق الأحداث، ولنرى ما سيكون"...

ومع انتهائنا من وجبتنا، بدأ العمل مجدَّدًا مع مَن تبقَّى من المرضى بهذا المستشفى الافتراضيِّ، أصبح الضغط علينا أخفَّ كثيرًا ممَّا كان عليه في الأشرفية؛ فالعدد الإجمالي للمرضى كان قد قلَّ، بعد توزيعنا للمرضى المتعافين على البيوت في المنطقة قبل اجتياح الجيش، ولم يكن هناك مرضى جُدُد، كما أصبح لدينا رئيسة فريق تمريض جديدة، هي فائزة، التي قامت بتوزيع العمل على المُمرِّضات والأخوات المُتطوِّعات...

انتهزت الفرصة في ظل هذه الظروف المريحة نسبيًّا، ونمتُ بعمق، لأول مرة أنام على سرير منذ أيام طويلة!

اليوم الحادي عشر- الأحد- 1970/9/27

استيقظت في الصباح، وتناولت إفطارًا، وشربت ماءً! في العادة لا يتوقَّف المرء لسرد مثل هذه الأحداث الاعتيادية، التي يمرُّ بها معظم البشر على وجه هذا الكون، يوميًّا؛ فلا يلقي المتحدث بالًا لذكرها؛ فهي أشياء تحدث كلَّ صباح، لكن في حالتي كان هذا حدثًا استثنائيًّا بالفعل، لم يحدث على مدار أيام طويلة مرَّت!

حلَّ الصباح، وشرعت في مباشَرة مهامي التي أصبحت بسيطة بالفعل، منحني الفراغ الجزئي الوقت الكافي للاستغراق في التفكير، كنت مشغولًا بمصيرنا، وتوالت الأسئلة على ذهني: لماذا حدث هذا؟ من المسؤول عمَّا وصل إليه حالنا؟ ولماذا تُوأدُ أحلامنا بهه السهولة؟ كنَّا نحلم بتحرير الأرض المغتصَبة، هناك في فلسطين، وانتهى بنا الحال إلى أننا وجَّهنا رصاص بنادقنا لصدور بعضنا البعض، نحن؛ الأشقَّاء، أبناء الدم الواحد، والمصير المشترك!

لم يقطع عليَّ شرودي في أفكاري سوى حضور وجيهة إلى المدرسة (المعتقل... المستشفى!)، كان أهلها يعرفون أختي وعائلة زوجها، وبينهم علاقات مودَّة، ولمَّا قصَّت عليهم قِصَّتي، وأنَّها تفكِّر في تهريبي لأنها لا تعرف ماذا تنوي القيادة بنا -فقد أصبح الاستقطاب على أَشُدِّه بين الأردنيين والفلسطينيين- وأنها تخشى عليَّ؛ إذ ماذا ستقول لأختي لو حدث لي مكروه! اقترح عليها أخوها الأكبر-وهو ذو شأن مرموقٍ؛ حيث أنه كبير العائلة، التي هي واحدة من أكبر العائلات في البلدة- خطَّة لتهريبي. كانت الخطة تقتضي أن يأخذني معه في سيارته، على أن أضع "شماخًا" أردنيًّا على رأسي، وأغطِّي به جُزءًا كبيرًا من وجهي. كان يعتمد في هذه الخطة على أنه لم يسبق أن قام أحد باستيقافه أو تفتيش سيارته، حتَّى في ظلِّ أشدِّ الأحداث سخونةً بالمنطقة. شرحت لي وجيهة التفاصيل العامَّة للخطة، وتركتني عائِدَةً لمنزلها، بعد أن طلبت مني أن أستعدَّ للتنفيذ عندما تصل لتحديد الموعد مع أخيها، وعائلتها.

جلست مع محجوب وتوفيق بعد مغادرتها، وأخبرتهم بما قالته لي، كنت في حرج بالغ من أن أتركهما وحدهما وأغادر، وكنت ميَّالًا للرفض، غير أنهما أقنعاني بضرورة الموافقة؛ حيث اعتبرا أن نجاة أي فرد منَّا هو بمثابة نجاة للجميع، كما طمأناني على نفسيهما، قائلَيْن إنهما -بلا شك- سيستطيعان تدبير أمريهما،

وشجَّعاني على المضيِّ قدمًا في تنفيذ خطة وجيهة، إن لم يكن من أجل تهريبي، فعلى الأقل من أجل أن أهرِّب معي السيدة "أم أسامة" زوجة مدير إذاعة "صوت العاصفة"، التي كانت تعمل فيما يُسمَّى بالشرطة العسكرية النسائية لحركة فتح، كانت قد وصلت لمستشفى الأشرفية قبل يومين من اقتحامها، ونجحنا في إخفاء وجهها عن عيون القوات التي كانت تعرفها جيدًا، عن طريق لفِّ جزء كبير من وجهها ورأسها وكأنها مصابة من ضمن الجرحى بالمستشفى، وحملوها معنا في السيارات التي نقلتنا إلى ناعور... كان وجه السيِّدة معروفًا لدى كُلِّ المفارز الأردنية؛ وبالتأكيد كان سيُلقى القبض عليها إذا تحرَّكت وحدها، وفي هذا خطر كبير عليها؛ لأنها كانت من ضمن المطلوبين لدى الجهات الأمنية...

***

خُضنا كذلك في أمر موسى الحسيني، وكيف سنتمكَّن من إنقاذه، بعد أن كان الجيش قد أعلن عن عرض مكافأة لمن يأتي برأسه -في الإعلان الذي أشرت إليه سابقًا مع "أبو عمَّار"، كانت المكافأة كبيرة؛ إذ كانت تبلغ خمسة آلاف دينار لمن يأتي به. وموسى الحسيني -بخلاف أنه زميل لنا- كان ابنًا لمفتي القدس، عائلته تمتلك تاريخًا طويلًا من النضال المشرف ضد العدو الصهيوني، وكان أخوه قد نال الشهادة على يد اليهود.

كُنَّا قد استطعنا إخفاءه بين الأطباء والزُّملاء، أثناء ترحيلنا من مستشفى الأشرفية إلى ناعور، وممَّا ساعدنا على ذلك أن الجيش لم يكن يعلم مكانه، ولم يتصوَّر أحد منهم أن يكون في مستشفى الأشرفية.

ومن جديد طلب مني محجوب وتوفيق أن أتدخَّل في الأمر، لكن لدى فائزة هذه المرَّة! وبالفعل، قمت بالحديث إليها، وأطلعتها على أمر موسى، واثقًا في أنها لن تقوم بالإبلاغ عنه -على الأقل- إن لم تساعد في تدبير أمر تهريبه، كنت واثقًا من ذلك نظرًا للعلاقة التي كانت تجمعنا أثناء وجودي معها في الجنوب. لم تخذلني فائزة فعلًا، بل إنها لم تقبل المساعدة في استمرار إخفائه فقط، وإنما وعدتني كذلك بأنها ستعمل ما في وسعها، ولن تألو جهدًا في سبيل تحقيق

طلبـي، وقـد أَوْفَـت بوعدهـا فيـما بعـد، حيـث ألبسـته زيَّ ضابـطٍ في الجيـش، ودبَّـرت سـفره عـلى مـتن إحـدى الطائـرات إلى السـعودية!

***

كانـت الشـمس قـد شـارفت عـلى المغيـب، ولم أكـن قـادرًا عـلى الوصـول لوجيهـة لإبلاغهـا بمـا اتفقنـا عليـه أنـا ورفيقـاي، ومـع أننـي كنـت أتوقَّـع موافقتهـا هـي شـخصيًّا، إلا أننـي كنـت متخوِّفًـا مـن رد فعـل أسرتهـا عندمـا تعلـم بهـذا الطلـب، توقَّعـت أن يرفضـوا؛ تَجنُّبًـا للمشـاكل مـع السـلطات الأردنيـة. انتهـزت فرصـة مـرور مجموعـة مـن أعضـاء جمعيتهـا، وانتحيـت جانبًـا بأحدهـم، وطلبـت منـه أن يهـب لبيتها ليخبرهـا بأنني أطلـب لقاءهـا بشـكل عاجـل، وبالفعـل، لم تمـرَّ أكـثر مـن نصـف سـاعة حتـى وجدتهـا تدخـل مـن بوابـة المدرسـة، بينـما كنـت أتطلَّـع مـن نافـذةٍ بالطابـق العلـوي بهـا.

هبطـتُ إلى السـاحة الداخليـة للمدرسـة بسرعـة، والتقيتهـا في منتصفهـا، سِرنـا معًـا حتـى وصلنـا إلى مكتـب الاسـتقبال بالطابـق الأرضي، وكان خاليًـا مـن النـاس، سـألتني بلهفـةٍ عـمَّا دفعنـي لطلبهـا عـلى وجـه السرعـة، فأجبتهـا بلهجـة هادئـة، أعـادت إليهـا بعـض الطمأنينـة، قلـت لهـا:

- تعلمـين مقـدار الاحـترام والتقديـر الـذي أكنُّـه لـك مـن قبـل، والآن تضاعَفَـت هـذه المشـاعر...

قاطعتني قائلة:

- دكتـور يـسري... أنـت وأختـك صاحبـا أفضـال كثـيرة عـليَّ، بالـذات أختـك العزيـزة، التـي أعتبرهـا مثـل أختـي تمامًـا، وأعتـبر نفـسي واحـدة مـن أفـراد عائلتكـم -إن سـمحتَ لي- وأيًّـا كان مـا أفعلـه أو سـأفعله معـك فـما هـو إلا ردًّا بسـيطًا لهـذه الأفضـال... فـلا تـتردَّد في طلـب أي شيء منـي...

تأثَّـرت كثـيرًا بكلامهـا، وكنـت عـلى وشـك التراجـع عـن الطلـب الـذي أحضرتهـا مـن أجـل أن أخبرهـا بـه؛ لمـا قـد يسـبِّبه لهـا ولأسرتهـا مـن متاعـب، لكـن نظارتهـا المشـجِّعة دفعتنـي للقول:

- أشـكرك يـا آنسـتي العزيـزة مـن أعـماق قلبـي، وأشـكر الأقـدار التـي جعلتنـي أتعـرَّف إلى شـخصية بمثـل هـذا النُّبـل، وكـرم الأخـلاق... لقـد تحدَّثـت مـع

رفيقـيَّ المقرَّبَـيْن بشـأن العـرض الـذي عرضتِـه عـليَّ -مشـكورة- وقـد بـاركا هـذه الخطـوة، وتحمَّسـا لهـا، لكنهـما طلبـا منـي طلبًـا أظنُّـه سـيكون صعبًـا، ولكننـي وعدتهـما أن أبلغـك بـه، وأنـتِ في حـلٍّ مـن أن تنفِّذيـه إن كنـت لا تسـتطيعين ذلـك...

- سـلْ مـا شئتَ يـا دكتـور، وأنـا سـأبل قصـارى جهـدي لتحقيـق مـا تريـد أنـت وزمـلاؤك...

- لنا رغبة في أن نأخذ معنا في رحلتنا إحدى السيدات من المرضى...

تغيَّرَت ملامِحُها قليلًا، وشَعُرتُ أن اقتراح أختي القديم كان ما زال يدور بعقلها! أكملتُ:

- هذه السيدة في الحقيقة ليست مريضة كما ادَّعينا...

زادت تقطيبــة وجههــا بــروزًا، وأحسســت أننــي أزيــد الأمــر ســوءًا، فانتبهــت، واندفعــت قائــلًا:

- لا تسـيئي فهمـي يـا عزيـزتي... هـذه السـيدة هـي "أم أسـامة"، زوجـة مديـر إذاعـة "صـوت العاصفـة"، وهـي -وزوجهـا- مـن أكـبر الأشـخاص الذيـن قدَّمـوا لنـا يـد العـون طـوال وجودنـا بـالأردن... ونحـن نـرى أن أقـلَّ مـا نقدِّمـه لهـا، بعـد أن انقطعـت عنَّـا أخبـار زوجهـا، أن نسـاعدها عـلى الهـروب مـن مصيرهـا المحتـوم، إذا مـا وقعـت في أيـدي القـوات العسـكرية...

لوهلـة خيِّـل إليَّ أن مشـاعر الارتيـاح قـد انعكسـت عـلى ملامـح وجههـا. صمتَـت قليـلًا ثـم قالـت بحـزم:

- عـلى الـراس يـا دكتـور... سـأبذل مـا بوسـعي مـن أجـل ذلـك، لا تقلـق، سـأقنع أخـي، وأظـن أنـه سـيكون مرحِّبًـا بهـذا، أكـثر منـي، فأنـت لا تعلـم مـدى مـا يتمتَّـع بـه مـن مشـاعر إنسـانية، وشـفقة، وهـو حزيـن جـدًّا لمـا مـرَّ به أشـقَّاؤنا مـن الطرفـين...

شـكرتها مجـدَّدًا، وحينـما همَّـت بالانـصراف أخبرتنـي بـأن أنتظـر زيـارة مـن أخيهـا في وقـت متأخـر مـن الليـل، حيـث سـيأتي ليخـبرني بتفاصيـل الخطـة ومواعـدي التحـرك، ومضت...

***

وافَقَت العائلة على رحيل "أم أسامة" معنا بالفعل، أخبرني أخوها بهذا الأمر عندما جاءني بعد منتصف الليل بقليل، وشرح لي ترتيبات الرحلة، كانت الترتيبات سهلةً؛ فسوف تمرُّ علينا وجيهة قبل المغرب في اليوم التالي، وسوف تتولّى أمرَ جنديٍّ الحراسة على البوّابة القريبة من منزلهم، كأن تكلِّفه بأيَّة مَهمَّة، ولن يرفض لها طلبًا بالطبع، وفي أثناء تَغيُّبه لتنفيذ المَهمَّة نخرج نحن، وتقودنا إلى منزلهم القريب، وبعد ذلك سيتولّى هو بقية المسألة...

ما بعد النهاية!

سارت الخطَّة كما اتفقنا، كنت قد ودَّعت صديقيَّ: محجوب، وتوفيق، دمعت عيناي وأنا أعانقهم عندما حانت لحظة المغادرة...

قادتنا وجيهة لمنزل عائلتها، كان منزلًا كبيرًا، مُكوَّنًا من طابِقَيْن على مساحةٍ واسِعَةٍ من الأرض، كان المنزل مربَّع الشكل من الداخل، الطَّابق الأرضي يتكون من عدة غرف تشغل أركانه الأربعة، وبينها ساحة كبيرة في المنتصف، وفي مواجهة الباب الرئيسي له يقع الدَّرَج الذي يقود للطابق الأعلى، الذي يضمُّ "تراسًا" داخليًا في الجهات الأربع، يُطِلُّ على ساحة البيت الداخلية تلك... عند وصولنا أدخلتنا وجيهة غرفةَ الاستقبال التي كانت على يمين الداخل إلى المنزل من الباب الخارجي، ثم استأذنَت، وصعدت إلى الطابق الثاني لبعض الوقت، تصوَّرنا أنها ذهبت لتحضر لنا واجِبَ الضِّيافة، وجلسنا في الغرفة، طالت غَيْبَتُها إلى حدٍّ ما، ولم يكن أمامَنا شيء نفعله... بدأت أتململ، ونهضت من مكاني، اتجهت إلى راديو قديم كان في ركن من أركان الغرفة، وقمت بتشغيله، وأدرت مؤشره إلى أن استقرَّ على إذاعة "صوت العاصفة"، وفوجئنا -أنا وأم أسامة- أنها تبث آيات من القرآن الكريم، ولم يكن أمرًا مألوفًا! حوَّلت المؤشِّر إلى الإذاعة الأردنية فوجدناها تذيع القرآن هي الأخرى! حوَّلتُ إلى الإذاعة المصرية، فكان الأمر نفسه، أصابتنا حيرةٌ شديدة، قالت "أم أسامة":

- ماذا يحدث؟!

في هـذه الأثنـاء سـمعنا طَرقًـا عنيفًـا عـلى بـاب المنـزل، ولم نسـمنع أحـدًا مـن أهـل البـاب يتجـه لفتحـه، اسـتمرَّ الطَّـرْقُ، وصـار أكـثرَ عُنفًـا؛ فقـرَّرتُ أن أفتحـه بنفـسي، قلـت لنفـسي إن كان هنـاك خطـر فلأواجهـه أنـا أوَّلًا... عندمـا فتحـت البـاب فوجِئـتُ بمحجـوب يقـف في مواجهتـي! كان هـو الـذي كان يطـرق البـاب مسـتخدمًا رأس عصـاه التـي اعتـاد أن يتـوكَّأ عليهـا أحيانًـا...

"عبـد النـاصر مـات"!... قالهـا محجـوب وهـو يحـاول أن يبـدو مُتماسِـكًا، كـدتُ أصرخ، لكنـه عاجلنـي بالقـول -بلهجـةٍ حازِمَـةٍ: "لا بُـكاءَ الآن... تماسَـكْ حتـى نصـل إلى السـفارة!".

خرجنـا مـع "أم أسـامة" دون اسـتئذان أصحـاب المنـزل، الـذي لم يَظهَـر منهـم أحـدٌ، ويبـدو أنهـم كانـوا قـد علمـوا بالخـبر مثلنـا، وأصابتهـم -كـما أصابتنـا حالـة الذُّهـول-...

سـألت محجـوب -ونحـن في طريقنـا للمدرسـة- حـول طريقـة خروجـه منهـا، رغـم الحراسـة، فأخـبرني أن المـكان وقـع كُلُّـه في فـوضى عارمـة، والحـرس يجلسـون عـلى الأرض -وأسـلحتهم إلى جوارهـم- يبكـون، القائـد نفسـه كان يبـكي! عَلِمنـا فيـما بعـد أن القتـال توقَّـف في كُلِّ عـمان والأردن عندمـا أُعلِنَـت وفـاة عبـد النـاصر... كانـت قـرارات القمـة قـد اتُّخِـذَت في اليـوم السـابق، وأُعلِنَـت صبـاح اليـوم في الجلسـة الختاميـة، وقـد أصرَّ عبـد النـاصر -الـذي بـذل جهـدًا خارقًـا أثنـاء القِمَّـة- عـلى توصيـل كلِّ الزعـماء العـرب إلى مطـار القاهـرة، وكان آخـر مَـن وَدَّعـه هـو أمـير الكويـت، ثـم عـاد لمنزلـه مُرهَقًـا، فنـام ليسـتريح قليـلًا، ولم يَصـحُ مـن نومتـه!

***

اجتمـع كُلُّ القـادة العـرب لوقـف القتـال، واتُّخِـذَت قـرارات وتَعهُّـدات ووعـود، ولم يوقِـفْ القتـالَ إلَّا وفـاةُ عبـد النـاصر!

دخلنـا المدرسـة، واتجهنـا نحـو غرفـة قائـد المعسـكر، ففوجئنـا بـه منخرطًـا في البـكاء، عندمـا وجدنـا أمامـه قـام واحتضننـا، وعندمـا أبلغنـاه بأننـا جئنـا لأخـذ الإذن بالتَّوجُّـه إلى السـفارة بعـمَّان قـال: "وأنـا كـمان.. وسـأوصلكم بعربتـي وأعـزِّي معكـم"!

كان الليـل قـد بـدأ في الهبـوط. قـال الرجـل: "اسـتعدُّوا، وسـنتحرك جميعًـا عنـد الفجـر".

مـن العـادات المتعـارَف عليهـا في الأردن أن المنـزل الـذي تكـون فيـه حالـة وفـاة أن يرفـع أهلـه عَلَـمًا أسـود أعـلاه؛ دليـلًا عـلى الحِـداد، وبالرَّغـم مـن وفـاة مـا لا يقـل عـن خمسـة عـشر ألـف شـخصٍ في أيلـول إلَّا أنـه لم يرتفـع عَلَـمٌ أسـوَدُ واحِـدٌ... أتصـوَّر أن السـبب كان لانشـغال النـاس بالأحـداث ومحاولـة تأمـين أنفسـهم...

عنـد خروجنـا (أنـا وتوفيـق ومحجـوب، ومعنـا القائـد) بسـيارة القائـد ووصولنـا إلى منطقـة العبـدلي (قلـب عـمَّان) وجـدتُ دُكَّانًـا صغـيرًا مفتوحًـا فاسـتأذنت لـشراء علبـة دخـان، لَفَـتَ نظـري وأنـا في الشـارع أنَّ جميـع الجبـال حـول عـمَّان -ولونهـا أبيـض- كانـت كُلُّهـا مكتسـية باللـون الأسـود الصـادر مـن الأعـلام السـوداء التـي علـت كافَّـة بيوتهـا؛ حُزنًـا عـلى عبـد النـاصر؛ فاقشـعرَّ بـدني مـن المنظـر.

علمنـا مـن الجميـع بعـد ذلـك أن الفدائيِّـين وجنـود الجيـش الأردني خرجـوا مـن الكمائـن التـي كانـوا يعيشـون فيهـا مُتربِّصـين ببعضهـم البعـض، وألقـوا بأسـلحتهم أرضًـا وهـم يبكـون، وقـد كـسر بعضهـم الأسـلحة، كانـوا يتصافحـون ويحتضنـون بعضهـم بعضًـا، قائلـين: "شـو بِـدِّي في هـا الحـرب بعـد أن مـات عبـد النـاصر"! وواضـح أن قياداتهـم قـد أفهموهـم أن عبـد النـاصر يقـف إلى جـوار قضيتهـم، والـكل كان يريـد الانتصـار لـكي يقودَهـم الزعيـمُ الملُهِـم- صاحـب الكاريزمـا غـير المسـبوقة في الوطـن العـربي- إلى الحـرب، ونـسي الجميـع أن الحـرب التـي يخوضونهـا الآن أو يرجـون خَوضَهـا في المسـتقبل هـي لتحريـر الأرض التـي تسـبَّبَ في خسـارتها، هـو نفسـه!

ورغـم أن وفـاة عبـد النـاصر كانـت خسـارة فادحـة للقضيـة العربيـة في عمومهـا، وهـو مـا بـدا جليًـا في رد فعـل جميـع الأطـراف، إلا أننـي الآن عندمـا أفكـر فيـما مـررت بـه في تلـك الأيـام البعيـدة أعتقـد أنهـا كانـت مفيـدة بشـكل كبـير لي عـلى المسـتوى الشـخصي؛ فبوفاتـه المفاجئـة تلـك لم أعـد مضطـرًا للجـوء إلى خطـط للفـرار مـن المصـير المجهـول الـذي كنـا ننتظـره في ناعـور، وعـاد لنـا -كأطبـاء مصريـين يعملـون مـع اتحـاد الأطبـاء العـرب- بعـضٌ مـن اعتبارنـا الـذي كانـت المواجهـات الداميـة قـد اقتربـت مـن إنهائـه تمامًـا...

الفصل الرابع

أحراش جرش

لم يتوقَّف القتال المجنون في عمَّان حتى يوم 28 أيلول، برغم كل دعوات التهدئة التي كانت تأتي من القاهرة، ومن مؤتمر القمة العربية، والقرارات التي صدرت عنه. عندما أُعلِن عن وفاة عبد الناصر توقَّف القتالُ فجأةً، دون طلب من أحد!

***

أمضينا يومًا صعبًا في السفارة المصرية، الكل في حالة ذهول كامل؛ فالمصاب كان جلَلًا بالفعل، كان موت عبد الناصر المفاجئ -في رأيي- من اللحظات الفارقة في تاريخ العالم العربي بأكمله، وفي الصراع الدائر بين الفلسطينيين والسلطة الأردنية على وجه التحديد.

مكث الملك حسين -وكذلك عرفات- أيَّامًا في القاهرة؛ لحضور جنازة ناصر، كان مدهشًا للجميع أن قائِدَي الصراع الدَّامي الذي دار على أرض الأردن خلال الأيام الماضية هما القائدان العربيان الوحيدان -تقريبًا- اللذان هطلت دموعهما أمام كاميرات التليفزيون أثناء تشييع جنازة عبد الناصر، التي كانت واحدة من

اللحظات التاريخية بالفعل؛ أكثر من خمسة ملايين شخص في شوارع القاهرة، يبكون جميعًا رحيلَ الرجل الذي زرع الأمل في النفوس...

كنت قد توجَّهت إلى مقر الاتحاد الجديد، الذي كان الدكتور توفيق قد استبدل به المقر الأول الذي كان مواجهًا لمبنى المخابرات المصرية، كان المكان -رغم إصابة واجهته ببعض الطلقات- متماسكًا، وصالحًا للسُّكنى، أقمت به لمدة أسبوع تقريبًا، خلالها كان الملك حسين قد عاد من القاهرة، وكذلك عاد عرفات، بعد أن قرَّرت القمَّة أن يعود الفدائيُّون إلى مواقعهم من أجل ممارسة العمل الفدائي ضدَّ إسرائيل؛ فهم -طبقًا لقناعات عبد الناصر- الأمل في استكمال مسيرة الكفاح، غير أن القرارات التي صدرت عن القمة طلبت أن تنقل الحركات الفدائية عملها خارج المدن الرئيسية، وبالذات عمَّان. عادت الحياة مجدَّدًا للشوارع في عمَّان، لكن الحذر كان هو السائد، وبدأت كافة الأطراف تلملم أطراف أثوابها التي اشتعلت على مدار أسبوعين، وتحصي أعداد المفقودين، وتحسب خسائرها، وكانت خسائر المقاومة -بلا شك- هي الأفدح!

من ضمن القرارات التي صدرت عن القمة العربية التي رحل على إثرها عبد الناصر أن تتشكَّل قوَّة عربية مشتركة للحفاظ على الأمن في عمَّان، وللمساعدة في إجلاء ضحايا وجرحى المواجهات، ونقل الحالات التي تحتاج إلى رعاية طبية خاصة إلى سوريا، وكان قوام هذه القوة يتشكَّل من الضباط والجنود المصريين الذين كانوا يعملون بالطفيلة من قبل، وكذلك عدد من القوات التونسية.

بعد مضي أسبوع تقريبًا قضيته في التردُّد على مستشفى الأشرفيَّة لممارسة أعمال محدودة، أخبرني محجوب أن "أبو عمَّار" يطلب مقابلتي، فقمت بالتوجه إلى مقر القيادة الفلسطينية، والتقيت الرجل، أطلعني على تفاصيل المرحلة فيما يتعلق بنقل الجرحى إلى سوريا، وطلب مني أن أكون مشاركًا في هذا الأمر؛ فهو -كما قال لي نصًّا- لا يثق من الناحية الطبية سوى بعدد محدود جدًّا من الأطباء، وأننا واحد من أهمهم! كانت الخطة تقوم على أن يصاحب سيارات الإسعاف التي ستنفذ المهمة ضابط من القوة العربية المشتركة، وطبيب تابع لاتحاد الأطباء العرب، وسائقو السيارات سينتدبهم الجانب الأردني. أخبروني أن العمل سيبدأ فجر الغد مباشرة، وطلبوا مني أن أتواصل مع قيادة القوات لمعرفة ساعة

الانطـلاق، وترتيبـات الرحلـة، ومـن جديـد قابَلـتُ طـارق شرف مـرَّةً أخـرى، وتعرَّفـت إلى قائـده اللـواء سـمير؛ إذ كانـا -ومعهـما ضابطـان تونسـيان أو ثلاثـة- هـما المسـؤولان عـن مرافقـة رحـلات العـلاج تلـك...

بـدأت القوافـل عملهـا بالفعـل، كانـت القافلـة تتكـوَّن مـن عـدَّة سـيارات إسـعاف، عددهـا مـن عـشر سـيارات إلى عشريـن سـيارة، وفي مُقدِّمَتهـا سـيارة القيـادة العربيـة المشـتركة، حيـث يوجـد الضابـط طـارق أو اللـواء سـمير، أو الآخـرون، وأنـا معهـم، وكنـا ننطلـق مـن منطقـة الأشرفيـة بعـد الثانيـة فجـرًا، يوميًّـا، أو يومًـا بعـد يـوم، حسـب القـدرة عـلى تجهيـز الجرحـى الذيـن ننقلهـم، وأعدادهـم كبـيرة (لم يتسـنَّ لي الحصـول عـلى إحصـاء رسـمي بأعدادهـم فقـد كان بعضهـم مـن الجرحـى القدامـى الذيـن يسـتغلون الفرصـة لاسـتكمال علاجهـم في سـوريا)، كـما زاد انتشـارهم في كافـة مستشـفيات عـمَّان -والأردن عمومًـا-، ووجـود أعـداد كبـيرة منهـم في المنـازل مـن صعوبـة عمليـة جمعهـم لنقلهـم لسـوريا.

شحنات سلاح

قمنـا برحلتـين أو ثـلاث، قبـل أن ألاحـظ حـركات غـير طبيعيـة تحـدث هنـاك، بعـد أن ننتهـي مـن تسـليم الجرحـى للجانـب السـوري. كانـت القيـادة الأردنيـة تشـترط أن يقـود سـيارات الإسـعاف سـائقون مـن الجيـش الأردني -كـما ذكـرت- حتـى نصـل إلى منطقـة درعـا، لكـن مـن هنـاك كان يقـود العمـل "أبـو عـلي إيـاد"، حيـث يقـوم بجمعنـا، ومعنـا السـائقون، ويقـوم رجالـه بعمـل مـا يشـبه حفـل السـمر لـن، حيـث تـوزَّع الحلـوى والشـاي عـلى الجميـع، في هذه الأثنـاء تكون السـيارات مصفوفـةً بجانب المخيَّـم، في انتظـار أن ننـال قسـطًا مـن الراحـة حتـى نبـدأ رحلـة العـودة، وصـادف أن أصابنـي الأرق ذات ليلـة فخرجـت أتجـوَّل قليـلًا، لاحظـة حركـة غـير طبيعيـة تـدور حـول السـيارات، فانزويـت خلـف خيمـة قريبـة، لأجـد أشـخاصًا يحملـون صناديـق أسـلحة وذخائـر، يقومـون بدسِّـها بالصناديـق الخلفيـة للسـيارات، ويقومـون بإخفائهـا أسـفل الأدوات الطبيـة الخاصـة بالسـيارة! عـدت مـن حيـث أتيـت، دون أن يلاحـظ أحـدٌ وجـودي. في الصبـاح انتحيـت جانبًـا بطـارق، وأخبرتـه بمـا رأيتـه، فطلـب منـي

أن أحتفظ بما رأيته لنفسي، وألّا أخبر أحدًا به، على وعد بأن يشرح لي سر ما شاهدته...

***

فيما بعد، شرح لي طارق شرف أن ما اكتشفته كانت قيادة القوات العربية المشتركة على علم به، ويتم بموافقتها، بل إنه كان يحدث بناء على توجيهات مباشرة من القاهرة؛ لمساعدة الفدائيين في عملياتهم التي يقومون بها ضد الإسرائيليين، كانت هذه السيارات تعود إلى منطقة الأشرفيَّة في عمَّان، التي كانت تخضع تقريبًا -كما هو معروف- للفلسطينيين، وبها يقع مقر السلطة الفلسطينية، كان السائقون يعودون بالسيارات إلى تلك المنطقة، وهناك يتركونها ويعودون إلى منازلهم، ولا يرجعون إلَّا في اليوم التالي، والباقي معروف!

ومضت رحلاتنا متتابعة على مدار أسبوعين تقريبًا، كنَّا نمرُّ بالحواجز الأمنية المنتشرة في كل مكان تقريبًا، إلَّا أن السلطة الأردنية كانت قد وجَّهت بتسهيل حركة سيَّاراتنا خلال الذهاب والعودة في رحلاتنا، مع وجود السائقين التابعين للجيش الأردني أيضًا، وفوق ذلك كان وجود ضُبَّاط من القيادة العربية المشتركة -التي كان يُنظر إليها باحترام كبير- معنا يمثِّل ضمانةً كبيرة... كنا نمرُّ دون أن نخضع للتفتيش، لكن في أحد الأيام أثناء رحلة العودة من درعا بالشام كان الضابط المرافق لنا هو اللواء سمير، مررنا على حاجز من الجيش الأردني، فوجئنا أن أحد الضُّبَّاط المسؤولين عن الحاجز يصرُّ على تفتيش السيارات، وشعرت أنا واللواء سمير بأننا في موقف حرج؛ لأن السيارات كانت محمَّلة بالسلاح والذخيرة بالطبع! وإذا باللواء سمير يصرخ في الضابط الأردني، موجِّهًا له الأمر العسكري بالوقوف "انتباه"، معتمدًا على أنه قائد كبير يُمثِّل القيادة العربية المشتركة، والآخر ضابط صغير، والأكثر من هذا أنه أمره بالاتصال بقائد الجيش، والقصر الملكي على الفور، وأن يتَّصل بوزارة الخارجية الأردنية، والخارجية المصرية، وجامعة الدول العربية...

ظلَّ اللواء سمير يصيح بصوت عالٍ جهوري، قائلًا إن هذه إهانة لكل هذه الجهات! فما كان من الضابط إلَّا أن تراجع واعتذر، ومرَّ الأمر بسلام...

الإجازة، والسّفر في الزّمن!

كنت قد قضيت بعمّان أسابيع طويلة، مررت خلالها بمواقف شديدة الصعوبة، شكّلت عبئًا نفسيًّا كبيرًا عليَّ، ورأيت أنه لا بُدَّ أن أحصل على إجازة؛ من أجل زيارة الأهل في القاهرة، ولكي أريح أعصابي قليلًا...

صارحت محجوب برغبتي، فنقلها للقيادة، التي وافقت على منحي إجازة غير محددة المدَّة، لكنَّ "عرفات" عندما ذهبت للقائه قبل السفر قال لي:

- تعرف أن ثقتي بك مطلقة، ونعرف أنني أعتمد عليك كثيرًا في العمل الطبي، الذي لا يقلُّ أهميَةً بأي حال عن عمل المقاتلين، كما أعرف أنك مررت بمواقف عصيبة، لا يُتَصوَّر أن يقع بها طبيب؛ إلا أنني أطلب منك بصفة شخصية ألّا تتركنا! اذهب لإجازتك، واطمئنَّ على الأهل، لكن عدني أن تعود لمواصلة العمل معنا...

قلت له إنني عازم بكل تأكيد على العودة، وطلبت منه ألّا يقلق من هذا الأمر...

غادرت عمّان من مطارها الدولي، وحطّت طائرتي بالقاهرة... كانت زيارة عاصِفَةً، مليئةً بالانفعالات والعواطف والترحاب من الجميع، خاصّةً من والدتي، وكذلك خطيبتي (وقتها) التي انخرطت في بكاء حارٍّ بمجرَّد رؤيتي، وكل فرد في العائلة عبَّر بطريقته؛ حيث إن غيبتي كانت قد طالت، بالإضافة إلى الأخبار المُرعِبَة التي كانت تصلهم عن الأوضاع في عمّان أثناء وجودي هناك، بخلاف أنهم لم يكونوا يعرفون شيئًا عن مصيري، حتى فوجئوا بي أمامهم! عاد كل أفراد البعثة -الذين سافروا معي، وبعدي حتى- تقريبًا، ما عداي، وفؤاد نيازي (الذي كان يُفضِّل أن يكون معي كلّما استطاع ذلك) ومحمد توفيق، الذي اكتفي بالعمل كاستشاري جراحة بالمستشفى العام بالأشرفية، لكنني لم أستطع معرفة كيف عاد الآخرون إلّا مؤخّرًا، قبل شهور فقط (نهاية عام 2019 تقريبًا!)؛ حيث اتصل بي د. حسين سنبل بعد عودته من انجلترا، واستطاع أن يحصل على تليفوني... وتكرَّر الاتصال بيني وبينه، تبادلنا الذكريات، وتناقشنا كثيرًا فيما حدث، سألته عن بقية الزملاء؛ إذ كان على صِلة بمعظم أطباء الاتحاد الذين كانوا معنا بالأردن، ففوجئت أنه لم يَبقَ حيًّا سواه، وأنا! رحل الباقون جميعًا، ولم يكن من بينهم

مـن مـات بشـكل غـير طبيعـي؛ رحـل الجميـع في هـدوء، بعـد كل مـا مررنـا بـه!
سـألت حسـين عـمًا وقـع لـه في أيلـول 1970؛ إذ كان عملـه في إربـد، ولم أكـن قـد اطَّلعـت عـلى الظـروف التـي مـرُّوا بهـا هنـاك مـن قبـل، فقـال إنـه جـاء إلى عـمان بنـاء عـلى اسـتدعاء القيـادة، وحجـزوا لـه في فنـدق عـمَّان الـذي كان موقعـه أمـام السـفارة المصريـة، وكان الفنـدق مزدحـمًا في بدايـة وصولـه بالمراسـلين الأجانـب وأعضـاء البعثات الأجنبيـة؛ اسـتعدادًا لترحيلهـم، قـال لي إنـه عايـن الخـراب الـذي حَـلَّ بعـمَّان وقتهـا، الـذي كان يـزداد كلَّ يـوم، ولم يكـن يسـتطيع الحركـة في الشـارع لأبعـد مـن مبنـى السـفارة، وبصعوبـة بالغـة، كانـت المبـاني تتهـدَّم يوميًـا مـن القصـف العشـوائي، وقـد أصيـب فندقـه نفسـه ببعـض الشـظايا. كان متشـكِّكًا في قدرتـه عـلى الخـروج سـليمًا مـن هـذا الجحيـم، حتـى تعـرَّف عـلى مجموعـة مـن العاملـين في الصليـب الأحمـر، كانـوا قـد أتـوا بطائـرة خاصَّـة لإجـلاء بعـض العاملـين بالصليـب الأحمـر، فطلـب منهـم أن يصطحبـوه معهـم، ووافقـوا، وبالفعـل سـافر معهـم إلى بـيروت، لم يحمـل معـه أي شيء مـن متعلِّقاتـه الشـخصية، سـافر معهـم بملابسـه التـي يرتديهـا فقـط! فقـد كان قـرار المغـادرة مفاجئًـا، لم يمهلـه الوقـت لجمـع أشـيائه مـن الفنـدق، ومـن بـيروت اسـتطاع السـفر إلى لنـدن، حيـث التحـق بالعمـل في إحـدى المستشـفيات التـي كان يراسـلها مـن قبـل. قـال لي أيضًـا إن الجميـع هنـاك كانـوا يسـألونه عـن عـمَّان، وكان رَدُّه الدائـم: "انتهـت عـمَّان"!

لكنـه أخـبرني أنـه لا يعلـم كيـف تـصرَّف زُمـلاؤه الآخـرون الـين كانـوا معـه بإربـد لـكي يعـودوا إلى القاهـرة.

إلى أحراش جرش

قضيـت بالقاهـرة حـوالي أسـبوعين، عُـدت بعدهـا إلى عـمَّان؛ تنفيـذًا لوعـدي الـذي قطعتـه عـلى نفسـي للشـباب والمسـؤولين، رغـم الضغـوط العائليـة الهائلـة الي مورسـت عـليَّ لـكي أبقـى بالقاهـرة، وعلمـتُ بعـد عـودتي أن الاتفـاق بـين الفدائيـين والحكومـة الأردنيـة كان ينـصُّ عـلى عـدم وجـود فدائيـين في الجنـوب أو في عـمَّان؛ تنفيـذًا لقـرار القمَّـة العربيـة، وأن تتمركـز القيـادة في منطقـة أحـراش جـرش، في قريـة دبِّـين وعجلون، إلى جـوار مخيَّـم غـزَّة للَّاجئـين الفلسـطينيين، وأن يتركَّـز العمـل الفـدائي في منطقـة

أحـراش جـرش، وذهبـت إلى هنـاك، حيـث التقيـت بأفـراد في القيـادة، ألحقـوني بالعمـل في مستشـفى "المغـارة"!

ولمستشـفى المغـارة ذلـك حكايـة عجيبـة، حيـث كانـت المنطقـة شـبه صحراويـة، بـلا خدمـات، ولا تتوفَّـر بهـا الإمكانيـات اللازمـة لإقامـة مستشـفى، فقـام الشـباب في منطقـة القيـادة (دبِّـين) بنحـت حُفَـرٍ بالجبـل بجـوار منطقـة قائـد القطـاع "أبـو جهـاد" (خليـل الوزيـر)، كانـت عبـارة عـن عـدَّة غـرف (أربـع غـرف إلى اليمـين ومثلهـا إلى اليسـار، وبينهـا ممـر ضيِّـق)، كان السَّـقفُ منخفضًـا بشـكل واضـح، وهـو غـير ممهَّـد أيضًـا، وتسـقط منـه صخـور صغـيرة، وحبَّـات الرمـال، حتـى في الغرفـة التـي خصَّصوهـا للعمليـات، كانـت التجهيـزات بهـذه الغرفـة ضعيفـةً للغايـة، حيـث كانـت تضـمُّ حوضًـا وصنبـورًا مُتَّصِـلًا بخـزَّان فـوق المغـارة، وكانـت الغرفـة مُـزوَّدة بترابيـزة عمليَّـات ولمبـة عمليَّـات مُثبَّتـة بالسـقف، ولكـن لم يكـن هنـاك جهـاز تخديـر، كـما أن المعمـل الموجـود كان بدائيًـا، لا يصلـح سـوى لعمـل تحليـل صـورة الـدم لا غـير (كُنَّـا في العـادة نتحصَّـل عـلى التجهيـزات الطبيـة التـي نحتاجهـا بسـهولةٍ عـن طريـق تبرُّعـات الفلسـطينيين بالخـارج)، وكان واضِحًـا مـن تصميـم هـذا المستشـفى البـدائيِّ أن الإمكانيـات صـارت ضعيفـة جـدًّا.

***

كان عمـل الأطبـاء الفلسـطينيِّين المشـاركين في مسـاندة العمـل الفـدائي محـدودًا للغايـة، وأظـنُّ أنـه كان يتـمُّ التعاقُـدُ مـع معظمهـم بسـبب كونهـم فلسـطينيين فقـط؛ إذ لم يكـن مـن بينهـم أخصَّائيُّـو جراحـة مـن الأسـاس، وهـي الفئـة التـي كان يتطلَّبهـا العمـل الميـداني، ونظـرًا لقلَّـة عددهـم في العمـوم فقـد كان توزيعهـم يتـمُّ حسـبَ طَلَبِهـم، وفي الغالـب كانـوا يُعيَّنـون رؤسـاء للمواقـع.

كان الطبيـب الـذي يـرأس الموقـع الـذي يضـمُّ مستشـفى المغـارة صغـير السـنِّ، اسـمه سـميح (فلسـطينيٌّ طبعًـا)، كان مُهذَّبًـا جـدًّا في التَّعامُـل معـي، فلـم يتدخَّـل في عمـلي في أي يـوم، كان يرتـدي الملابـس المدنيَّـة دائمًـا، ويحـضر كُلَّ بضعـة أيَّـام ليطمـئنَّ إذا كان ينقصنـا شيءٌ، كان معروفًـا -دون الحاجـة لسـؤال- أن مشـكلتنا الكـبرى تكمـن في النقـص الشـديد في أعـداد أطبـاء التخديـر، حيـث وصـل الأمـر بنـا إلى أنـه لم يكـن متواجـدًا بالمنطقـة طبيـب تخديـر واحـد، أو حتـى طبيـب يمكنـه المسـاعدة في

العمليات والتخدير، وكان من الممكن أن يكون سميح نفسه هذا الطبيب؛ فهو صغير السن وحديث التَّخرُّج، ويمكن تطويعه للعمل في هذا المجال، ففكَّرت في أن أطلب منه ذلك، لكنني تراجعت لأنني رجَّحت أنه سيرفض؛ فهو مسؤول القطاع الطبي! كنت أتعامل معه كأنه مندوب الهلال الأحمر الفلسطيني إلينا، الفارق فقط أنه كان أكثر تهذيبًا! كان ينصت لطلباتنا باهتمام، لكنها لم تكن تُجاب...

بالمناسبة، وفيما يتعلَّق بأحوال الاتحاد بعد إقصاء الفدائيين لهذه المنطقة النائية، البعيدة عن عمَّان: لم يستمرَّ بعدها في العمل بعمَّان -في البعثة الطبية التابعة لاتحاد الأطباء العرب- مع الدكتور توفيق غير الدكتور فؤاد، وكان فؤاد -في تقسيم العمل- قد كُلِّف بعمل محمد المشد في قواعد الجبهة الشعبية، لكنه كان يؤدِّي عملًا طبيًّا بحتًا؛ بخلاف محمد المشد، فكان يتجوَّل في أماكن مختلفة من الجبهة، وفي المُخيَّمات؛ ليفحص المرضى ويصف لهم الدواء، وكان -خلال تجواله على العيادات الطبية- يزورني أحيانًا في دِبِّين عندما يمرُّ بسيارته، فيجلس معي ساعة أو ساعتين، ثم يذهب...

وعندما كنت أحصل على إجازات (كانت غير منتظمة، إذا حدث وسمحت الظروف، ونِلتُ إجازة؛ تكون كل أسبوعين تقريبًا. كانت أمرًا نادرًا على كل حال!) كنت أذهب إلى عمَّان، فألتقي فؤاد والدكتور توفيق، وكان الدكتور توفيق يصطحبني في السيارة، ونذهب إلى بيت فائزة، حيث كُنَّا نجلس في غرفتها بِسَكَن المُمرِّضات، وكانت تُعِدُّ لنا الولائم، وفي بعض الأمسيات كانت فائزة وأخصَّائيَّة العلاج الطبيعي (صديقة محمد توفيق) تحضران إلى مقر الاتحاد...

أغزل في مستشفى المغارة!

من بين الأشياء التي تعلَّمتها من الحكيم -عندما تكون الظروف صعبة كالتي كنا بها- أنْ أطبِّق المَثَل المصريَّ الشائع: "الشاطرة تغزل برجل حمار"، كان يقول لي دومًا إن من أهم الأشياء في مثل هذه الظروف ألَّا يصدر عنِّي أيُّ تصرُّفٍ ينمُّ عن التعالي على الشباب، وأن آكُلَ ممَّا يأكلون، وأنام في نفس الأماكن التي ينامون بها؛ نصائح عمل بها طوال وجودي بالأردن بالفعل، ولم يكن هناك أقسى ممَّا كنت به -كجرَّاح- مطلوب منه أن يمارس عمله على أكفأ وجه، وبأقل الإمكانيات،

أو ربما في ظل عدم وجودها بالأساس! طبَّقت المثل بحذافيره؛ فلم يكن هناك طبيب تخدير ليساعدني في عملي، وحتى إن وُجِدَ فلم يكن وجوده ليمثِّل فارقًا كبيرًا؛ حيث لم نكن نمتلك جهاز تخديرٍ أصلًا، وكان من ضمن الطلبات التي ألحُّ عليها في كل مرة يأتي فيها سميح ليتابع سير العمل معنا، وأخيرًا أحضروا واحدًا لي، كان جهاز تخدير صينيٌّ، اسمه "إيمو"، وهو جهاز صغير، أكثر من بدائيٌّ، كان عبارةً عن قارورتَيْن على كل واحدة منهما مُؤشِّر؛ للتَّحكُّم في كمية خروج الدواء من القارورة، إحدى القارورتين تُملَأ بالأثير، وهو مادة مُخدِّرَة قديمة لا أعتقد أنها تصلح حتى في الطب البيطري! والناحية الأخرى فارغة لإدخال الأوكسچين، ويتحرك المؤشر لزيادة الأثير وتقليل الأوكسچين، أو العكس، وبما أنه لم يكن لدينا اسطوانات أوكسچين فإن التعليمات بكُتيِّب الجهاز كانت تنصح باستخدام الهواء العادي، حيث به الأوكسچين المطلوب في حالة الطوارئ، وكنا في حالة طوارئ طوال الوقت، الغريب أنهم أرسلوا من الهلال الأحمر الفلسطيني عددًا كبيرًا جدًّا من هذا الجهاز -فوق المائة جهاز- كما لو كان يُستَخدَم لِمرَّةٍ واحدة! كنَّا نحتاج جهازًا واحدًا حتى، بشرط أن يصلح للاستخدام الآدمي، وأن يكون صالحًا للعمل! هذه كانت مشكلتي الكبرى بالفعل، لكن على صعيد آخر، كانت بقية التجهيزات الطبية والأدوية متوافرة بكثرة... مشكلتي الأخرى كانت تتعلَّق بطاقم التمريض، كانت العادة أن يأتوا بممرِّضات من دول عربية مختلفة، ولم يكونوا يدقِّقون في الاختيار، وكانوا يكتفون بأية أوراق ثبوتية تحملها الممرضة منهنَّ، تلك الأوراق التي كانت -في الغالب- مزوَّرة، أو على الأقل حدث بخانة الوظيفة بها تعديل جوهري؛ فحوَّل صاحبتها من "عاملة بمستشفى" إلى "ممرِّضة بمستشفى"! وكانت النتيجة أن التحق بالعامل معنا كثيرات منهنَّ لم يكنَّ في الأصل ممرِّضات! وجدت صعوبة بالغة في في تعليم الممرضة "المزعومة"، لدرجة أنني رأيت أنه من الأسهل أن أدرِّب أحد الشباب على أعمال التمريض، وتشغيل جهاز "الإيمو" ذلك، ولم يتطلَّب الأمر مني نفس العناء الذي بذلته مع تلك الممرِّضة، على الرغم من أن الشاب لم تكن له أي صِلَةٍ بالأعمال الطبية!

ولحسن الحظ كنت قد توصَّلت إلى حلٍّ للمعضلتين -وإن لم يكن حلًّا شاملًا بالطبع- وهو أنني درَّبتُ نفسي على تركيب أنبوب التخدير الحنجري، وإن مثَّل

غيـاب مـادَّة "الفلاكسـديل" -التـي تُرخـي عضـلات الأحبـال الصوتيـة بالحنجـرة- مشـكلة، جعلـت عمليـة إدخـال الأنبـوب صعبـةً للغايـة، ولكـن بـالإصرار كنـت أُكمِـل.

العملية الأولى بالمغارة

مضـت أيـام حتـى أرسـلوا لي ممرِّضـة غرفـة عمليـات عراقيـة، شـجعني هـذا عـلى البـدء في إجـراء بعـض العمليـات الجراحيـة العاجلـة، التـي كانـت حالـة بعـض الجرحـى تسـتدعي إجراءهـا بشـكل عاجـل، لكـن تبـيَّن لي بعـد مناقشـة سريعـة مـع تلـك الممرضـة أنهـا كانـت تعمـل بالفعـل في غرفـة عمليـات بمستشـفى بالعـراق، لكـنَّ عملهـا كان ينحـصر في تنظيـف الغرفـة! ومـع ذلـك وجدتهـا ملمَّـة ببعـض المعلومـات المطلـوب توافرهـا في مسـاعدي العمليـات؛ فشـجَّعني هـذا، مـع وجـود الشـاب الـذي علَّمتـه العمـل عـلى جهـاز الإيمـو، وقـرَّرت البـدء في التحضـير لإجـراء أولى عمليـات مستشـفى المغـارة، كانـت الخطـوات تسـير كالتـالي: أولًا اختيـار الحالـة التـي سـتخضع للعمليـة، وكان الاختيـار قائمًـا عـلى مـدى وضـع الحالـة، وكذلـك عـلى قدرتهـا عـلى تحمُّـل هـذه الأوضـاع الصعبـة أيضًـا، وكان المريـض الأول واحـدًا مـن قياديِّـي الفدائيين، ولم يمكـن بالإمـكان إدخالـه مستشـفى حكوميًّـا؛ فقـد كان مـن بـين المطلوبـين للسـلطة الأردنيـة، وبالتـالي كان إمَّـا أن نتمكـن مـن علاجـه عندنـا، أو أنـه سـوف يواجـه المـوت، كان هـذا القيـادي قـد انفجـر فيـه لغـم أدَّى إلى كـسر في عظمـة الفخـذ والحـوض، وتَهتُّـكٍ بالأمعـاء والكبـد والمثانـة البوليـة!

بـدأت بتجهيـز كل شيء بنفـسي، مـن الإبـر والخيـوط، والآلات، وحتـى "الفـوط"؛ حيـث اعتـبرت أننـي أعمـل بمفـردي في هـذه الحالـة. كانـت مشـكلتي الكـبرى في التعقيـم، حيـث كانـت الميـاه التـي يأتينـا بهـا الصنبـور الموجـود بغرفـة العمليـات مـن الخـزان كانـت ملوَّثـةً، وكُنَّـا نسـتعيض عـن التعقيـم بالمـاء بمحاليـل، و"چل" تعقيـم، يرسـلها الشـباب الفلسـطينيون في الخـارج وكنـت أطلـب مـن فَنِّـي التخديـر زيـادة جرعـة الأثـير عندمـا أجـد تصلُّبًـا في عضـلات المريـض، وإذا بـدأ لـون المريـض يميـل للزُّرقَـة كنـتُ أطلـب زيـادة جرعـة الأكسـجين أو الهـواء!

فيـما بعـد، عندمـا كان يحـدث قصـف وأنـا أُجـري عمليَّـةً، فـإن حبَّـاتٍ مـن الرِّمـال والأتربـة كانـت تسـقط في بطـن المريـض! وكان الحَـلُّ المتـاح هـو أن أفـرغ حـوالي

عشريـن زجاجـة مضـادٍّ حيـويٍّ ومُطهِّـر في بطـن المريـض في نهايـة الجراحـة، وكانـت هـذه الأدويـة متاحـة بكمِّيـاتٍ كبـيرة!

بالطبـع لم يكـن كلُّ هـذا يَمُـتُّ للعمـل العلمـي والجراحـي بـأي صِلَـة، ولكنـه المتـاح في ذلـك الوقـت، لكـن العمليـة نجحـت، بعـد أن أجريتهـا وحـدي تقريبًـا، لم يكـن معـي إلَّا شـاب "الإيمـو"، والممرِّضـة العراقيـة "المفترضـة"، وشـابٌّ آخـر اسـتخدمته كمسـاعد لي أثنـاء العمليـة، ونبهـت عليـه ألَّا يحـكَّ أنفـه أبـدًا!

مـن طرائـف تلـك الممرِّضـة العراقيـة أننـي كنـت كلَّـما سـألتها عـن مـكان شيء مـا، تجيبنـي قائلـةً: "خَبِّيتـه"، كُنـتُ أصرخ فيهـا: "لمـاذا التَّخبيـة؟ هـل هنـاك حراميَّـة؟!"، مـع الوقـت تَبـيَّن لي أنهـا تقصـد بكلمـة "خبِّيتـه" أنهـا وضعتـه في المـكان المناسـب، وحتـى الآن لا أعـرف إذا كانـت الكلمـة يسـتخدمها العراقيُّـون أم أنهـا لُغـةٌ خاصَّـةٌ بهـا!

اسـتغرقت هـذه العمليـة وقتًـا طويـلًا، خرجـت بعـده متعبًـا جـدًّا جسـمانيًّا، وإن كان الأشـد منـه هـو التعـب والتوتُّـر النفـسي، وكانـت المشـكلة الرئيسـية بعـد العمليـة هـي حالـة الأنيميـا الحـادَّة التـي كان عليهـا المريـض، كانـت نسـبة الهيموجلوبـين بدمـه مـا بـين 6 إلى 7، وهـي نسـبة خطـيرة، مـع عـدم توفُّـر الـدم لننقلـه لـه (كان مـن الممكـن أن أتـبرَّع لـه، لكـنَّ محاليـل التَّوافُـق لم تَكُـن مُتاحـة).

وفيـما بعـد، تحـدَّث الأشـخاص الذيـن اطَّلعـوا عـلى حالـة المريـض عنـد إصابتـه، وأثنـاء نقلـه للمغـارة عـن الطبيـب المعجـزة، الـذي يقـوم بإجـراء العمليـات الجراحيـة بأقـل الإمكانيَّـات! وصـارت هـذه المغامـرة الطبيـة -التـي تكلَّلَـت بنجـاحٍ لم أكـن أتوقَّعـه في ظـلِّ الأوضـاع البدائيـة- سـببًا في زيـادة عمـق العلاقـة الطَّيِّبـة مـع الشـباب، وبـدؤوا يتداولـون حكايـاتٍ كثـيرةً عـن إنجـازات، أكثرهـا مبالغـات،

وكانـوا يحاولـون تكريمـي والاحتفـاء بي مـا اسـتطاعوا، حتـى إن أحدهـم فاجـأني ذات يـومٍ بأغـرب هديـة تلقَّيتهـا في حيـاتي، حيـث جـاءني حامِـلًا ثعبانًـا كبـيرًا ملفوفًـا حـول ذراعـه، وهـو يمسـك برأسـه.

- هادا يا حكيم هدية لك.
- أعمل به إيه! ابعد عني يا راجل!

- ما تخافش.. أنا خلعت أسنانه. مسكته من عند راسه، وحطِّيت خرقة قماش في فمه. عَضّ عليها. ورحت خالع له سنانه.
- وأنا أعمل بيه إيه ده؟ واحطُّه فين؟
- والله يا حكيم هادا الشي اللي قدرت أجيبه لك. ما عرفت أجيب لك إيشي تاني!

شعرت بالامتنان منه، وتعاطفت معه، وطَيَّبتُ خاطِره، وقلت:

- التِّعبان ده مشكلة أكتر منه هدية...

فأخذه وانصرف!

ما علمته فيما بعد، أن مثل هذه الجراحة كانت تُشجِّع الشباب على الاشتراك في العمليات العسكرية، فما دام الحكيم متواجِدًا بالمستشفى فإنهم لا يخشون من الإصابة! هكذا أبلغني "أبو جهاد" نفسه، القائد الميداني للقطاع، والرجل الثاني في حركة فتح بعد "أبو عمار"... حتى أن أحد الشباب انفجر فيه لَغمٌ، وبُتِرت ساقُه من مُنتَصَفِها، وبعد أن قام زملاؤه بإيقاف النزيف بالأربطة أحضروه للمستشفى وهو يحمل بنفسه -وهو على الترولِّلي- قدمه المبتورة، قال لي: "يا حكيم.. ممكن تِرَجِّعها في مكانها؟"! لمَّا شرحتُ له استحالة ذلك سألني عمَّا سأفعل بها، فأبلغته بأننا في مثل هذه الحالات نقمم بدفنها، فقال لي -وكان خفيف الدم-:

- يا حكيم.. دير بالك على البوستار (الحذاء العسكري)... ما تِدْفِنُه.. هذا عُهدَة!

عجلون:

سمعتُ كثيراً عن عجلون القريبة من دبِّين، كان يقود العمل فيها "أبو علي إياد"، الذي اشتهر بين القيادات بالإخلاص والجدِّيَّة، مع القسوة الشديدة... وعجلون -بشبابها وقياداتها- تتبع القيادةَ الرئيسية في دبِّين... كان السجن المركزي لفتح في دبِّين، يشغل أحد المباني القديمة القريبة منَّا في منطقة القيادة، كان المسؤول عن السجن هو "أبو علي" نفسه، وكان متواجِدًا طوال الوقت في عجلون،

لكنَّـه يَمـرُّ عـلى السـجن أسـبوعيًّا، في يـوم الخميـس صباحًـا، ويُراجِـعُ كشـوفَ السُّـجناء، وتُهمَـةَ كُلٍّ منهـم، ثـم يسـتدعيه ويتناقـش معـه في أقـل مـن خمـس دقائـق، ثـم يُصـدِرُ قـرارَه الـذي يُنفَّـذ عـلى الفـور، في الغالـب كانـت قراراتـه لا تخـرج عـن واحـد مـن اثنـين لا ثالِـثَ لهـما: إمَّـا الـبراءة، أو الإعـدام! ويبـدو أن طبيعـة المـكان، والظـروف المحيطـة كانـت تُحتِّـم هـذا التَّـصرُّف، وقـد حـضرت واحـدة مـن جلسـات المُحاكَمَـة هـذه ذات يـوم، ولم أكـرِّر التجربـة أبـدًا بعـد ذلـك؛ فقـد كان يُنفِّـذ الحُكـمَ فـورًا، فـإذا كان بالـبراءة فإنـه يأمُـرُ بِحَـلِّ وثـاق المتَّهـم، ويَصرِفُـه عـلى الفـور، أمَّـا إذا كان مُدانًـا فإنـه كان يُنفِّـذ الحُكـمَ بِمُسدَّسـه: طلقـةٌ واحِـدةٌ... في منتصـف الجبهـة!

كنـت قـد بـدأت أتـردَّد عـلى عجلـون بعـد أن مـرَّ عـليٌّ الحكيـم ذات يـوم في دبِّـين، وطلـب منِّـي الذهـاب لعجلـون في اليـوم التـالي، حيـث إن "أبـو عـلي إيـاد" يشـكو مـن الأطبَّـاء الذيـن يذهبـون للعمـل بعجلـون، كانـوا -باختصـارٍ- يتصرَّفـون كـما "البَهَـوات"، عـلى حـدِّ تعبـير محجـوب، وقـد طلـب "أبـو عـلي إيـاد" في البدايـة أن يقـوم محجـوب نفسـه بتلـك المهـام الطبيَّـة في عجلـون (وكانـت القاعـدة دائمًـا أن تُجـاب كافَّـة طلباتـه؛ باعتبارهـا أوامـرَ) إلا أنَّ "أبـو جهـاد" اعـترض عـلى ذلـك الأمـر (وكان الوحيـد الـذي يمكـن أن يعـترض عـلى الرجـل الثـاني في المقاومـة) بحجَّـة أنـه يـرى في محجـوب القـدرة عـلى أن يكـون قائـدًا لقاعـدة في غـور الأردن، قيـادةً عسـكريَّةً وسياسـيَّة... ولمَّـا لاحـظ محجـوب غضـب "أبـو عـلي إيـاد" اقـترح أن يرشِّـح لـه طبيبًـا آخـر، بضمانَـةٍ شـخصيَّةٍ منـه، ورغـم عـدم اقتنـاع "أبـو عـلي" إلَّا أنـه وافـق في الأخـير، وكان أن رشَّـحني لـه محجـوب للقيـام بهـذه المَهمَّـة فسـألته إن كان "أبـو جهـاد" يعلـم ويوافـق عـلى هـذه الخطـوة، فأجابنـي بأنـه أطلعـه عـلى الأمـر؛ فاشـترط فقـط ألَّا يزيـد غيـابي عـن دبِّـين أكـثرَ مـن أسـبوع، أُجـري فيهـا عـدَّة عمليـات عاجلـة لمـرضى في وضـع حـرج في عجلـون، وأتابـع حركـة العمـل بالمستشـفى هنـاك.

حمار الحكيم!

ربَّمـا أكـون قـد سردتُ بعـض التفاصيـل عـن حيـاة محجـوب عمـر؛ رفيـق العمـر، الـذي تعلَّمـت منـه الكثـير، لكننـي لم أعـرِّج عـلى تفصيلـة يراهـا البعـض مضحكـةً في طريقـة تفكـيره؛ إذ كانـت لـه بعـض الآراء الغريبـة في أمـور مختلفـة، مـن بينهـا

-وأراها فلسفة خاصَّة به- أنه كان يقدِّس الحمار! يعدِّد مزاياه، التي تصل عنده لأكثر من عشرين مزيَّة، ويتحدث عن ذلك الحيوان المسكين بكثير من التقدير والاحترام دائمًا، أكتب هذا الآن وأنا أضحك، خاصَّة أننا كنَّا دائمًا نتغامز حينما يبدأ الحكيم في ذكر محاسن الحمير، تلك المحاسن التي تجلَّت، وتحقَّقتُ من بعضها على أرض الواقع عند انتقالي لعجلون، التي توجَّهت إلى مبنى القيادة بها عند وصولي مباشرة، وقابلت "أبو علي" (الذي فوجئت أنه رحَّب بي ببرود!)، وسألني إذا كان يجب استدعاء المرضى للعيادة، التي كانت على بُعدِ أمتارٍ من القيادة، فشكرتُه، وقلتُ له لا أريد استدعاءَ المرضى؛ لأنني أنا الذي سوف أذهب إليهم، اندهش الرجل، وظهرت عليه علامات التعجُّب، وسألني: "كيف؟ المرضى في قواعد مُتعدِّدة، ليسوا في مكانٍ واحد!"، فقلت له: "سوف أمرُّ على كُلِّ القواعد"؛ فازدادت علاماتُ تعجُّبه، قال: "كيف ستصل للقواعد؟ سيَّارة الإسعاف لا تَصلُ إلى أماكنهم..."، فقلت له: "وكيف يتحرَّك الشَّباب؟"، فقال: "على ظهور الحمير"!، قلتُ: سأفعل نفسَ الشيء، وما عليك سوى تدبير الحَمير اللَّازِمَة لنا، وأدويتِنا، ومُرافِقٍ يَدُلُّنا إلى القواعد"... وكان لي ما طلبت، وبدأنا العمل.

لاحظتُ أنَّ الأرض المُقام عليها القواعد غير مستوية، والمنطقة بأسْرِها شديدة الخُضرة مُقارَنةً بدِبِّين. كنتُ أجد ترحيبًا من الشَّباب عندما أَمُرُّ عليهم، أسألهم دائمًا "إذا حدا مريض أو يشكو من أي شيء؟"، وأصرف لهم الأدويةَ، وأشرب الشاي معهم، وإذا حَلَّ موعد الغَداء تغدَّيتُ معهم، وعندما يَحِلُّ الظلام عليَّ وأنا أمرُّ على القواعد، كنت أبيت في آخر قاعدة أَصِلُ إليها. وفي أحد الأيام قرَّرتُ المبيتَ في إحدى القواعد، هلَّل الشباب عندما عَلِموا أنني سأبيت معهم، سَهِرنا معًا معظم الليل، وقالوا: "هنحضَّر لك مبيت جميل يا حكيم"... وكنت أعرف أنه ليس هناك غير المغارات المحفورة في الجبل للمَبيت!

- يا جماعة مش مشكلة بالنسبة لي المبيت في أي مكان.

- والله يا حكيم جَهِّزناها لك، وحَطِّينا فيها فرشاية وغطا، وكل إشي.

- شكرًا... بس انتو مأكِّدين إنِّي مش واخد مكان حد؟

- لا والله... هادي ما استعملها حَدَا.

وفعلًا، لمَّا دخلت -بالفانوس- وجدتُ جدران المَغارَة منحوتةً حديثًا، وكان واضحًا أن أحدًا لم يَبِتْ فيها من قبل.

صريرُ الحشرات بالداخل كان عاليًا لدرجة أنني أحسستُ أن هناك جيوشًا منها! قالوا إنه صوت الصَّراصير التي تَفرُّ من المغارات بشكل لقائي بمجرد أن تصبح مسكونةً، وهي صراصير جبلية تعيش في هذه المنطقة بكثرة...

- بس دي كتير يا جماعة!

- لا تخاف يا حكيم... تخاف من الصُّرصار؟!

- الحقيقة أنا باقرف من الصراصير جدًّا.

رضختُ للأمر، وحاولتُ أن أتجاهل تلك الأصوات الكريهة، لكن بعد فترة سمعتُ فحيحَ أفعى. خرجت إلى الشباب الواقفين للحراسة الليلية لأنبِّههم، وأسألهم عن الصوت الذي سمعته، قالوا:

- لا تخاف يا حكيم... هادي الحية نتايَة ما هي دكر.. التِّعبان جوزها مَوِّتناه اليوم في الصباح...

- ما هي عاوزة تنتقم لجوزها من اللي قتلوه!

وصاروا يتضاحكون ويقولون: يا حكيم ما تخاف.. هادا نوع من الأفاعي كتير موجود في الناحية.. إحنا عارفينه.. الدَّكَر هو اللي مسمَّم ويعض، والحيَّة ما بتعمل شي غير إنَّها تفِحّ.

كانت ليلة عجيبة، تعزف فيها أوركسترا الصراصير والأفاعي، وطبعًا لم يَخلُ المكان من العقارب، لكنِّي جَهَّزتُ نفسي جيدًا بحقيبة النوم التي دخلت فيها،

والفوطـة المبلولـة التـي وضعتهـا عـلى رقبتـي ورأسي، كـما كنـت أفعـل في المناطِـق الأخـرى المشـابهة.

لم يكـن يظهـر مـن جسـمي خـارج حقيبـة النـوم غـير رأسي، والفوطـة المبلولـة عليـه. وفي الصبـاح كنـت أخـرج مـن حقيبـة النـوم، دون لمـس أي جـزء منهـا، ثـم أُمسِـكُ بهـا مـن أطرافهـا، وأحملهـا خـارج المغـارة بعيـدًا، ثـم أنفضهـا؛ لـكي تتسـاقط العقـارب مـن سـطحها إذا كانـت موجـودةً، تعلّمـتُ هـذا مـن الشـباب، وكانـوا جميعًـا يفعلـون ذلك.

كنـتُ -بعـد محنـة المغـارة الجديـدة- عندمـا أبيـت في إحـدى القواعـد، أسـتحلفهم ألّا تكـون المغـارة التـي أبيـت فيهـا جديـدة، ويومًـا وصلـت إلى إحـدى القواعـد مسـاء، وبعـد أن قمـت بعمـلي الطبـي المعتـاد طلبـتُ منهـم أن أبيـت معهـم الليلـة، ورَجَوتُهم ألّا تكـون المغـارة جديـدة، أدخلـوني في إحـدى المغـارات القديمـة:

- هادي المغارة فيها الخزين وما فيها غير فيران!

نِمتُ يومَها وأنا ألبس الحذاء "البوت"؛ لكي أتجنَّب أن تعضَّ الفئران أصابعي.

ظلَّـت الفـئران تتقافـز حـولي، لكـنَّ الإجهـاد كان سَـيِّدَ الموقـف؛ فنِمـتُ ولم أشـعر بـشيء حتـى الصبـاح.

في يـوم آخـر كنـتُ قـد اقتربـت في تجـوالي أكـثر وأكـثر مـن منطقـة الغَـور عـلى شـاطئ نهـر الأردن، وكانـت القاعـدة الأخـيرة التـي انتهيـت إليهـا في العـراء تقريبًـا، داخـل حـرش مـن الأشـجار الكثيفـه جـدًّا، كان مَقـرُّ الشـباب هنـاك في مغـارة ضيِّقـة، حتـى إنهـم كانـوا ينامـون خارجهـا، والجـو -في هـذه المنطقـة- أحسـن منـه في المناطـق الأخـرى؛ فنِمـتُ معهـم بالعـراء، خـارج المغـارة، دخلـت منامتـي، ونمـت، يومَهـا كان صـوت صراصـير الشـجر يمـلأ الأجـواء، وكانـت الطيـور تلقـي بفضلاتهـا علينـا بغـزارةٍ، غـير أن هـذا لم يكـن أكـبرَ همِّـي!

- كيف أقضي حاجتي؟
- وراء التَّلِّ!
- وكيف أُنظِّف نفسي؟
- بقطعة حجر...

الماء الذي كان يُوفِّرُه الشبابُ لم يكن إلَّا للشُّرب فقط!

عـادةً كان الشـباب يبقـون في قواعدهـم أسـبوعين أو أكثر، ثـم يذهبـون -بالتَّبـادُل- في إجـازة ليومَـيْن، بحسـب بُعدِ المـكان، وهـذا هـو الوقـت الـذي يسـتطيع الفـرد فيـه أن يسـتحمَّ ويغسـل ملابسـه.

لم يكـن مَنطقيًّـا أن تنتهـي هـذه الجولـة قبـل أن أقـوم بزيـارة الحكيـم في قاعدتـه التـي أقامهـا في الغـور، احتفـى بي بشـدَّة، قـال:

- لمَّا الشباب عرفوا إنك جيت وحتبات معانا، قالوا حنذبح له خروفين...

صفَّقت، وضحكت قائلًا:

- خروفين؟! يا أخي خَلِّيه خروف واحد...

- والله خروفين!

تجوَّلت بنظري فيما حولي:

- فين الخرفان دي يا محجوب؟!

دخل المغارة، وخرج بعلبة بلوبيف عليها صورة رأسَيْ خروفَيْن، وقال:

- أَهُه.. مش دول خروفين؟

ضحكنـا كثيرًا، وكان أحـد الشـباب قـد خبَّـأ في ملابسـه بيضـةً أو بيضتـين، فأضافهـما عـلى البلوبيـف؛ احتفـالًا بي، وأكلـت معهـم رغـم أننـي مُصـابٌ بحساسـية مـن البيـض؛ فقضيـتُ الليلـة أتقيَّـأ، مـع مَغـصٍ وإسـهال، وتأكَّـدت أنَّ ألـذَّ الوجبـات هـي التـي تأكلهـا وأنـت جوعـان، أيًّـا مـا كانـت مُكوِّناتهـا.

***

كنـت قـد قضيـت في عجلـون سِـتَّة أيـامٍ تقريبًـا، وحانـت لحظـة عـودتي إلى موقعـي الأصـلي في دبِّـين، بعـد أن طالـت غيبتـي، لكنهـا لم تكـن قـد جـاوَزَت مـا اتَّفقنـا عليـه، علمـت أن "أبـو عـلي إيـاد" كان دائـم السـؤال عـن عمـلي في منطقتـه، وعَلِـم مـن الشـباب أننـي أثنـاء وجـودي هنـاك كنـت أَمُـرُّ عـلى المـرضى بالقواعـد، وأن الشـباب هنـاك كانـوا سـعداء جـدًّا بذلـك... وقبـل أن أغـادر ذهبـت إليه لـكي أسـتأذنه في العودة

إلى دبين، هـذه المـرَّة وجـدت الرجـل يسـتقبلني وعـلى وجهـه شـبح ابتسـامة، وهـو الـذي لم أره مبتسـمًا مـن قبـل، قـال:

- أنا حاعتقلك هنا!

- ليه؟

- لـولا إن "أبـو جهـاد" مصمِّـم عـلى وجـودك معـاه هنـاك مـا كنـت أسـمح بإنـك تمـضي وتتركنـا... خَلّيـت الشـباب هنـا سـعداء فعـلًا؛ لأنهـم كانـوا محرومـين مـن الخدمـة الطبيـة.. إوعدنـا إنَـك مـا تنسـانا...

- مـا أنسـاك يـا أبو عـلي، ولا الشـباب اللي عايشـين العيشـة الصعبة في المغـارات... وحقُّهـم علينـا... أقـل حـق أن نوفـر لهم الخدمـة الطبيـة في أماكنهم...

وتركـتُ "أبـو عـلي" واعِـدًا إيَّـاه بـأن أعـود مـرَّةً أخـرى... ولم أسـتطع الوفـاء بوعـدي -للأسـف- فقـد حدثـت بعـد ذلـك مذبحـة جـرش، وكانـت أخطـرَ علينـا مـن مذبحـة الأشرفيَّـة، لكنهـا لم تَحـظَ بمـا حَظِيَـت بـه مذبحـة الأشرفيَّـة إعلاميًـا؛ لأنهـا كانـت بعيـدةً عـن عـمَّان!

عودة إلى دبّين

أحيانًـا كانـت تصلنـي خطابـاتٌ مـن الأهـل بالقاهـرة، وهـي تصـل عـمَّان أوَّلًا، ثـم تُنقَـل إليَّ بدبِّـين عـن طريـق المُخيَّـم، في أحـد هـذه الخطابـات أخبرتنـي خطيبتـي أن والدهـا قـد تدهـورت صحتـه، ودخـل المستشـفى ليعالَـج مـن سرطـان الرِّئـة، طَلَبَـت منـي النُّـزولَ لمـصر في أسرع وقـتٍ لأكـون بجوارهـا في مثـل هـذه اللحظـات العصيبـة، في الوقـت الـذي كنـتُ فيـه الجَـرَّاحَ الوحيـدَ في منطقـة أحـراش جـرش. قابلـتُ القائـد "أبـو خليـل الوزيـر" (أبـو جهـاد)، وطلبـتُ منـه أن أُمنـح إجـازة للذَّهـاب إلى القاهـرة، فسـألني بطريقتـه الهادئـة:

- هل أنت في حاجة لأن تريح أعصابك؟

- هناك بعض الواجبات الاجتماعية...

- بهذه الأهمية؟

- هنـاك كثـير مـن الأمـور التـي تسـتدعي أن أكـون بالقاهـرة الآن، لكـن أهمَّهـا أن أحـد أقـاربي في المستشـفى مُصابًـا بسرطـان الصـدر، ولا بُـدَّ أن أقـوم بواجبـاتي تجاهه!

- ما عُمرُه؟

بدا لي سؤالًا غريبًا بعض الشيء، لكني أجبته:

- في الخامسة والسِّتِّين.

ابتسم الرجل ابتسامة هادئة، وقال:

- تِعْـرَف يـا حكيـم.. المـرات اللـي انـت نزلـت فيهـا عـمَّان، كان الشـباب بيرفضـوا يطلعـوا عمليَّـات عسـكرية، وكانـوا مـن قبـل -أثنـاء وجـودك معنـا هنـا- يتنافسـون للذَّهـاب في العمليـات!

- إزَّاي؟

- بيقولـوا الحكيـم يـسري مـش موجـود... وجـودك بيطمِّنهـم يـا حكيـم... هـل تـرى أن أهميـة زيـارة هـذا المريـض أهـم من طلـوع هـؤلاء الشـباب للعمليَّات، وأهـم مـن الهـدف اللـي نحـن متواجديـن بسـببه؟

وأدركـت أن وجـود خدمـات طبيـة مسـاندة للفدائيـين أساسـيَّة في عمليَّاتهـم، أدركـتُ ذلـك عمليًّـا، وليـس نظريًّـا كـما كُنَّـا نتكلـم مـن قبـل. وبالفعـل كان دورًا كبـيرًا جـدًّا في المستشـفى الميـداني في منطقـة أحـراش جـرش، كـما كان -مـن قبـل- في مستشـفى الأشرفيـة في عـمان؛ لقـد أنقذنـا حيـاة الكثـير مـن المصابـين، وفقدنـا أكـثر؛ بسـبب عـدم وجـود إمكانيـات كافيـة.

كتبـت اعتـذارًا لطيفًـا لخطيبتـي، أوضحـت لهـا فيـه مـا نعانيـه هنـا، وكيـف أننـي لا أسـتطيع أن أتخـلَّى عـن هـؤلاء المناضلـين في مثـل هـذه الأوقـات الحاسـمة، قلـت لهـا إنهـا بالقاهـرة يمكـن أن تسـتعين بالكثيريـن مـن الأصدقـاء الذيـن سـيرحِّبون بمـدِّ يـد العـون لهـا ولأبيهـا -إن احتاجتهـا- في أي وقـت، أرسـلت الخطـاب، لكننـي لم أتلـقَّ منهـا أي ردٍّ بعدهـا...

في هـذه الأثنـاء كان هنـاك مؤتمـر في بـيروت تحـضره قيـادات المنظَّمـة "أبـو عـمَّار" ومعـه "أبـو جهـاد"، وكان معهـما الحكيـم، الـذي كان "أبـو عـمَّار" حريصًـا دائمًـا عـلى

حضوره مثل تلك المؤتمرات؛ فلقد كان كادرًا سياسيًّا، وقائدًا نضاليًّا مهمًّا. وأثناء ذلك داهمتنا الأحداث، وحدثت مذبحة جرش، وقُتل "أبو علي إياد" الذي رفض الذهاب إلى المؤتمر ولم يتخلَّ عن موقعه.

من بيروت أرسل إليَّ الحكيمُ خطابًا مع أحد الشباب -الذي كان مُتوجِّهًا إلى مُخيَّم غزَّة القريب- كتب فيه عن المرحلة، ولخَّصها في سطورٍ محدودة... كان خطابًا رائعًا، وقد تميَّز الحكيمُ بأسلوبٍ أدبيٍّ رائع، وبخاصَّةٍ في كتابته للخطابات، أخبرني أنه مُستاءٌ من أنه بعيد عنَّا، ولكنه سيعود قريبًا، قال إنه يعلم مصيره عندما يعود: "الأفيال وحدها تعرف عن نهاية أعمارها، وتعرف الطريق إلى المقبرة"! كانت هذه الجملة هي بداية خطاب محجوب، مُعَلِّقًا على قُرب عودته من هذا المؤتمر...

وكان قد حُجِزَ له في أحد الفنادق الكبرى الفاخرة في بيروت، قال لي في الخطاب إنه رفض النَّوم على السرير بغرفته -طبعًا- وكان ينام على الأرض، وعندما كانوا يُقدِّمون له الأطعمة الفاخرة في مطعم الفندق كان يكتفي بما يقيم أوَدَه منها، ولا يقرب الحلويَّات التي يقدِّمونها له! كتب لي: "كنتُ أحدِّث نفسي قائلًا: كيف أتلذَّذ بأكل هذه الأطعمة الفاخرة، بينما الشباب -هناك- محرومون من كل شيء! كنت دائم التساؤل بيني وبين نفسي عن أحوالكم في المعسكر: تُرى، ماذا يعملون الآن؟!".

واحتفظتُ بهذا الخطاب الرائع، كأنَّه ثروة!

في دِبِّين.. طبعًا!

كنَّا عندما نقول إننا ذاهبون إلى دِبِّين فقد كُنَّا نقصد بذلك الذهاب إلى المستشفى، أو مقر القيادة، أو السجن، أو مكتب التموين، وخلافه...

كانت منطقةَ أشجار كثيفة، يحدُّها من الشرق الطَّريقُ العام الرئيسي، الذي يقطع الأردن من الشمال حتى ميناء العقبة، وهو طريق مُمهَّدٌ شَقَّه الإنجليز أثناء احتلالهم الأردن.

كان بيننا والطريق مُخيَّمُ غزَّة، وقد كان طريقنا المُعتَمَد -دائمًا- في الذهاب إلى عمَّان، أو أي مكان آخر. ومن الشمال كانت توجد عجلون، وهي على مسافة قصيرة جدًّا. أمَّا من ناحية الجنوب كانت -بالقرب منها- مدينة جرش السياحية؛ بآثارها الشهيرة التي لم تُتَح لنا الفرصة لزيارتها! قد لا يُصدِّق الغالبية هذا الوضعَ، ولكنَّه حقيقيٌّ. إلى الغرب كان الغور، ونهر الأردن، وإسرائيل. وأخيرًا، في الشمال الشرقي توجد مستشفى السَّلط.

كان العمل يقتضي منِّي إجراء العمليات الجراحية، وعمل العيادة في المستشفى يوميًّا، والمرور على القواعد المنتشرة حول دِبِّين، وبالقرب من نهر الأردن في الغور، وكنت أطالب دائمًا أن تُرسِلَ القيادةُ طبيبًا آخر ليعاونني على العمل؛ حيث إن العمل في المستشفى كان يُقيِّدني، ويعوقني عن المرور على القواعد، ولأن القيادة الطبِّيَّة لم تكن على وفاقٍ معي -ولا مع الحكيم- فقد اكتفوا بوجود سميح، الذي لم يكن له أي عمل سوى البحث عن مكاسب شخصية، فكان يُصِرُّ على الإقامة في إحدي الخيام (وكنا نمتلك بعض الخيام الفاخرة المخصَّصة للقادة، والكادرات الكبيرة، ومنهم الطبيب بالطبع)، ويرفض الإقامة معنا في المغارات، وبعد أن وصل إلى المنطقة بقليل استولى على إحدي سيَّارَتَيْ "لاندروڤر" جديدتين، كانتا تعملان معنا؛ بِحُجَّة التَّنقُّل بها بين المواقع؛ وهو ما لم يكن يفعله أبدًا!

وأخيرًا أرسلوا لي طبيبًا آخر؛ طبيب مصري، يعمل نائِبَ "نِسا وولادة"! تطوَّع للعمل مَعنا، كان مُتحمِّسًا جدًّا للمساعدة (أصرَّ على المبيت في خيمةٍ، برغم تنبيهاتي وتحذيراتي من خطورة هذا)، لكنه كان يحمل انطباعًا سيئًا عني من قبل أن يأتي حتى؛ فقد كان قريبًا من مجموعة إربد اليمينية، ويبدو أنهم شحنوه ضدِّي بفكرة أنَّني شيوعيٌّ، كما اعتادوا أن يُردِّدوا!

في كل الأحوال كنت أشعر براحة لمجرَّد وجود طبيب آخر معي؛ ليساعد في ظل هذا الكم الهائل من الأعمال المطلوب مني أن أنجزها، لكنني فوجئت أنه بدأ يسمح لنفسه بإصدار بعض التعليمات دون الرجوع إليَّ، عُدتُ مرَّةً -في المساء- من المرور على القواعد، فوجدته قد أخرج بعض المرضى الذين أَجَريتُ لهم عَمليَّاتٍ، فسألته: "لماذا أخرجتَ هؤلاء المرضى، رغم أن جروحهم لم تَندَمِل بعدُ؟ فقال: "كما نفعل في مصر"! فأفهمته أن المريض في مصر عندما يخرج من

المستشـفى يذهـب إلى بيتـه، أمَّـا هنـا فإنـه يذهـب إلى القاعـدة، بحياتهـا الخَشِـنَة، حيـث لا يوجـد مَـن يتابـع أحوالهـم، ويلبـي متطلباتهـم الحياتيَّـة العاديَّـة.

كان مـن ضمـن الحـالات التـي أخرجهـا مريـضٌ يعـاني مـن بواسـيرَ نازِفَـةٍ، أخرجـه بعـد ثلاثـة أيَّـامٍ فقـط مـن إجـراء الجراحـة لـه، وكتـب لـه التعليـمات التـي سـيتبعها بعـد خروجـه إلى منزلـه، طبقًـا لمـا تقتضيـه ظـروف هـذه العمليـة في الأحـوال العاديـة، فلمَّا شرحـت لـه طريقـة قضـاء الفـدائي حاجَتَـه، وكيـف يُنظِّـف نفسـه؛ صُعِـقَ، وبـدا لـه أنـه لا يمتلـك الخـبرة التـي تمكِّنـه مـن تسـيير العمـل دون استشـارتي، دون الوقـوع في الخطـأ؛ فأصبـح أكـثر لينًـا في تعامُلِـه معـي، وصـار دائِـمَ السُّـؤال والاستفسـار.

وفي واقعـة أخـرى جـرت بينـي وبينـه -عـلى سـبيل المثـال- كنَّـا في غرفـة العمليـات، وكنـتُ قـد أصـدرتُ تعليـماتي بعـدم اسـتخدام الصنبـور الموجـود بتلـك الغرفـة، وجـدتُ سـمير ذات ليلـةٍ يدخـل الغرفـة، ويسـتخدم الصنبـور في غسـل أسـنانه، قلـتُ لـه: "هـذا المـاء ليـس للاسـتخدام العـادي".

فردَّ: "يعني أغسل أسناني فين؟".

أخـذت كوبًـا فارِغًـا، وملأتـه مـن الصنبـور، وقلـت لـه: "انظُـرْ..."، فَـزِعَ عندمـا رأى الـدُّود بالميـاه، وتُرابًـا، وقـال: "لمـاذا لم تَقُـل لي؟"، فقلـتُ لـه: "وهـل تركـتَ لي فُرصَـةً لأفعـل ذلـك؟!". أحـسَّ سـمير وقتهـا أنَّنـي حريـص عليـه، وأننـي لا أحمـل لـه ضغينـةً، وانتهـزت الفرصـة وبـدأت أُعاتبـه عـلى بعـض تصرُّفاتـه، مثـل إخـراج بعـض المـرضى، مُتصـوِّرًا أنهـم سـيذهبون إلى بيوتهـم، بينـما هـم سـيذهبون إلى قواعدهـم، ولـن يرتاحـوا، ولـن يجـدوا مَـن يُغـيِّر لهـم عـلى جروحهـم.

رصاص في الخيمة!

كان سـميح حريصًـا عـلى أن تأتيـه وجبـة الإفطـار في خيمتـه، وفعـل سـمير الأمـر نفسـه، وكان هنـاك سـيدة وبنتهـا مـن سـكان المخيَّـم تحـضران للمستشـفى للمسـاعدة في أعـمال التنظيـف وغسـيل الملابـس؛ للحصـول عـلى بعـض النقـود؛ حيـث لم يكـن لهـما مصـدر دخـل آخـر، كانتـا تضطلعـان أيضًـا بمَهمَّـة تقديـم الوجبـات لسـاكِني الخيمتـين، كان اسـم البنـت مريـم، وهـي بنـت صغـيرة السـن، لا تمتلـك حظًّـا كبـيراً مـن

الجمال، وكان لها أخٌ سلوكه غير منضبط؛ ممَّا جعله نزيلًا بالسجن (أخبروني أنه كان شرس الطباع أيضًا)، سمع أخوها هذا يومًا بعض الشائعات التي تتناول شرف مريم بالسوء، كانت الشائعات تقول إن لها علاقة بسميح (ولا أعرف كيف يكون ذلك؛ إذ أن كُلًّا من سميح ومريم يحضران إلى المستشفى في أوقات قليلة، وكانت هي تغسل ملابس الشباب نظير نقودٍ بسيطة)، ونما إلى علم سميح من مشرفي السجن أن هذا الشابَّ يتحدث عن أمر علاقة مزعومة بين الطبيب وبين أخته، وأنه يتوعَّده عندما يخرج من سجنه؛ فهاج سميح وماج، وأصرَّ على أن يُحقِّق في الموضوع بنفسه، فطلب إحضار الفتاة وأخاها إليه.

وقتها كنتُ مُصابًا بنزلة بردٍ، وكانت مريم تقوم بدور إنساني معي، فقد كانت تقوم على رعايتي، وتحضر لي الماء والشوربة والمشروبات، وتقدم لي الدواء أو الطعام، وكنت أشعر بالامتنان لها ولتصرُّفها الإنساني معي. من سريري حيث كنت أرقد سمعتُ صوت إطلاق رصاص، ثم دخل عليَّ أحد الشباب قائلًا: "يا حكيم.. أحدهم قتل الدكتور سمير"!

وبرغم الحمى، والضعف الشديد الذي كنت عليه؛ فقد نهضت وأنا في شِدَّة الانفعال، وأخذت معي الكلاشنكوف، وهرولت وأنا أُقسم بالله أن أقتله إذا كان قد قتل سمير حقًّا.

عندما وصلت إلى الخيمة فُزِعتُ لمَّا رأيت سميح هائجًا، ويصرُّ على قتل السجين، والشباب يحاولون منعه، والسجين مُلقًّى على الأرض، وإلى جواره مريم مُضرجَةً في دمائها.

كان سمير جالسًا بهدوء على السرير بينما يلف يده بقطعة قماشٍ مبلَّلة بالدماء، يضغط عليها بيده الأخرى، والكلاشنكوف الخاص به إلى جانبه، في حين كان سميح يمسك بالكلاشنكوف في يده (كانت العادة أن يحمل كلُّ عضوٍ "كلاشنكوف" للحماية الشخصية، حتى العاملون في الخدمات الطبية)، فهمت أنه عندما حضرت الفتاةُ غافَلَ أخوها الحُرَّاس واختطف الكلاشينكوف، وقتل أخته، وقد أصابت إحدى الرصاصات يد سمير، الذي سارع بإطلاق رصاص رشاشه على السَّجين، فأصابه في صدره!

عندما وصلت إلى الخيمة كان سميح في حالة هياج، ويريد قتل الجريح قاتِلِ أخته (وكان ما يزال حيًّا)، فطلبت من الشباب نقل الجرحى إلى غرفة الطوارئ، ووجدت أن إصابة سمير كانت في إبهامه اليُسرى، وقد قُطِعَت أوتار هذا الإصبع؛ فكان لا بُدَّ من تحويله لمستشفى خاصٍّ ليقوم اختصاصيُّ العظام بما يلزم للوتر المقطوع، ولمَّا فحصت الفتاة اكتشفت أنها قد فارقت الحياة متأثِّرة بإصابتها... بكيتُ عليها؛ فلم تكن تستحق الموت!

كان بعض الموجودين مُنفَعِلين ويريدون قتل السجين، لكنَّني منعتهم، قلتُ لهم: "على جُثّتي... ده مصاب.. ومَحدِّش يِقَرَّبْلُه..."!

حصلتُ على موافقة القيادة أن يُنقَلَا (الدكتور سمير والسجين) إلى أحد المستشفيات الخاصَّة للعلاج، وصَحِبتُهما في سيارة الإسعاف إلى عمَّان، بعد أن قُمتُ بإجراء الإسعافات الأولية اللازمة لهما في المستشفى الميداني...

كان الشابُّ صامتًا، لكنَّ ملامحه تُبدي امتنانًا لِتصرُّفي معه. وضعتُ أنبوبًا في صدره؛ حتى تتمدَّد الرِّئة، وقد احتاج إلى جراحةٍ بعد ذلك، أمَّا سمير فقد سافر إلى مصر على أنه أحد جرحى المقاومة الفلسطينية...

معركة المقاومة الأخيرة

فجأة، وبدون أي مقدِّمات، جاءنا مَن يخبرنا أن الجيش الأردني سوف يقوم بهجوم كاسح على مواقع الفدائيِّين في أحراش جرش، التي كنت أشعر منذ البداية -بعدما وقفت على أوضاع المقاومة بعد عودتي من القاهرة، وكيف أنهم انتقلوا للأحراش (أو أُجبروا على الانتقال)- أن وجود المقاومة بكاملها بهذا الشكل في هذا المربع الصغير- ما هو إلَّا مصيدة أوقعت السلطة الأردنية وقتها الفدائيين بها، حيث يسهل عليها القضاء عليهم عندما تريد، في أي وقت! وها هي نبوءتي تتحقَّق، بينما القادة جميعًا هناك، في بيروت! وقيل إن الجيش يتقدَّم، وقد اجتاح مُخيَّم غزة، واجتاح عجلون، وقواته آتية إلى الجنوب من الطُّرُق الوعرة.

فوجئت بقدوم فؤاد، كان في جولة اعتيادية بين القواعد لرعاية المرضى، وظلَّ معي بعد انتشار هذه الأنباء، رغم توفُّر إمكانية أن يعود إلى عمَّان (سبق أن

ذكرت أنه كان يعتبرني صديقه الأقرب، وكان يشعر براحة كبيرة في ظل وجوده بجواري في أي مكان)، وأسهم ذلك في بَثِّ الطُّمَأنينة لديَّ أيضًا، لكن رغم ذلك فقد كنت أشعر بالاضطراب والقلق؛ حيث لم يكن محجوب معي!

جاء أحدُ المسؤولين من مكتب "أبو جهاد" الذي كان ما يزال ببيروت، وقال لي إن الموقف ميؤوس منه:

- الجيش في أقل من ساعة سيصل إلى دِبِّين؛ لأنه يهاجم من ثلاث جهات.
- والحل؟ القيادة غير موجودة!
- كل واحد يتصرَّف لحاله بالطريقة اللي يشوفها.
- الناس رايحة على فين؟
- الناس كلها في اتجاهها للضفَّة الغربية... الجيش لا يترك أحدًا، بيقتلوا الجميع.. على الأقل إسرائيل بتقبض على الناس وتحقَّق معاهم!

كان شيئًا عجيبًا أن يُحاصِرَ الجيش الأردنيُّ الفدائيين من تلك الجهات الثلاث، وأن يضطرَّهم للاتجاه نحو العدو، الذي هُم أصلًا موجودون لمُحارَبَتِه!

وبالفعل، لم يمض وقت طويل حتى بدأنا نسمع دويَّ المدافع، وانهالت القذائف على المنطقة...

***

دِبِّين مُرتَفِعةٌ عن سطح البحر، غير أن منطقة القيادة المركزية كانت في موقعٍ منخفضٍ قليلًا، بدأ القصف عنيفًا على دِبِّين من جهة الشرق، وكان مركَّزًا على مقر القيادة، لم يَحمِنا منه إلَّا احتماؤنا داخل المغارات.

استمرَّ القصف لأيَّامٍ، كان يشتدُّ في أوقات، ويهدأ في أخرى، وبدؤوا ينوِّعون في الجهات التي يشنُّون هجومهم منها، صار القصف يأتي من الجنوب، أو من الشمال، ومن الغرب أيضًا.. من ناحية إسرائيل!

في ظل اشتداد القصف، وارتفاع وتيرته أحسسنا أنَّ الأمر كان يمضي باتجاه النهاية، وأن ما يفصلنا عن تلك اللحظة مجرَّد ساعاتٍ؛ فقد كان مخزون الطعام يتناقص بشكل سريع، ولم يعد لدينا العدد الكافي من الفادائيين القادرين على

التصدي لهجوم بمثل هذه الشراسة، وبدأنا في التفكير في عملية إخلاء شاملة، وقبل أن نفكِّر في الجهة التي سنتَّجه نحوها أخذنا في ترتيب خطوات عملية الإخلاء، نبَّهني الشابُ الذي يلي "أبو جهاد" في القيادة أنه لا بُدَّ من تدمير اللاسلكي الموجود عندنا (كنَّا نستخدمه أحيانًا في إجراء الاتصالات المهمة مع جهات مختلفة، ومنها السفارة المصرية)، وسألني إن كنتُ أريد إبلاغ أي رسائل، قال: "لقد انتشر خبرٌ أنَّك -والدكتور فؤاد- قد قُتِلتُما؛ لأن الجيش لا يترك أيَّ أحياء"! فطلبتُ منه إبلاغ رسالة إلى السفارة المصرية تفيد بأننا ما زلنا أحياء، وأننا في الغالب سنتَّجه نحو الغور، وأُرسِلَت الرسالة مَرَّتَين قبل تدمير الجهاز، وقد تَبيَّن -فيما بعد- أن الرسالة قد التقطها رجال جويفل، وكان لها دَورٌ كبير في إنقاذنا بعد ذلك!

***

لم يَكُن هناك قائد ميدانيٌّ يُوجِّه الناس؛ فاتَّجه الجميع إلى الضِّفَّة الغربيَّة، المُحتلَّة؛ حيث إنها كانت تمثِّل المَخرجَ الوحيد الذي لا يَطالُه القَصف!

شرع الجميع في التسابُق نحو السَّيَّارتَيْن، لكنني وقفتُ لهم، وأعلنت عليهم قراري بأن السيارتين لن تكفيا لنقل الجرحى حتى؛ لذا فإنا سنحمل فيهما المرضى والجرحى الذين لا تسمح لهم حالتهم الصحية بالسير، بينما سيسير الباقون جميعًا، بما فيهم أنا، وبقيَّة الأطبَّاء الموجودين.

وبدأنا المسير...

كان بعض أهالي القرى المجاورة التي نمرُّ عليها يتعاطفون معنا، أو يَدَّعون التعاطف؛ فقد كان الكثير من المدنيين يحكمهم الخوف في تعاملهم مع الفدائيين، وقد سمعنا فيما بعد أن بعض الأهالي كانوا يَدلُّون الجيش على أماكن تواجُد الشباب، وبالرغم من ذلك كان لا خيار لنا إلَّا الاعتماد على نخوتهم، فكُنَّا نترك لديهم بعض الجرحى؛ ليحموهم في بيوتهم عندما يَصِلُ الجيش... وبالخبرة الي اكتسبتها من أحداث الأشرفيَّة كنت قد توصَّلتُ إلى أن الخطر دائمًا يأتي من لحظة المواجهة الأولى؛ بسبب العنف والشراسة التي تكون مُصاحِبَةً لبداية الهجوم، وكان المطلوب فقط من الأهالي أن يُجنِّبوا الشباب تلك المُواجَهَة الأولى، خاصَّةً أنهم جرحى، ويمكنهم تسليمهم إلى الجيش بعد ذلك لمحاكمتهم!

كان اليأس قد دبَّ في نفوسنا جميعًا، وشعرنا أنه لا أمل في ظلِّ الأوضاع السائدة؛ فلم نسمع أن أحدًا بالخارج يحاول التدخُّل لضمان سلامتنا على الأقل، ولم يصلنا أيُّ شيء من قياداتنا الموجودين بالخارج.

بالقرب من قرية اسمها "بورما" كان هناك جسر على قناة، أخبرني سائق سيارة الإسعاف أنه سيذهب بالسيارة ليوقفها تحت الجسر. قلت له: "لا تذهب إلى هناك؛ فالهدف مكشوف". لكنه أصرَّ على الذَّهاب... قُصِف الجسر فور وصول السيارة إلى هناك، وتفجَّرت السيارة، وتناثرت الأشلاء، وصرنا على وشك الانهيار بالفعل!

بورما.. نهاية الطريق!

وصلنا إلى مشارف "بورما" بالفعل قُربَ الغروب، كانت قريةً أصغر من دِبِّين، وفجأةً انهال الرَّصاص علينا، واكتشفت أنه آتٍ من طائِرَة هليكوبتر كانت تحلِّق فوقنا، بعد أن انتهت إغارة الطائرة علينا تحرَّكنا سريعًا، ودخلنا القرية، مَرَرنا ببيوت القرية، عرض علينا كثيرون أن يستضيفونا أنا وفؤاد، لكنَّني رفضت، وطلبت أن أُقابِل مختار القرية (العمدة)، فأخذونا إليه، وجدته رجلًا ودودًا جدًّا، لكنَّني أحسستُه ودًّا مُصطَنَعًا، كان مصدره خشيته من الفدائيِّين الذين تبقَّوا معنا، وأسلحتهم. شرحنا له أننا أطباء مصريُّون، نتبع اتحاد الأطبَّاء العرب، وأنَّنا نحمل جوازات سفرنا معنا، وقد جئنا لمساعدة المرضي في المُخيَّمات، وجرحى المواجهات العسكرية... قال الرجل:

- يا جماعة.. أنتم في ضيافتي...

ثم طلب الشاي، فقلتُ له:

- أنا عاوز قهوة عربيَّة...
- والله التَّنكَة خلصت.. وما عندنا قهوة.
- هات من عند جارك "تنوه" (مادة تمثِّل خميرةً للقهوة الجديدة)؛ لأنني لا أشرب إلَّا القهوة...

تدخَّل فؤاد في الحوار قائلًا:

- ماشي.. نشرب شاي...

فَلَكَزتُه، وقلت له:

- لا تتكلَّم!

عندها قال المختار:

- لا تقلق يا حكيم.. سنبحث عن قهوة!

لاحظت أن هناك تَجمُّعات من الشباب هنا وهناك، وكانت أصواتهم تتعالى بالهتاف، مطالبين بسقوط الخَوَنَة (يقصدون الفدائيين).

كان إصراري على القهوة غير مَنطقيٍّ بالطَّبع؛ فَمَن ذا الذي يُلزِم مُضيِّفه بشيء! لم يكن فؤاد يفهم، لكنَّ المختار كان يعي دوافعي؛ إذ إنه في عُرفِ البدو كان تقديم القهوة للضيوف يعني نوعًا من العهد بالمصالحة وعدم الغدر!

قال المختار:

- أنت هنا سالِم.. أنت وزميلك، لِحَدّ ما ييجي الجيش ويستلمكم...

خطر على بالي عند سماعي جملة المختار الأخيرة فكرتي التي ذكرتها قبل قليل: تَجَنُّب الصدمة الأولى، التي يتمُّ فيها القتل، دون تمييز، ودون مناقشة... فَمِلتُ على فؤاد وسألته بصوت خفيض: "فين هوية الجبهه الشعبيه؟"، فأرانيها مدسوسةً في جوربه. طلبتُ من المختار أن نذهب لقضاء حاجَتِنا، فمال فؤاد عليَّ قائلًا: "مش عايز"! فلكزتُه، وقلت له: "لأ عايز"... ذهبنا وراء التَّلَّة المجاورة لبيت المختار، وطلبت من فؤاد أن يجلس القُرفُصاءَ ويتبرَّز، فقال: "مش عايز"، فقُلتُ له بِحدَّة: "لازم تنفِّذ اللِّي باقولَّك عليه"، وشرحت له أننا سندفن ما معنا في بُرازنا! كانت العمليَّة صعبةً لأننا لم نكن قد أكلنا منذ فترة. نبَّهت فؤاد إلى عمل طبقة أولى، ثم يضع هويَّة الجبهة الشعبيَّة، ثم يكمل فوقها؛ حتى يصعب إيجادها... وضعت أنا مع هويَّة فتح خطابَ الحكيم الذي كان غاليًا عليَّ. فعلنا ذلك لأنني كنت أتوقَّع تفتيشًا.

عدنـا إلى منـزل المختـار بعـد ذلـك، وكانـوا قـد أتـوا لنـا بالقهـوة فعـلًا، بعـد أن شربناهـا معـه ذَكَّـرتُ الرَّجُـلَ بعهـده معـي، كان هـو الوحيـد القـادر عـلى حمايتنـا.

داهَمَنا الجيشُ خلال دقائق بعدها، وكانت الهتافات تتعالى في الخارج، وتشير إلى مكاننا:

"القَتَلَة.. الخَوَنَة.. لِنَأخُذْ بالثَّأر"!

***

عندمـا دخـل علينـا قائـد القـوة التـي حـاصَرَت البيـت -وكانـت كُلُّهـا مـن صـف ضُبَّـاط وجنـود- سـكت الجميـع، كان برتبـة وكيـل أول، وهـي أعـلى رتبـة في صـف الضُّبَّـاط، كان رَجُـلًا بَدويًّـا، قـويَّ البنيـة، وحـادَّ الملامـح، وفي عينيـه بعـض ذكاء.

قال:

- حد منكم جَرَّاح؟ أنا عرفت إن هنا دكاترة..

قلت:

- أنا جَرَّاح...

- معي جنديٌّ مُصاب، عزيز عليَّ قوي.. ممكن تساعده؟

- طبعًا.. أحضره إلى هنا...

فأمر بإحضاره...

كان شـابًّا في نحـو العشريـن مـن عمـره، مُمتَقِـعَ الوَجـه مـن كَـثرَةِ النَّزيـف، شـعرتُ أنَّنـا مَرَرنـا بالمشـكلة الأولى بسـلام، أي أننـا قـد تَجنَّبنـا صدمـة الاقتحـام الأول، وقـد سـاعَدَنا الحَـظُّ بهـذا الجنـدي المصـاب، وأنـه كان عزيـزًا عـلى قائـد المجموعـة المُهاجِمَة.

أرقـدت الجنـديَّ عـلى "طرَّاحـة" عـلى أرضيـة غرفـة الاسـتقبال التـي كنَّـا نجلـس بها، وأحـضر فـؤاد حقيبـةَ الإسـعاف، وسـاعَدَني في إخـراج جهـاز الضغـط والسَّـمَّاعة منهـا، وجـدتُ ضَغـط الشـاب مُنخَفِضًـا جـدًّا؛ فأَمَـرتُ برفـع رِجْلَيْـه ونِصفَـه السُّـفليَّ، ولمَّـا فَحَصتُـه وجـدتُ أنـه مصـاب برصاصـة في الصَّفـن، وقـد اخترقـت قَضيبَـه، واخترقـت المثانـة، واسـتقرَّت في أمعائـه.

حاوَلتُ إيقافَ النزيف بقدر الإمكان -وبخاصَّة من القضيب- مستخدمًا أربطة شاش، ولم يكن معي إلَّا حُقنَة مورفين واحدة، فحقنته في العضل لتخفيف الألم وتقليل الصَّدمَة، وكان الحل الوحيد هو رفع قدميه ومُؤخِّرَته حتى يتدفَّق الدم إلى الدماغ... كان يهذي، وكنت أتحدَّث إليه طول الوقت حتى أعلم مدى تقدُّم حالته عندما يَخِفُّ هذيانه، وكان فؤاد يقيس ضغطه كل بضع دقائق.

بدأ الشاب يستردُّ وعيه بما حوله شيئًا فشيئًا، وبدأ ضغطه يتحسَّن تدريجيًّا، مع تَوقُّفٍ جُزئيٍّ للنزيف.

بكى، واحتضنني قائلًا:

- يا حكيم... بالله عليك ما تسيبني أموت...

- ما تخافش.. مش حتموت!

- على فكرة.. أنا فلسطيني...

فَكَمَّمتُ فَمَه حتى لا يسمع بَقيَّةُ الجنود!

- ما أصابني الفلسطينية يا خوي، أنا لي اتنين إخوتي من الفدائيين.. والله أنا أُصِبت من الجيش نفسه.. كُنَّا طالعين عالتَّلَّة، وكنت في المُقدِّمة مع الوكيل قاسم لمَّا أصابتني رصاصة من زميل لي في الخلف... يظهر مفيش أمل... أنا مستنِّي الحرب تخلص عشان أتجوِّز بعد شهرين.. يا حكيم...

- والله فيه أمل.. لا تخاف!

كنتُ حريصًا ألَّا يسمع الآخرون مُحادَثتي معه، وكان الوكيل قاسم يقف في وسط الغرفة، وهو يمنع الجماهير التي تحاول الدُّخولَ والفَتْكَ بنا. كان الرجل جادًّا وعقلانيًّا، قال لهم:

- يا جماعة هادول بينقذوا واحد من جنودنا!

- عاوزين ننتقم...

وسمعته يُقسِمُ لهم بصوتٍ خفيض أنه سيقتلنا بيديه، عندما ننتهي من علاج المصاب. ولمَّا كان أهل البلدة يعرفون أن الرجل بَدويٌّ؛ هدأ ثورتهم قليلًا؛ حيث يدركون أن قَسَمَه "في رَقَبَتِه" كما يقولون؛ أي أنه ملزمٌ بأن يبرَّ به.

كنـت أتابـع كُلَّ ذلـك في الوقـت نفسـه الـذي ألاحـظ فيـه المصـاب، وفـؤاد مصـابٌ بحالـة ذهـول وعـدم فهـم.

قلتُ للوكيل قاسم:

- عملنـا الإسـعافات الأوليـة المُمكِنـة.. كـده الخطـر زال؛ لأنـه لـو تأخَّـر شـوية كان حيمـوت، لكـن يلزمـه عمليـة جراحية فـورًا...

- فين؟

- أقرب مكان هنا هو مستشفى السلط الحكومي.

- خلاص نودِّيه على هناك.

فَهِمتُ من كلامه أنه سينقل المصاب وَحدَه، فتدارَكتُ الأمرَ بسرعة، وقُلتُ:

- لكنـه يحتـاج جَـرَّاح مسـالك، ولا يوجـد في الأردن كلهـا غـير الدكتـور أنـور البلبيـسي وأنـا

- أنت؟!

- نعم.. تقدر تسأل الدكتور أنور البلبيسي عن ذلك.

- أنا ما أعرفه!

- هُـوَّ موجـود في عـمَّان. كَلِّمـه ييجـي، أو حيقولَّـك مفيـش غـير الدكتـور يـسري هاشـم الـلي يقـدر يعملهـا.

سكت الرجل لحظاتٍ، وبدا أنه متردِّدٌ في اتِّخاذ القرار، ثم قال بحزم:

- يبقـى انـت لازم تيجـي معانـا المستشـفى عشـان تِعملُّـه العمليـة بنفسـك... تعـالى معانـا.

- والدكتور فؤاد معي...

- لا.. انت جَرَّاح.. والدكتور فؤاد إيه؟!

- دكتور تخدير.

- في المستشفى دكتور تخدير...

- ما باشتغلش إلَّا ومعي دكتور التخدير اللي بيساعدني في كل عملياتي!

- طَيِّب ناخده معنا.

ولم يكن فؤاد يعرف أي شيء عن التخدير بالطبع!

بدأت الجماهير في الخارج تصيح أن هذه لعبة، فقال لهم:

- أنا عاهدتكم، وأنتم تعرفون عهدي...

***

ركبنا معهم السَّيَّارات في طريقنا لمستشفى السَّلط، الطريق وعرٌ، مليء بالحفر، كانت هناك مناطق مختلفة في نوعية التربة، وهي علامات يعرف منها العسكريُّون أن هناك ألغامًا مدفونة في هذه الأماكن، وبدأ السائقون يتململون، وساد التَّوتُّر بينهم، كانوا خائفين من انفجار الألغام بهم وبسياراتهم؛ فأوقف قاسم السيارات، كانت أربع سيارات، وطلب مني إرشادهم إلى أماكن الألغام! قلت له إنني لا أعرف عنها شيئًا، لم يصدقني، رغم أنه -كعسكريٍّ- يعرف أن خريطة الألغام لا يعرفها إلَّا عددٌ محدود من العسكريين، وبالتأكيد لا يمكن أن يكون من بينهم طبيب! ومن أجل الضغط على أعصابي حتى أعترف له بأماكن وجود تلك الألغام- أمرنا أنا وفؤاد باستقلال العربة الأولى في الرتل؛ فإذا ما انفجر لغمٌ بالموكب تنفجر سيارتنا أوَّلًا! ركبتُ السيَّارة الأولى بالفعل مع فؤاد، لكنَّ الغريب أن لغمًا انفجر في السيارة الثالثة! كان اللغم صغير الحجم على ما يبدو، ربما كان لغمًا مخصَّصًا للأفراد، فلم يسبِّب خسائر كبيرة، انفجرت الإطارات فقط، وتمَّ تغييرها، وعاودنا المسير بعدها.

تنفَّستُ الصعداء عندما وصلنا المستشفى بالسلط، أحسستُ أنني في ملعبي، فتحرَّكت بجرَأةٍ ومعي فؤاد، وقاسم وجنوده يهرولون ورائي. سألت عن مدير المستشفى (كان يسمَّى الدكتور معين، وكنتُ أعرفه من قبل، حيث عملنا معًا بالأشرفية، وهو من أصولٍ فلسطينيَّة، لكنه عاش في الأردن طول حياته فأصبح من العائلات الأردنية المعروفة، وكان مُتعاطِفًا بالطبع مع القضية الفلسطينية. بخلاف ذلك كان د. معين قياديًّا في الحزب الشيوعي، وكانت لنا نقاشات كثيرة في الأشرفية قبل أن ينتقل مديرًا لمستشفى السلط، وهو جرَّاح عام)- قيل لي إنه في

العَمليّـات، فتوجَّهـت لغرفـة العمليـات، وفوجئـت بسـعديَّة -الممرِّضـة المصريَّـة التـي كانـت معنـا بالأشرفيـة- وبمجـرَّد أن رأتنـي انخرطـت في البـكاء واحتضنتنـي...

- حمد الله على السلامة... إنت بخير يا دكتور يسري؟
- الحمد لله بخير.
- مش عاوز أي حاجة؟
- عاوز أشوف الدكتور مُعين مدير المستشفى.
- في العمليات.
- هاتي لي "جاون" و"شوز" و"ماسْك" عشان حادخل له.

وقـف قاسـم مذهـولًا، كـما لـو كان يشـعر أنـه في مـكان غريـب، والأمـور تفلِـتُ مـن يـده...

واستعدَّ فؤاد ودخل معي.

في غرفـة العمليـات وقَفـتُ أمـام الدكتـور معـين كان يجـري عمليـة جراحيـة، لكنـه عرفنـي بمجـرد مـا رآني...

قلت له:

- معنا جندي من الجيش مصاب ويحتاج دكتور مسالك.
- ما انت عارف، لا يوجد دكتور مسالك!
- بـس العمليـة ممكـن يعملهـا جـرَّاح عـام، عنده خـبرة مسـالك زي كل الجراحين المصريـين وانت عـارف.. أنـا أقـدر أعملها...
- طبعًا تقدر تعملها... انت كنت بتشتغل مع أنور البلبيسي!

حكيـت لـه مـا حـدث باختصـار، وأخبرتـه أننـي أنتظـر وصـول أي خـبر من السـفارة، فقـال: "ولا يهمَّك"...

بعدما انتهى من عمليته قلت له:

- الجندي المصاب معنا يحتاج إلى دم...
- ما انت عارف، لا يوجد دم في المستشفى!

- عاوزين متطوِّعين.
- برضه انت عارف إن التبرُّع بالدم في الأردن مشكلة كبيرة! ما حدا بيتطوَّع...

خرجنا من غرفة العمليات، فوجدنا الوكيل قاسم يقف أمام بابها، فما كان من د. معين إلَّا أن أكَّد له أنني الوحيد الذي يمكن أن يُجري هذه العملية، وأنني عملت كثيرًا في مستشفيات الحكومة، وقال كلامًا كثيرًا يُعزِّز من قدري.

فغر الوكيل قاسم فاه، وبدأ يُداخِلُه قَدْرٌ من الاقتناع بالكلام، وإنْ لم يتخلَّص من الشَّك تمامًا.

قال له:

- والدكتور التاني؟
- هادا دكتور التخدير حَقُّه.

وهذا ما كنَّا اتفقنا عليه ونحن في غرفة العمليات...

وقال د. معين:

- المشكلة أنه لا يوجد دم...

وانتهزت فرصة انشغال الوكيل قاسم مع معين، وانتحيت جانبًا بسعديَّة.

- تقدري تنزلي عمَّان.
- أنا مستعدَّة أعمل أي حاجة عشانك.
- روحي السفارة المصرية وقولي لهم إن الدكتور يسري والدكتور فؤاد في مستشفى السَّلط...

عمليَّتي الأخيرة بالأردن

سألت قاسم إن كان بعض الجنود يمكن أن يتبرَّعوا بالدم، فلم يقبل منهم أحد بالطبع. وقع الوكيل قاسم في "حيص بيص" -كما يقولون- وهو ينظر إلى الجندي الذي يستعطفه قائلًا: "مِنْشان الله هاتولي دم".

فكَّرت سريعًا، وسألت المدير إن كانوا يمتلكون أدوات تحديد فصيلة الدم على الأقل؟

- نعم.
- إعرَف لي فصيلة هذا الجندي.

وظهر أن فصيلة الدم "O"، فقلت له:

- خُذ منِّي عيِّنة، واعمل لها توافق مع فصيلة الجندي...
- انت هتدِّيه دمَّك؟!
- أيوه...

ففَغَر قاسم فاه! قلت:

- يجب إنقاذ حياته، ولن يتبرَّع أحدٌ بِدَمِه إلَّا إذا تطوَّع طبيب أوَّلًا!

مضى قليل من الوقت قبل أن تظهر نتيجة التحليل، قال لي د. معين:

- الدم متوافق.
- خلِّلي الشاب بتاع بنك الدم ياخد منِّي دم...
- يا راجل انت اللي حتعمل العملية، ومَحدِّش يعرف يعملها غيرك.
- مالكش دعوة...

واستلقيت على ظهري فوق السرير، وأعطيت تعليماتي بتجهيز غرفة العمليات، وطلبت بعض الطلبات الإضافية من أجل العملية، مثل قسطرة بولية من مقاسات مختلفة، وكيس لجمع البول، ومحاليل "رنجر"، وأشياء أخرى تعمَّدتُ ذِكرَها للممرِّضة التي تُحضِّر الغرفة، وكان قاسم يتابع كل ذلك وهو مذهول.

عادت سعديَّة، أسَرَّت إليَّ أن رجال الجيش يمنعون التحرُّك على الطريق و"مع إني قلتلهم إني مصريَّة وعايزة أروح السفارة.. برضه ما رضيوش"... وأخذت تمسِّد شَعري وأنا مُستلقٍ على السرير، ودموعها تتساقط على وجهي. قالت:

- مش عاوز أي حاجة؟
- كُبَّاية مَيَّة كبيرة.
- أجيب لك كُبَّاية حليب زي اللي بِندِّيها للناس اللي بتتبرَّع بالدم...

- لأ... كُبَّاية مَيَّة كبيرة!

دخل قاسم إلى الغرفة، وجلس على كرسيٍّ في مواجهتي، لم يتحدَّث، وبدا أنه يفكِّر، أعتقد أنني قرأت ما كان يدور برأسه وقتها: "ماذا يحدث حولي؟ هذا الطبيب المخرِّب، الفدائي، العدو؛ هو الوحيد الذي سينقذ صديقي العزيز!"...

ومع اقتراب انتهاء عملية سحب الدم أعطيت تعليماتٍ بتجهيز المُصاب لِتلقِّي الدم، وتعليماتٍ أخرى لفؤاد (وأنا أغمز له) قائِلًا: "جَهِّز البنج يا دكتور فؤاد"...

طلبتُ من د. معين أن يرسل شخصًا إلى عمَّان للسفارة المصرية لإبلاغهم بوجودنا في مستشفى السَّلط، وكانت المسافة تستغرق نحو ساعة أو أكثر قليلًا.

***

الحقيقة أن معظم الجراحين المصريين لديهم الخبرة الكافية في مجال جراحات المسالك البَوليَّة، حتى وإن لم يكن تخصُّصَهم، ويُمكِنُهم التَّعامُل مع حالةٍ مثل تلك، وقد كنتُ مُطمَئنًّا لقدرتي على عمل العملية...

نظَّفت الجرح، وعقَّمتُه... وجدتُ المثانة مُختَرَقَةً من ناحيتين، فعملت اللازم، وركَّبت قسطرةً بَوليَّةً، وقمت بتقطيب جروح القضيب والصَّفن، ثم ذهبت إلى الأمعاء، وقمت بِقَطعِ وتوصيل الأجزاء التي تَهتَّكَت. كان الدَّمُ عامِلًا مُهمًّا جدًّا في إنقاذ حياة الشاب.

استغرقت العملية حوالي ساعتين، وكنت أعمل ببطء؛ حتى يتمكَّن الدكتور معين من الاتصال بالسفارة بأي طريقة...

خرجت بعد الانتهاء من غرفة العمليات وأنا في حالة إرهاق شديد، وجدت الوكيل قاسم على باب الغرفة، اندفع نحوي متلهِّفًا، قال:

- إيه الأخبار يا حكيم؟

- تمَّت العملية بنجاح، والحمد لله.. المريض في غرفة الافاقة، عندما سيخرج سيكون كل شيء على ما يُرام.

احتضنني الرجل، وانفجر في بكاءٍ شديد.

- أنا أقسمت أقتلك بِيَدِّي.. لكني حاصوم ثلاث أيام.. وانت الآن في حمايتي... مش عارف أقول إيه في الجميل اللي انت عملته بالنسبة ليًّا.. إحنا من الصباح حَنتحرَّك إلى إربد لتسليمكم في معتقل الصخرة... إنت عارف يا حكيم إن الناس بيهتفوا ضد أي فدائي، حاقولُّهم انتم دكاترة مصريين بتشتغلوا مع الحكومة الأردنية، وكنتم معتقلين عند الفدائيين وإن الجيش حرَّركُم.. دي الطريقة الوحيدة اللِّي حاقنع الناس بيها عشان ما يقتلوكم بالغدر.. كل العائلات الأردنية اللِّي لها ناس في الجيش اتقتل لهم قتيل على يد الفدائيين.. والبلد هايجة جدًّا...

سمح لنا بالنوم في إحدى غُرَف المرضى ذات السرير لمدة أربع ساعات، بعد أن أتوا لنا بعشاء خفيف؛ بالرغم من احتياجنا إلى أثقل عشاء!

وغادرنا المستشفى عند الفجر، ونحن في حماية الوكيل قاسم، بعد أن اطمأنَّ على الشاب، ووَجَدَه في حالةٍ طيِّبةٍ. كنت قد فهمت -بدون سؤالٍ- أن د. معين فشل في الاتصال بالسفارة!

إلى إربد...

ركبنا السيارة أنا وفؤاد مع الوكيل قاسم، وفي الطريق تعرَّضنا للضرب بالعِصيِّ والحجارة والبصق علينا، أحسسنا بالشعور العدائي الفظيع في مواقف مختلفة من الطريق، بالرغم من أن قاسم كان يُقسِمُ لهم أننا مصريون نعمل مع الحكومة الأردنية، وعلى طول الطريق إلى إربد سلكنا طرقًا جانبيَّة كثيرة؛ حيث كان قاسم يقول إن هناك مناطق غير آمنة، وهناك طرق بها مفارز للأهالي، وأخرى بها جيوب للفدائيين، كان ودودًا جدًّا طول الطريق، وقُربَ الغروب وصلنا إلى معتقل الصخرة، وسلَّمنا الوكيل قاسم على "السَّركي"، ثم غادَرَ...

في معتقل الصخرة وجدنا عدد العاملين به قليلًا -وبعضهم كانوا فلسطينيِّي الأصل-، كان بقيتهم إمَّا في المعارك وإمَّا تمَّ الاستعانة بهم في الارتكازات الأمنية على الطُّرُق، عاملنا الموجودون بالمعتقل مُعامَلةً طيِّبة جدًّا، حتَّى الضُّبَّاط الأردنيُّون، ولأن المعتقل الضخم كان فارغًا من النزلاء، وباردًا جدًّا، وكانت الفئران تمرح بين

جنباته؛ فقد قرَّر الضباط إيداعنا في عيادة المعتقل، واعتذروا لنا عن عدم وجود أَسرَّة، واختتموا تعامُلَهم الإنسانيَّ بدعوتنا على العشاء، وكان عشاءً فاخرًا بالنسبة لأناس لم يأكلوا أو يناموا منذ ثلاثة أيام.

بعد العشاء انتحى بي أحدُ الضُّبَّاط جانِبًا، وقال لي: "بعد العشاء ديروا بالكم على حالكم؛ لأن بعض الجنود هنا من قالبي الحَطَّة من البدو ما بيردُّوا على حدا.. وعمومًا في العيادة يوجد رقيب أول اسمه أبو موسى، حيدير باله عليكم، وهو محترم من الجميع"...

سهرنا معهم طويلًا، وعندما بدأوا يستعدُّون للنوم أرسلونا في حراسة مَن يَثِقون فيهم إلى العيادة...

***

لم تكن عيادة بالمعنى المفهوم، لكنَّها كانت تحتوي على دكتين خشبيَّتين، ومكتب صغير، وبها أرفف كثيرة وضعت عليها أصناف دواء كثيرة، بغير ترتيب، وكان واضحًا أن المكان كان مهملًا بشدة، لولا وجود "أبو موسى"، الذي كان يرتبه من أجل نومه فقط... و"أبو موسى" رجل كبير السن، استقبلنا بترحابٍ، قال لنا بعد أن جلسنا قليلًا: "حتقعدوا معاي.. إنتم زي أولادي.. لا تخافوا... حتقعدوا معاي هنا لحد الصبح. يمكن يبعتوكم لمكان تاني. أنا عندي اتنين حراسة على البوَّابة هنا، عشان فيه بعض الجنود جَهَلَة بِدْوَان ممكن يتصرَّفوا تَصرُّفات خاطئة تجاهكم، لكن صَدِّقوني.. أنا باحرسكم من الآخرين... مش حَرَس عليكم". وتركنا وأغلق خلفه الباب من الخارج.

كنَّا في حاجة شديدة للنوم. وبالرغم من كلام الرجل الذي حاول به طمأنتنا، كنت أخشى الغدرَ بنا أثناء النوم؛ ولهذا اتَّفقتُ مع فؤاد على ألَّا ننام نحن الاثنين في نفس الوقت، وأن يظلَّ أحدنا مُتيقِّظًا؛ فيحرس أحدنا الآخر، وأن نتبادل الأدوار كل فترة حتى يهلَّ علينا الصباح.

اختار فؤاد أن يبدأ نوبة الحراسة هو وأن أنام أنا، فاستلقيت على دِكَّة خشبيَّة مستعدًّا للنوم، وقبل أن أغمض عيني وجدته يمارس مَهامَّ صيدلانية مُضحِكَة، لم

يكـن وقتَهـا، فقـد أخـذ يُصنِّـف الأدويـة الموجـودة في العيـادة، ويَرصُّهـا، وهـو سـعيدٌ للغايـة...

نمـتُ بعمـق شـديد، لم أَنَـم مثلـه منـذ مـدة طويلـة، اسـتغرقت في النـوم في الثالثـة صباحًـا تقريبًـا، وفي السادسـة أيقظنـي "أبـو مـوسى" وهـو يحمـل "كاسـة" شـاي صغـيرة وراديـو ترانزسـتور ينبعـث منـه صـوت شـادية تصـدح بأغنيـة "يـا حبيبتـي يـا مـصر"... التفـتُّ حـولي فوجـدت فـؤاد مُسـتغرِقًا في النـوم عـلى كـرسيٍّ خلـف المكتـب، وهـو يشـخِّر!

قـال "أبـو مـوسى": "اسـمع إذاعـة القاهـره يـا حكيـم"... مـلأ صـوت شـادية أذني، وانتابتنـي حالـة مـن الشـجن العميـق؛ فانسـابت دموعـي بغـزارة... احتضننـي "أبـو مـوسى" وهـو يقـول:

- أنـا عـارف إنـك شـاكك فيَّ يـا بنـي.. لكـن أنـا فلسـطيني الأصـل، وولادي اتنـين منهـم فدائيـين، واتنـين عسـاكر في الجيـش...

وقـال إنـه أيقظنـا لِيُسـلِّم علينـا لأن نوبتـه انتهـت، وأخـبرني أن مَـن سـيحلُّ مكانـه "راجـل كويِّـس"، لكننـا لم نـر الرجـل الآخـر هـذا؛ لأن الضُّبَّـاط اسـتدعونا لمكتبهـم، وأخبرونـا بـأن هنـاك تعليـمات بترحيلنـا إلى مـكان آخـر...

***

لم نكـن نعـرف إلى أيـن يتَّجهـون بنـا هـذه المـرَّة بالتحديـد، لكنَّهـم -عمومًـا- كانـوا يتَّجهـون جنوبًـا، وعنـد جبـل الحسـين اتَّضـح الأمـر، حيـث يوجـد مبنـى المخابـرات الأردنيـة في عَـمَّان، وكان الفدائيـون يُسـمُّون هـذا المبنـى "فنـدق أبـو رسـول"؛ فقـد كان رئيـس المخابـرات الأردنيـة وقتَهـا هـو "رسـول الكيـلاني"، وكان معروفًـا عنـه أنـه هـو ورجالـه قسـاة جـدًّا مـع الفدائيـين.

عندمـا وصلنـا أودعونـا في مـكان غريـب: غرفـة في الطابـق الأرضي، تحـت السُّـلَّم، مليئـة بالصراصـير والنفايـات البشريـة، كانـت المعاملـة سيئة جـدًّا؛ فقـد تلقَّينـا الكثـير مـن الإهانـات؛ كالدفـع في الأكتـاف، والشَّـدِّ مـن الرقبـة، والسَّـبِّ بأقـذع الألفـاظ، وبعـد مُـدَّة مَـرَّت علينـا كالدهـر صعـدوا بنـا إلى الطابـق الأول...

وجدنـا أنفسـنا أمـام شـخص يجلـس خلـف مكتـب، وأمامـه أوراق يُقلِّـب فيهـا، بـدأ الرجل يَسُــبُّنا، وســأل:

- مين الدكتور يسري؟

- أنا...

- ومين الدكتور فؤاد؟ (!)

قال فؤاد:

- أنا!

كان فـؤاد طـول الوقـت يرتـدي نظـارات شمسـيَّة، كان يعتـزُّ بهـا جـدًّا، فقـال المُحقِّـق لـه:

- انت لابس نواضر ليه؟ إخلَع النواضر واعْطِها للدكتور يسري ليلبسها...

كاد فؤاد يضحك، لكنه خلع النَّظَّارات على الفور، وأعطانيها، فوضعتها على وجهي.

لمحـت عـلى الأوراق التـي أمـام المحقـق صـورًا، وخَمَّنـتُ أن هـذه الأوراق هـي الاسـتمارات التـي كنَّـا قـد ملأناهـا عنـد انضمامنـا لفتـح وللجبهـة الشـعبية، ربمـا كانـوا قـد حصلـوا عـلى هـذه الاسـتمارات عندمـا هاجمـوا مكاتـب الفدائيـين التـي كانـت منتـشرةً في أماكـن مختلفـة، أو أن بعضهـم كان مُختَرِقًـا التنظيـم الفـدائي، وهـذا أمـر وارد. وتذكَّـرت أن صـوري التـي أعطيتهـم إيَّاهـا في ذاك الوقـت كانت بالنَّظَّـارات الطبية -التـي كنـت أسـتعملها في ذلـك الوقـت- أمَّـا صـور فـؤاد فلـم تكـن بالنظـارات... هكـذا فهمـت الموقـف.

- متى انضممتم للفدائيين؟

- لم ننضمَّ للفدائيِّين...

صرخ فينا قائلًا:

- حاضطر أستخدم معاكم طريقة تانية...

قلت له:

- نحن نتبع اتحاد الأطباء العرب، وهذه جوازات سَفَرِنا.

- لا أريد رؤيةَ جوازات...

- جئنـا إلى هنـا منـذ أكـثر مـن سـنة، وكُلِّفنـا بالعمـل مـع المواطنـين الفلسـطينيين، والجرحــى، مــن خــلال اتِّحــاد الأطبَّــاء العــرب، وكُنَّــا نعمــل في مستشــفى الأشرفيَّــة...

عاد للصُّراخ والسَّبِّ، وأشعرني انفعاله الشديد بالخَطَر.

فجـأةً رَنَّ جـرس التليفـون عـلى مكتبـه، فرفـع السَّـماعة لـيردَّ، شـعرتُ مـن نظراتـه أنـه يتحـدَّث مـع شـخصيَّة مُهمَّـة، وفهمـت مـن ردوده عـلى محدِّثـه أن الحديـث يـدور حولنا...

- تحت.. أيوه يا افندم.. أمرك يا افندم.. كله تمام أفندم...

أنهـى الرجـل مكالمتـه، وفجـأةً، إذا بالوجـه المُتَجهِّـم تُشِـعُّ فيـه بشاشـة، والتَّعامُـل الفَـظُّ يتحـوَّل إلى ترحـاب!

- يا دكاترة، ما تتفضَّلوا تقعدوا.. انتم ليه واقفين؟ (!)

- يعني نقعد على الكراسي؟

وكان أمام المكتب كرسيَّان.

- طبعًا.. يا أهلًا.. إنتم ما شربتوش حاجة والَّلا إيه؟

وضغط على زِرِّ جرسٍ، فدخل عسكري بسرعة...

- تشربوا إيه؟

قلت:

- قهوة...

- إن شاالله ما نكون سَبِّبنا لكم إزعاج، وما يكون حَدَا ضايقكم.

فغر فؤاد فمه، ولم ينبس بكلمة، وأنا لم أرد...

- إذا كان حصــل ســوء تفاهــم فأنتــم تُقــدِّرون الظــروف، واتَّفضلــوا إذا كنتــم تريــدون الذهــاب إلى مقــر الاتحــاد، أو أي جهــة أخــرى...

- فلوسنا ضاعت.. ممكن سيارة توصِّلنا؟

- عاوزين تروحوا لفين؟
- السفارة المصرية...
- قوي قوي...

هبط معنا الضابط بنفسه، وأوصلنا إلى خارج المبنى، بعد أن كان قد أمر بتوفير سيارة لنا على وجه السرعة؛ لتنقلنا إلى مبنى السفارة المصرية. كان فؤاد قد وصل إلى حالة من الذعر من السَّيَّارات العسكرية، لكنني أفهمته أننا لا نعرف ما يمكن أن نتعرَّض له في الطريق، فلا ضمان للوصول بأمان، وتحرَّكت بنا السيَّارة.

علمتُ فيما بعد أن المتحدِّثَ كان وزيرَ الدفاع بنفسه!

عندما وصلنا السفارة المصرية في عمَّان استقبلنا على باب السفارة محمد عبد السلام، وسهيل، اللذان يعملان في مكتب "أبو عاصم"... احتضنانا بكلِّ الحب والمشاعر الجميلة.

- حمدًا لله على سلامتكم... من ساعة ما وصلت الرسالة اللاسلكية من ثلاث أيام، ذَرَعنا كل الأردن باتصالاتنا... حتى وزير الداخلية بنفسه كان بيتَّصل بكل الجهات هو ومساعديه، عشان نتأكَّد إنكم على قيد الحياة، وعشان نتدخل للإفراج عنكم.

صدرت التعليمات لنا -بعد ذلك- من القيادة الفلسطينية، ومن اتحاد الأطباء العرب بنقل النشاط إلى بيروت. كان الوجود الفدائي في الأردن قد انتهى...

عمَّان- بيروت- القاهرة...

كنتُ قد ادَّخرتُ بعض النقود من المرتَّب المحدود الذي كان يصلنا من القاهرة، ولم أكن أنفق منه شيئًا تقريبًا؛ فاشتريت سيارةً مُستَعمَلَة من نوع "ڤولكس ڤاجن" من صديق مصري كان يعمل في شركة مصر للطيران، ورتَّبنا لرحلتنا أنا وفؤاد إلى بيروت بتلك السيارة.

مَـرَرتُ عـلى أختـي لأودِّعهـا وأخبرهـا بالموعـد الـذي حدَّنـاه للسـفر، فـأصرَّت عـلى أن تصطحبنـا في الرحلـة لبـيروت؛ للاطمئنـان علينـا وتأميننـا مـن وجهـة نظرهـا قائلـةً: "بكـدا حيكـون شـكلنا في السـيارة عائـلي"...

وكانت الرحلة سَلِسَة، لم نتعرَّض خلالها للمشاكل.

بعدمـا وصلنـا إلى بـيروت مكثنـا يومـين أو ثلاثـة، كانـت أختـي قـد سـافرت بالطائـرة عائـدة إلى عـمَّان، التقينـا المسـؤولين عـن الاتحـاد، وعـن المقاومة الفلسـطينية.

كان العمــل الفــدائي قــد انتقــل مــن الأردن إلى ســوريا ولبنــان. وضعــت ســوريا ضوابِـطَ للعمـل الفـدائي، مثـل تخصيـص مُعسـكراتٍ بعيـدة عـن العاصمـة للتدريـب، وكان للحكومـة السـورية السـيطرة الكاملـة فيـما يتعلَّـق بـكل الأنشـطة التـي تجـري عـلى أرضهـا.

أمَّـا في لبنـان فـكان الوضـعُ مُختلفًـا؛ ففيهـا أكـبر مُخيَّـم للَّاجئـين الفلسـطينيين، ويتواجـد بهـا أكـبر تَجمُّـعٍ للفلسـطينيين، فضـلًا عـن أن أوضـاع لبنـان السياسـية كانـت تتناسـب مـع الوجـود الفـدائي، وكان الفدائيُّـون موجوديـن بلبنـان مـن قبـل أيضًـا، وبذلـك انتقـل مركـز الثِّقـل مـن الأردن إلى لبنـان.

كان محجــوب قــد اســتطاع أن ينقــل قيادتــه إلى القســم العســكري، وذهــب إلى الجنـوب، أمَّـا أنـا فقـد طُلِـبَ منِّـي أن ألتحـق بمستشـفى فلسـطين في بـيروت، وهـو مستشـفى عـامٌ يقـدِّم الخدمـات الطبيـة للجميـع، ويُعتَـبَر واحـدًا مـن سلسـلة مستشـفيات موجـودة في عـدة مـدن عربيـة، تحمـل نفـس الاسـم-

فطلبـتُ الذهـاب للجنـوب، فرُفِـضَ طلبـي، وكان رَدِّي أننـا جئنـا مـن القاهـرة لدعـم العمـل الفـدائي، فـإذا كنـتُ سـأقدِّم خدمـاتي مـن بـيروت، فسـيكون أفضـل أن أفعـل ذلـك مـن القاهـرة، وتمَّـت الموافقـة بالفعـل عـلى عـودتي أنـا وفـؤاد للقاهـرة.

ومن مطار بيروت أخذنا الطائرة إلى القاهرة...

وفي هـذه المـرة كان السـفر بـلا عـودةٍ للاتِّحـاد مـرَّةً أخـرى، كان سَـفَرًا نهائيًّـا هـذه المـرَّة.

ما بعد الختام

ربَّما ذكرتُ في المقدِّمة أنني لستُ كاتبًا بالمعنى المتعارف عليه للكلمة، ورغم انتهائي من هذا الكتاب إلَّا أنني ما زلت مقتنعًا بهذا داخلي، كل ما في الأمر أنني رأيت أنَّ القدر ألقاني بالمصادفة في منطقة مشتعلة بالأحداث الساخنة، التي تستحقُّ منَّا تدوين تفاصيلها؛ لأسباب مختلفة، من أهمِّها عرض جانب حقيقي -ربَّما يكون مخفيًّا عن الكثيرين- لواحد من أكثر الأحداث مأساويَّة في تاريخنا العربي المعاصر، كذلك أرى أنه من المهم أن نترك لأحفادنا سجلًّا نجمع لهم فيه سيرتنا، وما قمنا بفعله؛ ربما يكون مفيدًا لهم في مشوار الحياة الصعب، بخلاف أنني أؤمن كذلك بأهمِّيَّة أن يدوِّن التاريخَ صانعوه الحقيقيُّون... كل هذه الأسباب تُعتبر أسبابًا عامَّة، أمَّا أسبابي ودوافعي الخاصَّة فتتلخَّص في وعدٍ قطعته على نفسي، ورأيت أنه يتعيَّن عليَّ أن أفي به، وقبل هذا الوعد هناك دَينٌ كبير في عنقي؛ يستلزم مني أن أحاول الوفاء بجزء منه على الأقل. أمَّا الوعد فهو لمنى؛ زوجة محجوب -كما ذكرت في المقدمة-، وأمَّا الدَّيْن فهو لمحجوب نفسه: هذا الرجل الأسطورة، الذي تعلَّمت منه أشياء كثيرة، وكان يحقُّ لي أن أخصِّص الكتاب بالكامل للحديث عنه، وعن سيرته وأعماله البطولية العظيمة، غير أن سخونة الأحداث التي عايشتها خلال "أيلول الأسود" لم تسمح لي بأن أُفرد المجال له

وحده؛ لذا رأيت أنه -على الأقل- يتوجَّب أن أعرِّف القارئ عن قربٍ أكثر بهذه الشخصية نادرة المثال:

محجوب عمر رجل.. التّناقُضات البَنّاءة

اسمه الحقيقي: رؤوف نظمي ميخائيل، وُلِدَ في 1932/4/8، بإحدى القرى التابعة لمركز ملوي بمحافظة المنيا، في صعيد مصر.

وهو أرثوذوكسي مصري، تفوَّق في دراسته، ليدرس الطبَّ في القصر العيني بالقاهرة، وكان يمتلك ذاكرةً فوتوغرافيَّةً ساعدته على النجاح في الدراسة، رغم الاعتقالات المتواتِرَة التي كان يتعرَّض لها كل فترة بسبب انتمائه التنظيمي، والتي وصلت إلى ما يقرب من عشر سنوات.

تزوَّج رؤوف في سِنٍّ مُتأخِّرة من مارونيَّةٍ لبنانيَّة، هي السيدة منى عبد الله، كانت مُناصِرَةً للثَّورة، وكان يتعامل معها كصديقة وحبيبة.

التحق بالحزب الشيوعي المصري "حدتو" في سِنٍّ مبكِّرة، وتدرَّج فيسلك العمل داخله إلى أن أصبح قياديًا، ثم ترك "حِدِتُّو" (التنظيم الأم)، ليكون مع رفاقه في تنظيم "الرَّاية"، وكان على يسار "حدتُّو"... ترك رؤوف مصر بعد هزيمة 67 ليلتحق بالعمل الفدائي للنضال في الأردن، واختار العمل مع منظَّمة "فتح" من بين 13 فصيلًا؛ لأنها "لم تكن تعمل انطلاقًا من أيدولوچية محدَّدة" كما قال، بعد أن نبذ الأيدولوچيَّات المُتشدِّدة.

كان يطبق قواعد الاشتراكية العِلميَّة بدلًا من التَّشدُّق بها مثل المُثقَّفين؛ كمحاربة العَدوِّ من أبعد نقطة لا يستطيع الوصول إليك فيها! وهو أوَّل كادر شيوعي يتحرَّر فعليًا من قيود "الدوجماتيزم"، التي هي آفة المُثقَّفين من الأحزاب الراديكالية؛ لذلك ترك وراءه تاريخًا نضاليًا يصلح للتَّدريس بالفعل...

رغم انتمائه للدين المسيحي إلَّا أنه لم يكن يستطيع النَّوم إلا على صوت المصحف المُرتَّل، ويحفظ أجزاءً كبيرةً من القرآن الكريم -كما يحفظ أجزاء من الإنجيل، والتوراة، وفصولًا من كتاب "رأس المال" لماركس-، واشتهر في جنوب الأردن بلقب "الشيخ محجوب"، لدرجة أنهم كانوا يدعونه لإلقاء خُطبَة الجمعة! كان

يعشـق ضريـح "السـيدة زينـب"، ويتحـدَّث إليها عـلى أنها مـصر! وقـد كتـب ثُلاثِيَّتَـه الوحيـدة عـن "أم هاشـم" (مـصر)، وهـي مؤثِّـرة جـدًّا.

عندمـا قَـرَّر الشـيوعيُّون والإخـوان التَّفـاوُضَ والاتفـاق فيـما بينهـم عـلى آليـات العمـل الوطنـي في فـترة الخمسـينات كان محجـوب هـو مُمثِّـل اليسـار، وكان سـيد قطـب يُمثِّـل الإخـوان، وكانـت المفاوضـات تتـمُّ في أحـد المسـاجد.

كان الاسـم الحـركيُّ لـه في التنظيـم الشـيوعي هـو "محجـوب"، وأُضيـف إليـه "عُمَـر" بعـد ذلـك، بعـد وفـاة صديـق مُشـتَرَكٍ، كان شـابًّا غـير شـيوعي، وكان محبوبًـا جـدًّا، اسـمه "عـلي عمـر"، وكاد أبـوه يمـوت حُزنًـا عليـه، رغـم كل محاولاتنـا التـي بذلناهـا لمواسـاته، وسـعينا لإقناعـه بأننـا جميعًـا أبنـاؤه، لم يهـدأ -نسـبيًّا- إلا بعـد أن أقنعـه محجـوب بأنـه ابنـه بالفعـل، ودلالـة عـلى ذلـك غـيَّر اسـمه الحـركيَّ إلى: "محجـوب عمـر"!

كان محجـوب قياديًّـا بطبيعتـه، وإذا حـضر تَجمُّعًـا لأوَّل مـرَّة اختـير زعيـمًا... حـدث ذلـك في الأشرفيـة في "أزمـة أيلـول" -عـلى سـبيل المثـال- ولم يكـن قـد دخلهـا مـن قبـل. كانـت ملامحـه أَمْيَـلَ إلى القسـوة، ولكـنَّ قلبـه أرقُّ مـن قلـوب الأطفـال، وبرغـم رِقَّـة قلبـه كان قـادِرًا عـلى اتخـاذ القـرارات الصعبـة في الوقـت المناسـب، وقـد مـرَّت عـدَّة أدلَّـة بهـذا الكتـاب تؤكِّـد مـا أقولـه.

وبرغــم قــدرات محجــوب القياديَّــة إلا أنــه كان مُتواضِعًــا بالفعــل، في السـجن -مثـلًا- كان يختـار لنفسـه أحقـرَ الأعـمال، مثـل تنظيـف دورات ميـاه السِّـجن، دون أن يطلـب منـه أحـدٌ ذلـك، لكنـه كان يتصـدَّى لمثـل تلـك الأعـمال حتـى يكفـي زمـلاءه مؤونـة القيـام بهـا!

مـن العلامـات الجسـمانية الغريبـة التـي لاحظتهـا لـدى محجـوب أن السـبابة في يـده اليمنـى كانـت أطـول مـن الوسـطى بنفـس الكـف! وكان عبـد النـاصر لديـه نفـس الأمـر؛ فكنـت أداعبـه دائمًـا بالقـول إنـه زعيـم أيضًـا بمـا أنـه يشـترك مـع الزعيـم عبـد النـاصر في هـذه الصفـة الغريبـة!

لم يمنـع تمتُّـع محجـوب بـكل الصفـات القياديـة التـي كان يمتلكهـا مـن تواضُـعٍ وأدبٍ جـمٍّ، وكانـت أشـهر أقوالـه التـي يردِّدهـا دومًـا: "إحنـا خدَّامـين اللَّطافـة"!

وبالإضافة إلى تاريخ محجوب النضالي كان فنانًا، وكتب عدَّة مسرحيات للأطفال منها "السَّبع في السِّيرك" (مُنِعَت إعادة طباعتها؛ فقد كانت مُوجَّهةً للكبار في الحقيقة، وهي تحكي عن العلاقة بين المناضلين والدولة)، وبعض القصص، إلى جوار كتابة الشعر. كان يمتلك صوتًا رائعًا أيضًا، ويحب أن يغني الأغاني القديمة، كما يغني أغاني الأطفال الذين كان يثق في أن المستقبل للأطفال، ثم للأشبال؛ ولذلك كان يهتمُّ بهم، أمَّا جيلنا نحن (الذي كان ينتمي إليه) فلم يكن يعوِّل عليه كثيرًا، تجلَّى ذلك في عنوان قصيدة له، كان يقول: "أنا جمهر.. مفرد جمهور"!

رحل رؤوف (أو محجوب) عن عالمنا في 2012/3/17.

نبذة عن الكاتب

د. يسري هاشم

ولد في 1939/11/29.

بداية وعيه كطفل بدأت في منتصف الأربعينات عندما دخلت مصر الحرب ضد ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.

بدأ المشاركة في الحياة السياسية وجدانيًّا مع ثورة يوليو 1952.

شارك في حرب 1956 في قوات الدفاع المَدني، حيث كان يشترك في تحذير الأهالي من الغارات.

انتظم في العمل السياسي فعليًّا كعضو في تنظيم القوميين العرب الذي كان تنظيمًا سِرِّيًّا، ثم أصبح عضوًا في التنظيم الطليعي الذي كان يتبنَّاه عبد الناصر.

تطوَّع في القوات المسلحة سنة 1967، فكُلِّف كملازم أوَّل في القوات البحرية أثناء حرب يونيو.

تطوَّع للعمل مع الفدائيين الفلسطينيين بالأردن، وحضر أحداث أيلول الأسود 1970، حيث كان موجودًا بالأشرفية في هذا التوقيت.

سافر للعمل في انجلترا، بالتأمين الصحي هناك، في يناير سنة 1973.

عُيِّن مُلحقًا طبِّيًّا بالسفارة المصرية في لندن سنة 1975.

عمل بالمملكة العربية السعودية كأخصائي جراحة عامَّة سنة 1979.

عمل في وزارة الصحة كمدير طبي واستشاري جراحة عامة سنة 1995.

أحيل للمعاش في أواخر 1999، وانتُدِب للعمل في المكتب الاستشاري الفني لوزير الصحة.

انضمَّ لمجموعة الحرافيش (أصدقاء نجيب محفوظ) عام 1990.

رغم أن له عيادة خاصة فهو يفخر أنه لم يتقاض أي أتعاب من مريض قط -فقيرٍ أو غني- لمدة حوالي 55 عامًا؛ إيمانًا منه أن الخدمة الصحية حَقٌّ من حقوق الإنسان، منصوص عليه في مواثيق الأمم المتحدة.

كانت أحداث أيلول الأسود نقطة فارقة في التاريخ العربي المعاصر؛ إذ أصبح صادمًا للجميع أن التعايش الأردني - الفلسطيني تحت مظلة المشروع العربي القومي لم يصمد أمام إشكاليات الواقع وتناقضات هذا المشروع نفسه، ولم تكن هذه هي المرة الأولى.. فعلى الرغم من اختلاف التفاصيل، فإن نفس الأسباب تقريبًا هي التي أفضت أيضًا -قبل ذلك- إلى انهيار الوحدة بين مصر وسوريا، ثم في مرحلة لاحقة إلى الاقتتال الفلسطيني - اللبناني أيضًا. ولكن، بعيدًا عن الظروف والملابسات السياسية التاريخية، التي ستظل ملكًا للتاريخ، فإن الكتاب الذي بين أيدينا الآن هو شهادة حية عن بطولات وتضحيات ستظل ملهمة لروح "المقاومة" والإصرار على بقاء الحلم حيًّا، رغم تعقيدات المشهد والتباس المواقف، وصعوبات تحديد الوجهة التى يمكن أن تخرجنا من المتاهة التي دخلها المشروع القومي العربي، ولم يخرج منها حتى الآن.

الناشر

11

يوماً مات بعدها جمال عبد الناصر

عندما ترى أبناءَ الوطن العَربيِّ هادئين.. ساكنين.. صامتين؛ فهذا لا يعني سوى اتِّفاقهم على أمرٍ واحد: هُدنَة قصيرة، يتابعون بعدها القتال! هذه المقولةُ تَردَّد صداها كثيرًا فوق جبال الأردن، لكنها تلاشَت فجأةً في أحد عشر يومًا فقط. ملحمَةٌ تاريخيَّةٌ، أعادها للحياةِ -وبثَّ فيها الرُّوحَ مرَّةً أخرى- قَلَمُ الطبيب المُناضِل يسري هاشم، في قصَّةٍ شديدة الواقعية والدِّراميَّة، تتَّكِئُ -بِثِقَةٍ- على أحداث حقيقيَّةٍ أغرب من الخيال، مُدعَّمة بوقائعَ من نسيجها الأصليِّ، بصوت صاحِبِها وشاهِدِها الوحيد الذي بقيَ معنا على قيد الحياة، ليروي لنا -بصراحَةٍ مُطلَقةٍ- شهادَتَه للتَّاريخ عن أصعب أيام العرب، وما سبقها، ومَهَّد لها بتحليلٍ ورؤيةٍ لا تخلو من فِطنَةٍ اجتماعيَّة للأشخاص، ووعيٍ سياسيٍّ لِما دار حوله من أحداث جِسامٍ. تدور الأَحداث في جنوب عمَّان، لأطبَّاء مصريين، تغيَّرت حياتهم مائة وثمانين درجة بعد وصولهم العاصمة الأردنية بأيامٍ قليلَةٍ، بعد عودتهم من الجحيم في جنوب الأردن؛ للعَمَل بمستشفى الأشرفيَّة، التي تمَّ قَصفُها بعُنفٍ خلال أحداث أيلول الأسود 1970، لتفقد الكثيرَ من مَرافِقها الحيويَّة، ويواجهوا جميعًا مصيرًا مجهولًا، في تَحدٍّ غير مسبوقٍ، وصراعٍ مع عقارب ساعَةٍ لا تعود للوَراءِ أبدًا، ولا تَتوقَّف -حتَّى بُرهَةً- لالتقاط الأنفاس. كان هناك الحياة والموت، الحُبُّ والكراهيَة، الأنانية والتَّفاني... كُلُّ مُتناقِضات الإنسان ونَزواتِه في مكانٍ واحد. هنا فقط، وفي تلك البقعة الصغيرة من العالم، سترى الجَرَّاح المِصريَّ يسري هاشم، وزميلَه ورفيقَ كفاحِه المُناضِلَ العظيم رؤوف نظمي (الشهير بـ "محجوب عمر")، والمُمرِّضة العراقيَّة، والمُتطوِّع الفلسطينيّ، ومُساعِدَ الطَّبيب الأردني- يتعاونون من أجل تخفيف آلام مُصابٍ سوريٍّ، أو دَفْنِ جثمان شهيدٍ لبنانيٍّ...

هذه المُذكِّرات ترسم -بدِقَّةٍ- مَلامِحَ شخصيَّاتٍ حقيقية، وتغوص في أعماقها، وتحكي تاريخَ نِضالِها الذي لم يَكُن وليدَ اللَّحظة في أيِّ وقتٍ، بل خَرَجَ تِباعًا، منذ تَشكُّل وَعيُهم القوميُّ بقضيَّة العُروبة، من خلال سَردٍ سَلِسٍ، وأسلوبٍ شَيِّقٍ، لتصنع هذه السُّطورُ دائِرةً كبيرةً، ناصِعَةَ البَياضِ، تُجسِّد تَضحيةً غيرَ مَسبوقةٍ لأيقوناتِ نضالٍ حقيقيٍّ، وأبطالٍ أسطوريِّين، نفتقدهم هذه الأيّام، وسطَ أحداثٍ دامِيَةٍ، كانت -ولا تزال- جُرحًا كبيرًا لم يَندَمِلْ في جَسدِ الوطن العربي بأكمله.

أشرف العشماوي

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف

ISBN 978-977-313-824-0

9 789773 138240

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات